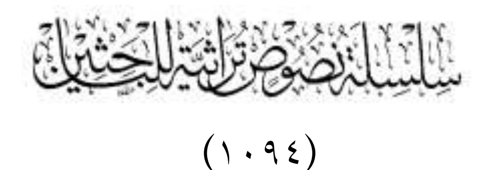


(١٠٩٤)

الشوق

أحكام وأحوال

من مصنفات ابن القيم

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٥هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"قال (١):

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت مايلقون من بينهم وحدي (٢)

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي (٣)

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه. ومنه سمي الغريم غريفا لملازمته صاحبه (٤). ومنه قوله تعالى: ﴿إن عذابها كان غراما (٦٥)﴾ [الفرقان: ٦٥]. وقد أولع (٥) المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقل أن تجده في أشعار العرب.

ثم العشق، وهو إفراط المحبة. ولهذا لا يوسف به الرب تعالى، ولا يطلق في حقه (٦).

ثم **الشوق**، وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر (٧). وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى (٨)، كما في مسند الإمام أحمد (٩) من

---

(١) ف: "وقال بعضهم".

(٢) س: "يشكو". ل: "يشتكي"، وكلاهما تحريف.

(٣) أنشدهما المصنف في روضة المحبين (٢٧٩،٢٧١) لشاعر الحماسة. انظر حماسة أبي تمام (٢/ ٣٥) والبيتان لمجنون ليلى في ديوانه (٩٢).

(٤) ف: "لملازمة صاحبه". وهو ساقط من ل.

(٥) ف: "وقد ولع".

(٦) وانظر روضة المحبين (١١٠).

(٧) انظر روضة المحبين (١١٢)، وطريق الهجرتين (٧١٣) والمدارج (٣/ ٥٣).

(٨) زاد بعض من قرأ نسخة س: "مجازا" في حوض ياء "تعالى"، وهو تصرف قبيح منه.

(٩) ٤/ ٢٦٤ (١٨٣٢٥). وأخرجه النسائي (١٣٠٦) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) وغيرهم من طريق إسحاق الأزرق وغيره عن شريك القاضي عن أبي هاشم عن =." [1]

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٢٧

"حديث عمار بن ياسر أنه (١) صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال: أما (٢) إني دعوت فيها بدعوات كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو بهن: "اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي (٣)، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي. اللهم وأسالك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا (٤)، وأسألك
القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم (٥)، وأسألك **الشوق** إلى لقائك، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان" واجعلنا هداة مهتدين".

[٩٢/ ب] وفي أثر آخر: "طال **شوق** الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد **شوقا**" (٦).

= أبي مجلز قال: صلى بنا عمار، فذكره.

ورواه حماد بن زيد وحماد بن سلمة وغيرهما عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عمار فذكره. أخرجه النسائي (١٣٠٥) وابن حبان (١٩٧١) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٤٤) وغيرهم.

والحديث صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

(١) ف: "في أنه".

(٢) لم ترد "أما" في ف. وسقط قبلها "قال" من ز.

(٣) "إذا ... لي" ساقط من س.

(٤) س: "في الحق والرضا".

(٥) "الكريم" ساقط من ف.

(٦) أورده المؤلف في طريق الهجرتين (٧١٥)، وروضة المحبين (١١٣) وقال فيه: "جاء في أثر إسرائيلي". وقد أخرجه صاحب الفردوس (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء، وانظر: إحياء العلوم (٤/ ٣٢٤)، وحلية الأولياء (١٠/ ٩٦) (ص). =". [1]

"وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه" (١).

وقال بعض أهل البصائر (٢) في قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت:

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٢٨

٥]: لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلا وموعدا للقاء تسكن نفوسهم به.

وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها. وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل: ٩٧]. ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار (٣)، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح؛ بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة.

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة،

= وأخرجه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (١٦) عن أحمد بن مخلد الخراساني قال: قال الله عز وجل: ألا قد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إليهم لأشد شوقا. وما تشوق المشتاقون إلا بفضل شوقي إليهم ... " (ز).

(١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. أخرجه البخاري في الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب من أحب لقاء الله ... (٢٦٨٣).

(٢) هو أبو عثمان الحيري النيسابوري (٢٩٨ هـ). انظر الرسالة القشيرية (٣٣٢).

وقد نقل المؤلف قوله في روضة المحبين (١١٣، ٥٨١) أيضا.

(٣) "والكفار" ساقط من ف.." [1]

"فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها، وصارت هما واحدا في مرضاة الله، ولم شعث قلبه بالإقبال على الله (١)، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمة -بكل واد منها شعبة- على الله. فصار ذكر محبوبه الأعلى، وحبه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه = هو المستولي عليه (٢). وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده (٣)، بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله. وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر. وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن. وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث؛

كما في صحيح البخاري عنه - صلى الله عليه وسلم - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال:

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٢٩

"ما تقرب (٤) إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به [٩٣/ أ]، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها (٥). فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي.

---

(١) س: "لم يشغب قلبه ... ". ل، خا: "لم يتشغب قلبه ... ". وفي ف: "لم يشغب قلبه بالإقبال على سوى الله تعالى"، وهذا صحيح في المعنى، ولكن رجحنا ما جاء في ز. ويؤيده قول المؤلف في المدارج (٣/ ٩٦): "ولا يلم شعث القلوب شيء غير الاقبال على الله"، وفيه (٣/ ١٦٤): "ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله". وانظر ما ياتي في كتابنا هذا (٤٩٦). وفي ط المدني وعبد الظاهر وغيرهما: "ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله"، والظاهر أنه تصلاف من الناشرين.

(٢) "عليه" ساقط من س.

(٣) "وقصوده" ساقط من ف.

(٤) ف: "وما تقرب".

(٥) ل: "عليها".." [(١)]

"**والشوق** إلى لقائه والفرح (١) والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار.

فمن كانت هذه الجنة مأواه ها هنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد.

ومن حرم هذه الجنة، فهو لتلك أشد حرمانا. والأبرار في النعيم، وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا. والفجار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا.

قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل: ٩٧].

وطيب الحياة جنة الدنيا.

وقال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمر من ضيق الصدر؟ وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم (٦٤)﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٣٠

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا، وأنعمهم بالا، وأشرحهم صدرا، وأسرهم قلبا. وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي– صلى الله عليه وسلم –: "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا". قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: "حلق الذكر" (٢).

---

(١) ل، ز: "الفرح به".

(٢) تقدم تخريجه في ص (٢٨١).." [١]

"إليه سبيلا. وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب، كقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ [المائدة: ٣٥]. وأما في المغالبة وإنما يستعمل بعلى كقوله: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث: أنهم لم يقولوا: إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ [الإسراء: ٤٢]، وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه، وتقربهم زلفى إليه، فقال: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟

فصل

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة، من الذوق، والوجد (١)، والحلاوة، **والشوق**، والإنس، والاتصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصد والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادته [١٠٣/ ب] والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته (٢).

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٥٩

(١) ف: "الوجد والذوق".

(٢) "والضارة ... شقاوته" ساقط من ف. وانظر إغاثة اللهفان (٨٤٦).." [1]

"فطباع الناس مختلفة في ذلك، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إبائها وامتناعها.

وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل (١) عند امتناع امرأته أو سريته (٢) وإبائها بحيث لا يعاودها. ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع، وتشتد شهوته (٣) كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل (٤) من لذة بالظفر بالصيد (٥) بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استعصائها (٦) وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وراودت (٧) وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: [١٠٦/ ب] أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث (٨) يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي (٩) الطالبة والراغبة، وقد غلقت الأبواب، وغيبت الرقباء.

---

(١) "عند إبائها ... تضمحل" ساقط من ف.

(٢) س: "وسريته".

(٣) ز: "ويشتد شوقه". ل: "فيشتد شوقه".

(٤) "له ... يحصل" ساقط من ل.

(٥) ما عدا ف: "الضد"، ولعله تصحيف.

(٦) س: "استصعابها"، وأشير إلى هذه النسخة في حاشية ف.

(٧) "وراودت" ساقط من ل.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٧٣

(٨) ف: "بحيث إنه".

(٩) "التاسع ... هي" ساقط من ف. وكلمة "الراغبة" الآتية أيضا سقطت منها.." [١]

"﴿واتقوا الله ولا تخزون (٦٩) قالوا أولم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين (٧١) لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢)﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧٢]، فهذه عشقت.

فحكاه (١) سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور، ولم يبال بما (٢) في عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعز عليهم شفاؤه. وهو -لعمر الله- الداء العضال، والسم القتال، الذي ما علق بقلب إلا وعز على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام. فإنه تارة يكون كفرا، كمن اتخذ **معشوقه** ندا يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به؛ وإنما يغفر بالتوبة الماحية.

وعلامة هذا العشق الشركي الكفري أن يقدم العاشق رضا **معشوقه** على رضا ربه، وإذا تعارض عنده حق **معشوقه** وحظه وحق ربه وطاعته قدم حق **معشوقه** (٣) على حق ربه، وآثر رضاه على رضاه (٤)، وبذل **لمعشوقه** أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه -إن بذل- أردأ ما عنده،

---

(١) س: "فحكى الله". ل: "فحكاه الله".

(٢) "بما" ساقط من س.

(٣) "وحظه ... **معشوقه**" ساقط من س.

(٤) ف: "رضا ربه".." [٢]

"واستفرغ وسعه في مرضاة **معشوقه** وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه -إن أطاعه- الفضلة التي تفضل عن **معشوقه** من ساعاته (١).

فتأمل حال أكثر عشاق الصور (٢)، هل (٣) تجدها مطابقة لذلك؟ ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٨٥

(٢) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٨٨

وإيمانهم في كفة، وزن وزنا يرضي الله ورسوله، ويطابق العدل.

وربما صرح العاشق منهم بأن وصل **معشوقه** أحب إليه من توحيد ربه، كما قال العاشق الخبيث (٤):

يترشفن من فمي رشفات ... هن أحلى فيه من التوحيد (٥)

وكما صرح الخبيث (٦) الآخر بأن وصل **معشوقه** أشهى إليه من رحمة ربه، -فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان (٧) - فقال: [١٠٧/ ب]

وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل (٨)

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك.

---

(١) ف: "ساعته".

(٢) س: "العشاق للصور".

(٣) لم ترد "هل" في ف، ل.

(٤) ل: "الحبيب"، تصحيف.

(٥) من قصيدة للمتنبي قالها في صباه. ديوانه (٣٥).

(٦) ل: "الحبيب"، تصحيف.

(٧) س: "فعياذا بالله من هذه الحال ومن هذا الخذلان". وأشير في الحاشية إلى ما أثبتناه من غيرها.

(٨) سبق البيت مع قصته (٣٩٥).." [١]

"وكثير من العشاق يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير **معشوقه** البتة، بل قد ملك **معشوقه** عليه قلبه كله (١)، فصار عبدا محضا من كل وجه **لمعشوقه**! فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية (٢) مخلوق مثله، فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله **لمعشوقه**، فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإن تلك ذنب كبير، لفاعله حكم أمثاله؛ ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك.

وكان بعض الشيوخ من العارفين (٣) يقول: لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٨٩

فصل

ودواء هذا الداء القتال: أن يعرف ما (٤) ابتلي به من الداء المضاد

---

(١) لم ترد "عليه في س. ولم ترد "كله" في ف، ل.

(٢) زاد في ف بعدها: "غيره".

(٣) ز: "الشيوخ العارفين".

(٤) في طبعة عبد الظاهر: "أن ما"، وزيادة "أن" هذه خطأ جعل الكلام ناقصا، وأدى إلى زيادة أخرى في بعض الطبعات، وسياقها في طبعة المدني: " [أن] ما ابتلي به من [هذا] الداء المضاد للتوحيد [إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته] أولا". وقد وضع الناشر "إنما هو ... أولا] بين قوسين، وقال في تعليقه: "هذه الزيادة ساقطة من المخطوطة ونرى أنه لابد منها". وهي مع التعليق نفسه في طبعة السلفية (٢٣١) ثم جاءت طبعات معاصرة أثبتت الزيادة وحذفت القوسين!." [١]

"وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها. فإذا (١) عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة (٢) وجب عليه أمران: أمر علمى، وأمر عملي. فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا [١٠٨/ أ]، تبين له الرجحان وجب عليه إيثار (٣) الأصلح له.

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره. فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما صاحبه، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه. فإن من أحب شيئا غير الله عذب به، ولابد:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق (٤)

فيبكي إن نأوا شوقا إليهم ... ويبكي إن دنوا حذر الفراق

فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاقي (٥)

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٠

(١) س: "وإذا".

(٢) "مصلحة و" ساقط من ز.

(٣) س، ل: "إتيان".

(٤) هذا البيت ساقط من ف.

(٥) الأبيات لنصيب في ديوانه المجموع (١١١). وهي في الحماسة (٢/ ٩٣) دون =." [1]

"والعشق، وإن استعذبه العاشق، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة **معشوقه**، يسومه الهوان (١)، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه، فقلبه

كعصفورة في كف طفل يسومها ... حياض الردى والطفل يلهو ويلعب (٢)

فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخلي عيش المسيب المطلق. فالعاشق كما قيل (٣):

طليق برأي العين وهو أسير ... عليل على قطب الهلاك يدور (٤)

وميت يرى في صورة الحي غاديا ... وليس له حتى النشور نشور

= عزو. وأوردها المؤلف في إغاثة اللهفان (٩٢، ٨٢٣) أيضا.

(١) ف: "سوء الهوان".

(٢) تمثل به المؤلف في روضة المحبين (٢٠٢)، وإغاثة اللهفان (٨٢٣) أيضا. وقد نسب البيت إلى ابن الزيات في معجم الشعراء للمرزباني (٣٦٦)، والفتح بن خاقان في الزهرة (٨٥). وهو في اعتلال القلوب (٣١٢) من إنشاد ابن الزيات. ورواية العجز فيها جميعا: "ورود حياض الموت والطفل يلعب".

وانظر ديوان مجنون ليلى (٣٨).

وقد ورد بعده في طبعة المدني والنشرات التابعة لها زيادة خلت عنها النسخ الخطية، وهي: "كما قال بعض هؤلاء: ملكت فؤادي بالقطيعة والجفا ... وأنت خلى البال تلهو وتلعب"

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٢

(٣) "فالعاشق كما قيل" انفردت بها ف. وقد تمثل المؤلف بصدر البيت الأول في روضة المحبين (٢٠١).
(٤) ف: "تراه العين".." [١]

"السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه أفسد الذهن، وأحدث الوسواس. وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها. وأخبار العشاق (١) في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهد بالعيان.

وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات؛ فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله. وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق؟

وربما زاد جنونه على جنون غيره، كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين (٢)

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها (٣) إما فسادا معنويا أو صوريا (٤).

أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسنا منه ومن **معشوقه**، كما في المسند (٥) مرفوعا: "حبك للشيء يعمي [١٠٩/أ]، ويصم". فهو يعمي

---

(١) ف: "العاشق".

(٢) تقدم البيتان في ص (٤١٨).

(٣) ز: "نقصها"، تصحيف.

(٤) س: "ضروريا"، تحريف.

(٥) ٥/ ١٩٤ (٢١٦٩٤)، ٦/ ٤٥٥ (٢٧٥٤٨). وأخرجه أبو داود (٥١٣٠) والبخاري في تاريخه (٢/ ١٠٧) والبزار في مسنده (٤١٢٥) والطبراني في مسند الشاميين (١٤٥٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢١٩) وغيرهم من طريق أبي بكر بن =." [٢]

"وأما إفساده للحواس ظاهرا (١)، فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو معروف في أخبار من قتلهم العشق.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٣

(٢) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٥

وقد رفع إلى ابن عباس -وهو بعرفة- شاب قد إنتحل (٢) حتى عاد عظما بلا لحم (٣) فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق. فجعل ابن عباس يستعيذ بالله (٤) من العشق عامة يومه (٥).

الثامن: أن العشق -كما تقدم- هو الإفراط في المحبة بحيث يستولي **المعشوق** على قلب العاشق حتى لا يخلو (٦) من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه. فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية، فتتعطل تلك القوى، فيحدث بتعطلها (٧)

---

(١) س: "فظاهر"، خطأ.

(٢) لم يرد "انتحل" في كتب اللغة بمعنى نحل الجسم نحولا: رق وهزل. والظاهر أنه استعمال عامي.

(٣) كذا في ف. وفي غيرها: "لحما على عظم". وفي حاشية س: "جلدا" وفوقه علامة "ص". وفي ز: "صار" مكان "عاد".

(٤) "بالله" لم يرد في س.

(٥) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٢٢) وابن الجوزي في ذم الهوى (٣٧٣) وابن عساكر في تاريخه (١/ ٢٣٧ - ٢٢)، (١٧٩٩/ ٢) من طريق محمد بن عيسى بن بكار عن فليح بن إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن صالح عن عمه سليمان بن علي عن عكرمة قال: "إنا لمع ابن عباس عشية عرفة ... "

نحوه. وسنده ضعيف، محمد بن عيسى بن بكار لم أقف عليه. وفليح ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ١١) وقال: يعتبر حديثه من غير رواية شاذان عنه.

(ز). وانظر مصارع العشاق (٢/ ٢١٧). (ص).

(٦) س: "حتى يخلو"، خطأ.

(٧) س، ل: "بتعطيلها". وقد سقط من ل: "تلك القوى فيحدث".." [1]

"والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: "يداك أوكتا، وفوك نفخ" (١).

فصل

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٧

فأما مقام ابتدائه، فالواجب عليه فيه (٢) مدافعته بكل ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرا قدرا أو شرعا.

فإن عجز عن ذلك، وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه -وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمان ذلك، وأن لا يفشيه (٣) إلى الخلق، ولا يشبب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم. فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله. فإنه يعرض المعشوق بتهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه (٤)، وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة. وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو

فلانة كذبه واحد، وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون! وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني،

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميداني (٣/ ٥١٩).

(٢) لم يرد "فيه" في س.

(٣) ف: "ولا يفشيه".

(٤) "فيه" ساقط من ف.." [(١)]

"فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبة أو رهبة (١)، تعدى الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديوثا ظالما (٢). وإذا كان النبي- صلى الله عليه وسلم - قد لعن الرائش (٣) -وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة- فما الظن بالديوث الواسطة (٤) بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرمة؟ فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في نفس أو مال أو عرض.

فإنه كثيرا ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس تكون حياتها مانعة من غرضه. فكم من قتيل طل دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب! وكم خببت (٥) امرأة على بعلها، وجارية وعبد على سيدهما! وقد لعن

---

(١) ف، ل: "برهبة".

(٢) س: "ظلما"، خطأ.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٤٩٩

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٩ (٢٢٣٩٩) وغيره من طريق ليث بن أبي سليم عن أبي الخطاب عن أبي زرعة عن ثوبان قال: "لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الراشي والمرتشي والرائش".
والحديث مداره على ليث وهو ضعيف الحفظ وقد اضطرب فيه كثيرا.
وأيضا أبو الخطاب مجهول، وأبو زرعة لم يسمع من ثوبان. ولفظة "الرائش" لم يروها إلا ليث. انظر طرقه في تحقيق المسند (٣٧/ ٨٦). والحديث ضعفه الحاكم والمنذري والهيثمي.
قلت: وورد عن عبد الله بن عمرو أنه قال: "لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الراشي والمرتشي".
أخرجه الترمذي (١٣٢٧) وابن الجارود (٥٨٦) وابن حبان (٥٠٧٧) والحاكم ٤/ ١١٥ (٧٠٦٦) وغيرهم.
والحديث صححه الترمذي وابن الجارود وابن حبان والحاكم وغيرهم.
(٤) ف ز: "الذي" مكان "الواسطة".
(٥) ف: "خبب". وختبت، أي خدعت وأفسدت، كما في الحديث الذي أشار إليه المؤلف: "من خبب عبدا على أهله فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها =." [(١)]

"رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من فعل ذلك، وتبرأ منه (١)، وهو من أكبر الكبائر.
وإذا كان النبي- صلى الله عليه وسلم - قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، أو يستام على سوم أخيه (٢)، فكيف بمن يسعى في التفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الديثة (٣) لا يرون ذلك ذنبا (٤).
فإن طلب العاشق وصل **معشوقه** ومشاركة الزوج والسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يرب (٥) عليها.
ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة. فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق، له المطالبة به يوم القيامة. فإن ظلم الوالد بإفساد فلذة كبده (٦) ومن هو أعز عليه من نفسه، [١١٠/ ب] وظلم الزوج

= فليس منا".
(١) ورد ذلك عند أحمد ٥/ ٣٥٢ (٢٢٩٨٠) وابن حبان (٤٣٦٣) والحاكم ٤/ ٣٣١ (٧٨١٦) وغيرهم.
والحديث صححه ابن حبان والحاكم. وورد من حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/ ٣٩٧) وصححه ابن حبان والحاكم.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠١

(٢) ز: "سومه". والحديث أخرجه البخاري في البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه (٢١٤٠) وفي الشروط (٢٧٢٧)؛ ومسلم في النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها في النكاح (١٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كذا ضبط بكسر أوله في س. والظاهر أنه أراد جمع الديوث، ولكن لا يجمع فيعول على فعلة. وفي ط المدني: "الديايثة"، وأخشى أن يكون إصلاحا من الناشر. وضبط في حاشية ط عبد الظاهر بفتح الدال والياء، يعني جمع دائث، والدائث ليس بالديوث، وإنما هو فريسته.

(٤) ف: "ديثا"، ولعله تصحيف.

(٥) س، ل: "يربوا".

(٦) ل: "ولده كبده" وفي ف: "ولده كبيرة"، كلاهما تحريف.." [1]

"بإفساد حبيبته (١) والجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله (٢).

ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه. فيا له من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة!

فإن كان ذلك حقا لغاز في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: "خذ من حسناته ما شئت"، كما أخبر بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ثم قال النبي (٣) – صلى الله عليه وسلم –: "فما ظنكم" (٤)؛ أي فما تظنون يبقي له من حسناته؟

فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارا أو ذا رحم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا بقطيعة الرحم وأذى الجار. و"لا يدخل الجنة قاطع رحم لا (٥) ولا "من لا يأمن جاره بوائقه" (٦).

فإن استعان العاشق على وقال **معشوقه** بشياطين الجن (٧) –إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك (٨) – ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر.

فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده به (٩)، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

---

(١) ف: "وظلمه بإفساد حبيبه".

(٢) "كله" ساقط من س.

(٣) ز: "رسول الله". وفي ل في الموضعين: "رسول الله".

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٢

(٤) تقدم تخريج الحديث في ص (٢٦٣).

(٥) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه. أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع (٥٩٨٤)؛ ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم ... (٢٥٥٦).

(٦) تقدم تخريجه (٢٦٣).

(٧) كلمة "الجن" ساقطة من ف.

(٨) ما عدا س: "ونحو ذلك".

(٩) "به" ساقط من ف، ل. وفي ف: "مقصوده".." [١]

"والمقصود أن التعاون في هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره، فأمر لا يخفى. فإنه إذا حصل له مقصوده من **المعشوق**، **فللمعشوق** أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بلا، فيبقى (١) كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان.

فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه، والعاشق يعين **المعشوق** على ظلم من يكون غرض **المعشوق** متوقفا على ظلمه. فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون (٢) فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم للناس، بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت العادة بين العشاق **والمعشوقين** من إعانة العاشق **لمعشوقه** على ما فيه ظلم وبغي وعدوان (٣)، حتى ربما يسعى له [١١١/ أ] في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حله، وفي استطالته على غيره. فإذا اختصم **معشوقه** وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب **المعشوق** ظالما كان أو مظلوما.

هذا إلى ما ينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم، والتوصل بها إلى **المعشوق** (٤) بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين (٥) كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك. وربما أدى ذلك إلى قتل النفس

---

(١) س: "فبقي".

(٢) لم يرد "يكون" في س.

---

[١] الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٣

(٣) س: "عدوان وبغي".

(٤) س: "**معشوقه**".

(٥) ف: "سرقة أو غضبا أو جناية أو يمينا".." [١]

"التي حرمها الله ليأخذ ماله، يتوصل (١) به إلى **معشوقه**.

فكل (٢) هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور. وربما حمل على الكفر الصريح. وقد تنصر جماعة ممن نشأ في الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح، ففتن بها، فنزل ودخل عليها، وسألها نفسها، فقالت: هي نصرانية، فإن دخلت في ديني تزوجت بك، ففعل. فرقي ذلك اليوم (٣) على درجة عندهم، فسقط منها (٤)، فمات. ذكر هذا عبد الحق في كتاب "العاقبة" له (٥).

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة، وأمروها أن تطمعه في نفسها، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها. فهنالك: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (٢٧)﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق **والمعشوق** (٦) لصاحبه بمعاونته له على الفاحشة، وظلمه لنفسه (٧). فكل منهما ظالم لنفسه

---

(١) ف: "ليتوصل".

(٢) ل: "وكل".

(٣) س: "في ذلك اليوم". وفي ف: "الرجل" مكان "اليوم".

(٤) لم يرد "منها" في س.

(٥) ص (١٧٩). وقد تقدمت القصة مفضلة (٣٩٤).

(٦) ف: "**المعشوق** والعاشق".

(٧) زاد الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله بعده بين القوسين: "ما فيه"؛ لأنه ظن الجملة ناقصة. ثم جاءت النشرات التابعة لنشرته، وحذفت القوسين!." [٢]

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٤

(٢) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٥

"وصاحبه، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم. وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك. فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها.

والمعشوق إذا لم يتق الله، فإنه يعرض العاشق للتلف -وذلك ظلم منه- بأن يطمعه في نفسه، ويتزين له، ويستميله بكل طريق، حتى يستخرج منه ماله ونفعه، ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو (١) يسومه سوء العذاب. والعاشق ربما قتل **معشوقه** ليشفي نفسه منه، ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره.

فكم للعشق من قتيل من الجانبين! وكم قد أزال [١١١/ ب] من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتت من شمل! وكم أفسد من أهل للرجل وولد! فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هي **معشوقا** لنفسها، فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة. فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا (٢).

فعلى العاقل (٣) أن لا يحكم على نفسه عشق الصور، لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها. فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرر بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها. فلولا (٤) تكراره النظر إلى وجه **معشوقه** وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه.

فإن أول أسباب العشق الاستحسان، سواء تولد عن نظر أو سماع.

---

(١) "منه" ساقط من ز. وفي ف: "وهو".

(٢) "هذا" ساقط من س.

(٣) من هنا قارن بما جاء في فتوى في العشق (١٨٠ - ١٨١)، والسطور الأولى منقولة منها بحروفها.

(٤) ف: "ولولا".." (١)

"فإن لم يقارنه طمع في الوصال، وقارنه الإياس من ذلك؛ لم يحدث له العشق. فإن اقترن به الطمع، فصرفه عن فكره (١) ولم يشتغل قلبه به (٢)؛ لم يحدث له ذلك.

فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن **المعشوق**، وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله: إما خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار؛ وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر، لم يحدث له العشق.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٦

فإن فاته هذا الخوف، فقارنه خوف دنيوي، كخوف تلاف (٣) نفسه وماله، وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه؛ وغلب هذا الخوف لداعي العشق = دفعه.

وكذلك إذا خاف من ذوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له من ذلك **المعشوق**، وقدم محبته على محبة **المعشوق**؛ اندفع عنه العشق.

---

(١) ف: "فصرفه فكره".

(٢) ز: "ولم يشغل ... ". و"به" ساقط من ل.

(٣) مصدر تلف، والمذكور في كتب اللغة: التلف. وقد ورد في كلام الشعراء والكتاب المتأخرين، ومن ذلك قول ابن زيلاق الموصلي الكاتب الشاعر (٦٦٠ هـ) من قصيدة:

تجمعت فيك للورى فتن ... على تلاف النفوس تتفق

انظر: فوات الوفيات (٤/ ٣٨٨). وقد جمع أبو العلاء بين المصدرين في قوله من لزومية (٢/ ١٠٥):

تلاف أمرك من قبل التلاف به ... فغاية الناس في دنياهم التلف

وفي النسخ المطبوعة: "إتلاف"، ولعله تغيير من بعض الناسخين أو الناشرين.." [1]

"فإن انتفى ذلك كله، أو غلبت محبة **المعشوق** لذلك؛ انجذب إليه القلب بكليته، ومالت إليه النفس كل الميل.

فإن قيل (١): قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب.

وقد (٢) قيل ليحيى بن معاذ الرازي: إن ابنك عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي (٣)! وقال بعضهم: العشق داء أفئدة الكرام (٤).

وقال غيره: العشق لا يصلح إلا لذي مروءة ظاهرة وخليقة طاهرة، أو لذي لسان فاضل وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع وحسب ناصع (٥).

وقال آخر: العشق يشجع جنان الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل، ويذل عزة الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق (٦).

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٧

وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له (٧).

---

(١) من هنا إلى ص (٥٣٢) فصل طويل في فوائد العشق التي ذكرها المؤلف على لسان المعترض، ثم رد عليه.

(٢) لم يرد "وقد" في ف.

(٣) فتوى في العشق (١٧٨).

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) ف: "الأعلاق"، تحريف.

(٧) فتوى في العشق (١٧٩)، المصون (٤٦)، بهجة المجالس (١/ ٨٢٣)، روضة =." [1]

"ثمنها من مالي. فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له (١).

ونحن (٢) لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة **بالمعشوق**، وإنما الكلام في العشق العفيف من الرجل الظريف الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين

معشوقه بالحرام. وهذا كعشق السلف الكرام والأئمة الأعلام. فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة (٣) عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعد ظالما من لامه. ومن شعره (٤):

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم .... ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم عليك الكاشحون وقبلهم .... عليك الهوى قد نم لو ينفع الكتم (٥)

فأصبحت كالنهدي إذ مات حسرة ... على إثر هند أو كمن شفه سقم (٦)

تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فذق هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز، عشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن

---

(١) الواضح المبين (٣١) عن امتزاج النفوس للتميمي. وانظر: روضة المحبين (٥٢١).

(٢) "ونحن" ساقط من ز. ولا يزال الكلام مستمرا على لسان المعترض.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٠٨

(٣) توفي سنة ٩٨هـ. انظر ترجمته في سير أعلام البلاء (٤/ ٤٧٥).

(٤) الأبيات في الأمالي (٢/ ٢٠)، ومصارع العشاق (١/ ٣٢١) وغيرهما.

(٥) الرواية: "لو نفع النم".

(٦) ما عدا ل: "الهندي"، تحريف. والمقصود عبد الله بن عجلان النهدي، وهند زوجه. انظر ترجمة عبد الله في الأغاني (٢٢/ ٢٤٥).." [1]

"وأدخله الجنة" (١). ثم أنشد:

انظر إلى السحر يجري في لواحظه ... وانظر إلى دعج في طرفه الساجي (٢)

وانظر إلى شعرات فوق عارضه ... كأنهن نمال دب في عاج

ثم أنشد:

مالهم أنكروا سوادا بخدي ... ه ولا ينكرون ورد الغصون

إن يكن عيب خده بدد الشع ... ر فعيب العيون شعر الجفون (٣)

فقلت له: نفيت القياس في الفقه، وأثبته في الشعر. فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعوا إليه. ثم مات من ليلته (٤).

وبسبب معشوقه صنف كتاب "الزهرة". ومن كلامه فيه (٥): من يئس ممن (٦) يهواه ولم يمت (٧) من وقته سلاه [١٤١/ أ] وذلك أن أول روعات اليأس (٨) تأتي القلب، وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فتأتي القلب، وقد وطأته لها الروعة الأولى (٩).

---

(١) انظر كلام المصنف على هذا الحديث في آخر الفصل.

(٢) س: "من لواحظه".

(٣) ورد الشطر الأول في ف هكذا: "إن يكن عيبه عيب الشعر".

(٤) ف: "في ليلته". وانظر: تاريخ بغداد (٥/ ٢٦٢).

(٥) وأوله عنوان الباب الثامن والأربعين منه. انظر ص (٤٥٢).

(٦) ز: "تأسى بمن". وفي س: "باس بمن".

(٧) في الزهرة: "لم يلتفت"، ولعل صوابه: "لم يفتلت".

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥١٣

(٨) ز: "التأسي"، تحريف.

(٩) "الأولى" ساقط من س. وفي الزهرة: "الأولة".." [١]

"لما سألت عن الهوى هيجتني ... وأرقت دمعا لم يكن بمراق

إن كان **معشوق** يعذب عاشقا ... كان المعذب أنعم العشاق (١)

قال صاحب كتاب "منازل الأحباب" (٢) شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد صاحب الإنشاء (٣):

وقلت في جواب البيتين على وزنهما (٤) مجيبا للسائل:

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ ... هن يلعبن في دم العشاق

ما على السيف في الورى من جناح ... إن ثنى الحد عن دم مهراق

وسيوف اللحاظ أولى بأن تصـ ... ـفح عما جنت على العشاق

---

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٢٥٧)، ومنه في مصارع العشاق (٢/ ١١٩،٢١٣). وقد نقلها الخطيب بسنده عن الطبراني عن بعض أصحابه قال: "كتب بعض أهل الأدب إلى أبي بكر ... ". ونقل ابن خلكان (٤/ ٢٦١) عن ابن أبي الدنيا أنه كان حاضرا في مجلس أبي بكر، إذ جاءه المستفتي، وذكر أنه ابن الرومي الشاعر المشهور، أما جواب ابن داود فذكره بهذا اللفظ:

كيف يفتيكم قتيل صريع ... بسهام الفراق والاشتياق

وقتيل التلاق أحسن حالا ... عند داود من قتيل الفراق

وهذان البيتان على وزن بيتي السؤال، خلافا لرواية الخطيب.

(٢) عنوانه الكامل: "منازل الأحباب ومنازه الألباب"، وهو مطبوع.

(٣) ولد في حلب سنة ٦٤٤ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٢٥. قال ابن رجب: بقي في ديوان الإنشاء نحوا من خمسين سنة بدمشق ومصر. وولي كتابة السر بدمشق نحوا من ثمان سنين قبل وفاته. الذيل على طبقات الحنابلة ٤/ ٤٥٩، وأعيان العصر ٥/ ٣٧٢.

(٤) وهذا يدل على أن شهاب الدين وقف على رواية الخطيب فقط، فلحظ أن جواب أبي بكر لم يكن على وزن شعر السائل.." [٢]

---

[١] الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥١٦

[٢] الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥١٩

"بصره من خلقه" (١).

ما اعتاض باذل حبه لسواه ... من عوض ولو ملك الوجود بأسره

فصل

وهاهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله وأنه أولى بإيثار الحب (٢) من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفرغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته.

فكلما كانت المحبة أقوى (٣) كانت لذة المحب (٤) أكمل. فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي ونظائر ذلك على حسب **شوقه** وشدة إرادته ومحبته.

وإذا (٥) عرف هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها، فهي

---

(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. أخرجه مسلم في ا لإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام ... (١٧٩).

(٢) ل، حاشية س: "المحبة".

(٣) "أقوى" ساقط من ز.

(٤) ف: "الحب".

(٥) س: "فإذا".." [1]

"النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعائه: "وأسألك لذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك" (١).

وفي كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (٢) مرفوعا: "كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن. إذا سمعوه (٣) من الرحمن، فكأنهم (٤) لم يسمعوه قبل ذلك".

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٤٠

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي؛ ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك. فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وأنشد ما (٥) في الجنة رؤيته ومشاهدته. فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاما وعذابا، ويبقى صاحبها في

---

(١) سبق تخريجه (٤٢٨ - ٤٢٩).

(٢) لم أجده في المطبوع. والحديث أخرجه الرافعي في التدوين (٢/ ٤٠٣) من طريق إسماعيل بن رافع عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "كأن الناس لم يسمعوا القرآن حين يسمعونه من الرحمن يتلوه عليهم يوم القيامة".

ورواه بعضهم من قول محمد بن كعب القرظي قال: "كان الناس لم يسمعوا القرآن قبل يوم القيامة حين يتلوه الله عليهم". أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني (الدر المنثور ٣/ ١٣).

والمرفوع لا يصح؛ لأن فيه إسماعيل بن رافع المدني ضعيف.

(٣) ز: "سمعوا".

(٤) ف: "كانهم".

(٥) س: "والدنيا"، تحريف. ولما أشكلت الكلمة على بعض من قرأ النسخة ضرب عليها ثلاث مرات!." [1]

"لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه؟ بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن (١) إذا خلا من الروح. وهذا أمر لا يصدق به إلا من فيه حياة، و"ما لجرع بيت إيلام" (٢)!

والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة.

ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٤٣

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة. ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب. ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر (٣) عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله، ومحبته له (٤)، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتعقب آلاما أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت [١٢١/أ] لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨) وكذلك نولي بعض

---

(١) "إذا خلا ... البدن" ساقط من س.

(٢) للمتنبي، وقد سبق في ص (١٣٣).

(٣) ف: "بموت".

(٤) "له" ساقط من ز. وكذلك "بالله" من ل.." [١]

"وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون (١).

فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة [١٢٢/ أ] والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني. فإذا رأيت الرجل: ذوقه وجده وطربه ونشوته (٢) في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، وهو كما قيل:

تقرا عليك الختمه (٣) ... وأنت جامد كالحجر

وبيت من الشعر ينشد (٤) ... تميل كالنشوان (٥)

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٧٩) والدارمي في سننه (٣٥٣٦،٣٥٣٩) وابن حبان في صحيحه (٧١٩٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٥٨) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٣١) وغيرهم من طرق عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوت قال: وكان عمر بن الخطاب، فذكره. وسنده ضعيف للانقطاع،

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٤٦

فأبو سلمة لم يدرك عمر بن الخطاب. انظر جامع التحصيل (٣٧٨).

ورواه جعفر بن برقان عن حبيب بن أبي مرزوق قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب، فذكره. ورواه أبو نضرة المنذر بن مالك العبدي قال: قال عمر لأبي موسى، فذكره. أخرجهما ابن سعد في الطبقات (٤/ ١٠٩).

قلت: حبيب يروي عن نافع وعروة وعطاء، فهو لم يدرك عمر. وأبو نضرة سمع من صغار الصحابة كابن عباس وأبي سعيد الخدري فلعله تلقاه منهم.

وهذا يدل على أن لهذا الأثر أصلا، والله أعلم.

(٢) ف: "شوقه". ل: "تشوقه"، وكلاهما تصحيف.

(٣) س:"يقرأ".

(٤) في س، ل: "بيت" دون الواو قبلها. وفي ف: "وبيت شعر". وفي خب: "بيت الشعر".

(٥) ف: "فتميل". ل: "كالسكران".." [١]

"فهذا من أقوى الأدلة عدى فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان؛ والمغرور يعتقد أنه على شيء!

ففي محبة الله وكلامه ورسوله أضعاف أضعاف ما ذكر (١) السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه؛ وكل حب سوى ذلك باطل، إن لم يعن عليه ويشوق المحب (٢) إليه.

فصل

وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها، بل هي من كماله (٣).

وقد امتن الله سبحانه بها (٤) على عباده فقال: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٢١)﴾ [الروم: ٢١]. فجعل المرأة سكنا للرجل يسكن قلبه إليها، وجعل بينهما خالص الحب، وهو المودة المقترنة بالرحمة.

وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨)﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٥١

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاووس عن أبيه:

---

(١) ف: "طلب".

(٢) ف: "يسوق" بالمهملة. وفي ز: "يسوق المحبة".

(٣) ف: "هي كماله".

(٤) ف: "امتن ... " بإسقاط "وقد". و"بها" ساقط من س.." [١]

"ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون في العشاق إلى **معشوقهم** الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان.

وكذلك علي أتي بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق، ولكني أصدقك:

تعلقت في دار الرياحي خودة ... يذل لها من حسن منظرها البدر (١)

لها في بنات الروم حسن ومنظر ... إذا افتخرت بالحسن جانبها الفخر (٢)

فلما طرقت الدار من حر مهجة ... أتيت وفيها من توقدها الجمر (٣)

تبادر أهل الدار لي ثم صيحوا ... هو اللص محتوما له القتل والأسر (٤)

فلما سمع علي رضي الله عنه شعره رق له، وقال للمهلب بن رياح (٥): اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين سله من هو؟ فقال:

---

(١) ف: "الرباحي" بالباء. وفي ز بالنون. وأهمل النقط في س، خب. ولعل الصواب ما أثبت من ل واعتلال القلوب ومنازل الأحباب.

(٢) س، خا: "الفجر". وفي ز: "الهجر" تحريف. وما قبلها في ل: "حافيها".

وفي غيرها: "حافتها". وفي منازل الأحباب: "كان لها". وفي روضة المحبين، والواضح المبين: "صدقها". والأقرب إلى رسم النسخ ما أثبتنا من اعتلال القلوب. فإن صح كان المعنى من قولهم: جانبه الشيء مجانبة:

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٥٢

صار إلى جنبه، والكلمة من الأضداد. انظر اللسان (جنب ١/ ٢٧٥). وفي ف: "فالحسن".

(٣) ف، ز: "أبيت".

(٤) "لي": كذا في ف، وروضة المحبين، والواضح المبين. وفي غيرها: "بي".

وفي ف: "ثم أصبحوا"، تحريف.

(٥) في اعتلال القلوب، ومنازل الأحباب زيادة: "اليربوعي". وفي النسخ "رباح" =." [١]

"وعاشق الجمال المقيد أثبت على **معشوقه**، وأدوم محبة له. ومحبته أقوى من [١٢٥/ أ] محبة الأول لاجتماعها في واحد، وتقسم الأولى، ولكن يضعفها عدم الطمع في الوصال.

وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاف وأعرفهم، وحبه أقوى لأن الطمع يمده ويقويه.

فصل

وأما حديث "من عشق فعف (١) "، فهذا يرويه سويد بن سعيد، فقد أنكره حفاظ الإسلام عليه (٢).

قال ابن عدي في كامله (٣): هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد.

وكذا ذكره البيهقي، وابن طاهر في الذخيرة (٤)، والتذكرة (٥).

وأبو الفرج بن الجوزي، وعده في الموضوعات (٦).

= الصفوة (١/ ٤٨٥).

(١) مكان "فعف" بياض في س. وفي ف: "فعف وكتم".

(٢) سبق تخريجه (٥٢٨ - ٥٢٩)، وانظر: زاد المعاد (٤/ ٢٧٥ - ٢٧٨) وروضة المحبين (٢٨٧ - ٢٨٩).

(٣) ليس في المطبوع فلعله مما سقط منه، وما أكثره!. وإنما فيه بعد أن ساق له أحاديث (٣/ ٤٢٨ - ٤٢٩) ليس هذا منها: "ولسويد مما أنكرت عليه غير ما ذكرت، وهو إلى الضعف أقرب".

(٤) لم أجده في المطبوع.

(٥) تذكرة الموضوعات (٩١).

(٦) وكذا قال المؤلف في الزاد (٤/ ٢٧٧) والروضة (٢٨٩). قال الكناني في تنزيه الشريعة (٣٦٤): "ذكر

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٦١

غير واحد من المصنفين أن هذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات وأعله بسويد بن سعيد. وتعقبوه بان سويدا من رجال مسلم وبأنه =." [1]

"وحسب قتيل العشق أن يصح (١) له هذا الأثر عن ابن عباس (٢) على أنه لا يدخل تحته حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله. وهذا لا يكون إلا مع قدرته على **معشوقه**، وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه. وهذا من أحق من دخل تحت قوله: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) فإن الجنة هي المأوى (٤١)﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وتحت قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦)﴾ [الرحمن: ٤٦].

فنسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك [١٢٦/ أ] قربه ورضاه (٣).

= رواه مالك صحيح بلا خلاف، وإن كان البخاري ومسلم لم يخرجاه". شرح النووي (١٣/ ٦٦).

(١) س: "صح".

(٢) ولكن المؤلف رحمه الله قال نفسه -كما تقدم- في زاد المعاد (٤/ ٢٧٧): "وفي صحته موقوفا على ابن عباس نظر".

(٣) بعده في س: "آمين آخر الكتاب ... ". وفي ف: "تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ... " وفي ز: "تم الكتاب بحمد الله وحسبنا الله ونعم الوكيل". وفي ل: "بمنه وكرمه إنه جواد كريم" ثم بعد بياض كتب: "تم الكتاب ... ". وكذا في خا.." [2]

"أن الكلام في دواء هذا الداء من طريقين: أحدهما حسم مادتة قبل حصولها، والثاني قلعها بعد نزولها.

أما الطريق الأول المانع من حصول الداء، فهو أمران: أحدهما غض البصر، وذكر المؤلف جملة من فوائده. والأمر الثاني أن يشتغل القلب بما يصده عن الوقوع في شرك العشق. وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج. ثم تكلم على الحب، وقال: لا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور، بل هما ضدان لا يتلاقيان.

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٦٨

(٢) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٥٧٣

والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأوضح أن أصل الشرك بالله هو الإشراك به في المحبة، وذكر مراتب المحبة، وأن العاقل يؤثر أعلى المحبة على أدناها، وأن أصل السعادة محبة الله وحده ومحبة ما يحبه
الله.

أما الطريق الثاني وهو قلع مادة العشق بعد نزولها، فبدأ الكلام عليه بأن هذا المرض إنما حكاه الله سبحانه عن طائفتين من الناس، وهما اللوطية والنساء، وفصل توافر الدواعي القوية إلى الفاحشة في قصة يوسف، وكيف آثر يوسف عليه السلام مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على ما دعته إليه امرأة العزيز.

ثم ذكر أن عشق الصور أقسام، وأنه تارة يكون كفرا، كمن اتخذ **معشوقه** ندا يحبه كما يحب الله، بل يقدم بعضهم رضا **معشوقه** على رضا ربه، قال: "فهذا العشق الكفري الشركي لا يغفر لصاحبه. وهكذا حال أكثر عشاق الصور إذا تأملته".

ثم بين علاج هذا الداء القتال، وهو أن يعرف الإنسان أن ما ابتلي به هو مضاد للتوحيد، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه." (١)

"وأبو جهل في رقدة المخالفة لما قضى في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه وبه أجاب فرعون موسى لئن اتخذت إلها غيري وبه أجاب الجهمية الإمام أحمد لما عرضوه على السياط وبه أجاب أهل البدع شيخ الإسلام حين استدعوه السجن وها نحن على الأثر فنزل به ضيف ولنبلونكم فنال بإكرامه مرتبة سلمان منا أهل البيت فسمع أن ركبا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود فوقف نفسه على خدمه الأدلاء وقوف الأذلاء فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الأعلام على نبوة نبينا وقالوا إن زمانه قد أظل فاحذر أن تضل فرحل مع رفقة لم يرفقوا به فشروه بثمن بخس دراهم معدودة فأتباعه يهودي بالمدينة فلما رأى الحرة توقد حرا **شوقه** ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل

---

(١) الداء والدواء ط المجمع ابن القيم ص/٢٤

فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير وسلمان في رأس نخلة وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها فعجل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول

خليلي من نجد قفا بي على الربا ... فقد هب من تلك الديار نسيم فصاح به سيده مالك انصرف إلى شغلك فقال

كيف انصرافي ولي في داركم شغل

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش خليلي لا والله ما أنا منكما ... إذا علم من آل ليلى بداليا." (١)

"كان ذو البجادين يتيما في الصغر فكفله عمه فنازعته نفسه إلى اتباع الرسول فهم بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة فقعد ينتظر العم فلما تكاملت صحته نفذ الصبر فناداه ضمير الوجد

إلى كم حبسها تشكو المضيقا ... أثرها ربما وجدت طريقا

فقال يا عم طال انتظاري لإسلامك وما أرى منك نشاطا فقال والله لئن أسلمت لأنتزعن كل ما أعطيتك فصاح لسان الشوق نظرة من محمد أحب إلي من الدنيا وما فيها

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها ... تريد أم الدنيا وما في طواياها

لقال تراب من غبار نعالها ... ألذ إلى نفسي وأشفى لبلواها

فلما تجرد للسير إلى الرسول جرده عمه من الثياب فناولته الأم بجادا فقطعه لسفر الوصل نصفين اتزر بأحدهما با وارتدي بالآخر فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في سافة الأحباب والمحب لا يرى طول الطريق لأن المقصود يعينه

ألا بلغ الله الحمى من يريده ... وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه نزل الرسول يمهد لد لحده وجعل يقول اللهم إني أمسيت عنه راضيا فارض عنه فصاح ابن مسعود يا ليتني كنت صاحب القبر

فيا مخنث العزم أقل ما في الرقعة البيذق فلما نهض تفرزن رأى بعض." (٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٤٠

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٤٥

"غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلف من سبقت له سابقة السعادة دل على الدليل قبل الطلب إذا أراد القدر شخصا بذر في أرض قلبه بذر التوفيق ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ثم أقام عليه بأطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم فإذا الزرع قائم على سوقه إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة وردفه قمر العزيمة أشرقت أرض القلب بنور ربها إذا جن الليل تغالب النوم والسهر فالخوف **والشوق** في مقدم عسكر اليقظة والكسل والتواني في كتيبة الغفلة فإذا حمل العزم حمل على الميمنة وانهزمت جنود التفريط فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان وبردت الغنيمة لأهلها سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة النجائب في الأول وحاملات الزاد في الأخير لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طردت ولا تقطع الاعتذار ولو رددت فإن فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية وابسط كف وتصدق علينا يا مستفتحا باب المعاش بغير إقليد التقوى كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق ولو وقفت عند مراد التقوى لم يفتك مراد المعاصي سد في باب الكسب وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه

تالله ما جئتكم زائرا ... إلا وجدت الأرض تطوي لي

ولا انثنى عزمي عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي

الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيء للسباق من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يشغله كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا فإن الولد يتبع الأم الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها فكيف تعدو خلفها الدنيا جيفة والأسد لا يقع على الجيف الدنيا مجاز والآخرة وطن والأوطار إنما تطلب في الأوطان

الاجتماع بالإخوان قسمان أحدهما اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت فهذا." [1]

"غير الله يسلط عليك وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب عن أكثرهم علما وحالا فما شاء الله كان ولا بد وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة ولما فزع إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٥١

لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله في عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجي منها إلا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق فائدة اللذة تابعة للمحبة تقوى بقوتها وتضعف بضعفها فكلما كانت الرغبة في المحبوب **والشوق** إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم والمحبة **والشوق** تابع لمعرفته والعلم به فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل فإذا رجع كمال النعيم في الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحب وكانت لذته بالوصول إليه مجاورته والنظر الي جهه وسماع كلامه أتم وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة في بحر فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد وكمال العبد بحسب هاتين القوتين العلم والحب وأفضل العلم العلم بالله وأعلى الحب الحب له وأكمل اللذة بحسبهما والله المستعان." (١)

"﴿الله نصرا عزيزا﴾ وبعده توقيع ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ جاءه رسول ربه يخبره بين المقام في الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء ربه **شوقا** إليه فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك إذا كان عرش الرحمن فقد اهتز لموت بغض أتباعه فرحا واستبشارا بقدوم روحه فكيف بروح سيد الخلائق فيا منتسبا إلى غير هذا الجناب ويا واقفا بغير هذا الباب ستعلم يوم الحشر أي سريرة تكون عليها يوم تبلى السرائر

فصل يا مغرورا بالأماني لعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة

أمر بها وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل وأمر بإيساع الظهر سياطا بكلمة قذف أو بقطرة سكر وأبان عضوا من أعضائك بثلاثة دراهم فلا تأمنه أن يحبسك في الںار بمعصية واحدة من معاصيه ﴿ولا يخاف عقباها﴾ دخلت امرأة النار في هرة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار العمر بى خره والعمل بخاتمته من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعا ومن أساء في آخر عمره لقى ربه في

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٥٣

ذلك الوجه لو قدمت لقمة وجدتها ولكن يؤذيك الشره كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب سوف ولعل وعسى كيف الفلاح." (١)

"لخمر الهوى فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته فتباعد منك الصادقون وانحاز إليك الفاسقون يدخل عليك لص الهوى وأنت في زاوية التعبد فلايرى منك طردا له فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد أصدق في الطلب وقد جاءتك المعونة فقال رجل لمعروف علمني المحبة فقال المحبة لا تجيء بالتعليم

هو الشوق مدلولا على مقتل الفنا ... إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه

ليس العجيب من قوله يحبونه إنما العجب من قوله يحبهم ليس العجب من فقير مسكين يحب محسنا إليه إنما العجب من محسن يحب فقيرا مسكينا

فصل القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده وصفاته فتارة يتجلى في
جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغا إلا من محبته فإذا أراد منه الغيران يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعا لا تكلفا وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره وكلما قوي الرجاء جد في العمل كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام." (٢)

"والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعنة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٦٣

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٦٩

والخشية والحذر وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب شرع الشرائع انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي وإذا تجلى بصفة السمع والبصر والعلم انبعث من العبد قوة الحياء فيستحي ربه أن يراه على ما يكره أو يسمع منه ما يكره أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به وما في كل ما يجريه على عبده ويقيمه مما يرضى به هو سبحانه والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد إليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق إليه ويصير هو وحده همه دون ما سواه ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته وإلهيته في ربوبيته وحمده في ملكه وعزه في عفوه." (١)

"تالله لقد وجب حق الصديق علينا فنحن نقضي بمدائحه ونفر بما نقر به من السنى عينا فمن كان رافضيا فلا يعد إلينا وليقل لي أعذار تنبيه

اجتنب من يعادي أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق صاد عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله ومفتون بدنياه ورئاسته من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته في استعمال تلك القوة فيه فلذة من خلقت منه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه ولذ ١ ة من خلقت فيه قوة الغضب والثواب باستعمال قوته الغضبية في متعلقها ومن خلقت فيه قوة الأكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيهما ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به فلذته ونعيمه استعمال هذه

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٧٠

القوة في ذلك وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه تنبيه يا أيها الأعزلاحذر فراسة المتقى فإنه يرى عورة عملك من وراء ستر اتقوا فراسة المؤمن سبحان الله في النفس كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجرأة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون وقحة هامان." (١)

"وفاز بالوصل من قد جدوا انقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب

كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب

ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من شكر ولا أرب

فافرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق والحقب

ما ربع مية محفوفا يطيف به ... غيلان أشهى له من ربعك الخرب

منازلا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب

ولا الخدود ولو أدمين من ضرج ... أشهى إلى ناظري من ربعك الخرب

وكلما جليت تلك الربوع له ... يهوى إليها هوى الماء في الصبب

أحيي له **الشوق** تذكار العهود بها ... فلو دعي القلب للسلوان لم يجب

هذا وكم منزل في الأرض يألفه ... وماله في سواها الدهر من رغب

ما في الخيام أخو وجدير يحك إن ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب

وأسر في غمرات الليل متهديا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطب

وعاد كل أخي جبن ومعجزة ... وحارب النفس لا تلقيك في الحرب

وخذ لنفسك نورا تستضيء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

إن كان يوجب صبري رحمتي فرضا ... بسوء حالي وحل للضنا بدني

منحتك الروح لا أبغي لها ثمنا ... إلا رضاك ووافقري الا الثمن

أحن بأطراف النهار صبابة ... وبالليل يدعوني الهوى فأجيب

وإذا لم يكن من العشق بد ... فمن عجز عشق غير الجميل." (٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٧٤

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٧٦

"فلو أن ما أسعى لعيش معجل ... كفاني منه بعض ما أنا فيه

ولكنما أسمى لملك مخلد ... فوا أسفا إن لم أكن بملاقيه

يا من هو من أرباب الخبرة هل عرفت قيمة نفسك إنما خلقت الأكوان كلها لك يا من غذى بلبان البر وقلب بأيدي الألطاف كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة وصورة وأنت المعنى وصدف وأنت الدر ومخيض وأنت الزبد منشور اختيارنا لك واضح الخط ولكن استخراجك ضعيف متى رمت طلبي فاطلبني عندك اطلبني منك تجدني قريبا ولا تطلبني من غيرك فأنا أقرب إليك منه لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي إنما أبعدنا إبليس إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا لو كان في قلبك محبة لبان أثرها على جسدك

ولما ادعيت الحب قالت كذبتي ... ألست أرى الأعضاء منك كواسيا

لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات

ولو كنت عذري الصبابة لم تكن ... بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

لو صحت محبتك ﻻستوحشت ممن لا يذكرك بالحبيب واعجبا لمن يدعي المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه فلا يذكره إلا بمذكر أقل ما في المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب

ذكرتك لا أني نستك ساعة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني

إذا سافر المحب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه فكان الحب في مقدمة العسكر والرجاء يحدو بالمطى والشوق يسوقها والخوف يجمعها على الطريق فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء

فداو سقما بجسم أنت متلفه ... وأبرد غراما بقلب أنت مضرمه

ولا تكلني على بعد الديار إلى ... صبري الضعيف فصبري أنت تعلمه." (١)

"أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد إذا غذي القلب بالتذكر وسقي بالتفكر ونقي من الدغل رأى العجائب وألهم الحكمة ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٧٧

وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى المعرفة والحكمة عارية على لسانه خراب القلب من الأمن والغفلة وعمارته من الخشية والذكر إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد **الشوق** إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سم الابرة اذ أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ولأيامك وأنفاسك أمدا ومن كل ما سواه بد ولا بذلك منه من ترك الاختيار والتدبير في طلب زيادة دنيا أو جاه أو في خوف نقصان أو في التخلص من عدو توكلا على الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له فألقى كنفه بين يديه وسلم الأمر إليه ورضي بما يقضيه له استراح من." (١)

"عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك الفرقة الثالثة من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوره على التفصيل بل إذا سمع شيئا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها الله وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسالة أيما أفضل رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله فكتب عمر أن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مفغرة وأجر عظيم وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكا بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له وكراهة لها ونفرة عنها أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورا به فيقوى إيمانه به كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلبا له وحرصا عليه فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/٩٨

وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات وشتدت إرادته لها **وشوقه** إليها صرف ذلك **الشوق** والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم ألا ترى أن من مشى إلى محبوبه على الجمر." (١)

"أمامه إلى الآخرة وقلب فارغ من محبة الله **والشوق** إليه والأنس به وبدن معطل من طاعته وخدمته ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره ووقت معطل عن استدراك فارطه أو اغتنام بر وقربة وفكر يجول فيما لا ينفع وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسبر في قبضته ولا يملك لنفسه حذرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة إضاعة القلب وإضاعة الوقت فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة وإضاعة الوقت من طول الأمل فاجتمع الفساد كله في إتباع الهوى وطول الأمل والصلاح كله فى اتباع لهدى والاستعداد للقاء والله المستعان

العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات ولكن إذا مات الق لب لم يشعر بمعصيته

فصل لله سبحانه على عبده أمر أمره به وقضاء يقضيه عليه ونعمة ينعم

بها عليه فلا ينفك من هذه الثلاثة والقضاء نوعان إما مصائب وإما معائب وله عليه عبودية في هذه المراتب كلها فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته في هذه المراتب ووفاها حقها فهذا أقرب الخلق إليه وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب فعطلها علما وعملا فعبوديته في الأمر وامتثاله اخلاصا واقتداءا برسول الله وفي النهي اجتنابه خوفا منه وإجلالا ومحبة وعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا وهذا إنما يأتى منه إذا تمكن حبه من قلبه وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به." (٢)

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١١٠

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١١٢

"فصل لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه فأشرف الناس نفسا وأعلاهم همة وأرفعهم قدرا من لذته في معرفة الله ومحبته **والشوق** إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله حتى تنتهي إلى من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال فلو عرضت عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا الالتفات إليه وربما تألمت من ذلك كما أن الأول إذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار والآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه فهذا ممن قال تعالى فيه قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة وأبخسهم حظا من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات وافترقوا في وجه التمتع فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواء أذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلا له إلى لذة الآخر بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في." (١)

"فصل معرفة الله سبحانه نوعان معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي والثاني معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به **والشوق** إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه وهذه هي المعرفة الخالصة الجارية على لسن القوم وتفاوتهم فيهالا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها وقد قال أعرف الخلق به لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن ولهذه المعرفة بابان واسعان باب التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها والفهم الخاص عن الله ورسوله والباب

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٥٠

الثاني التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه وجماع ذلك الفقه في معاني أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر فيكون فقيها في أوامره ونواهيه فقيها في قضائه وقدره فقيها في أسمائه وصفاته فقيها في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

فصل الدراهم أربعة دراهم اكتسب بطاعة الله وأخرج في حق الله فذاك خير الدراهم ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج في معصية الله فذاك شر الدراهم ودرهم اكتسب بأذى مسلم وأخرج في أذى مسلم فهو كذلك ودرهم اكتسب بمباح وأنفق في شهوة مباحة فذاك لا له ولا عليه هذه أصول الدراهم ويتفرع." (١)

"الحقيرة والخسيسة بالضد من ذلك فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها وهذا معنى قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته أي على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن النعم والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله فصل من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه فاعلم أن الله تعالى خلق في صدرك بيتا وهو القلب ووضع في صدره عرشا لمعرفته يستوي عليه المثل الأعلى فهو مستو على عرشه بذاته بائن من خلقه والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستو على سرير القلب وعلى السرير بساط من الرضا ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره وفتح إليه بابا من جنة رحمته والأنس به **والشوق** إلى لقائه وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس وجعل في وسط البستان شجرة معرفة فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من المحبة والإنابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه وأجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبير كلامه وفهمه والعمل بوصاياه وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته والإيمان به وتوحيده فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ثم أحاط عليه حائطا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذي البستان فلا يلحقه إذا هم وأقام عليه حرسا من الملائكة يحفظونه في يقظته ومنامه ثم أعلم صاحب

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٧٠

البيت والبستان بالساكن فيه فهو دائما همه إصلاح السكن ولم شعثه ليرضاه الساكن منزلا وإذا أحس بأدنى شعث في السكن." (١)

"بالسخط وهؤلاء أعداؤه وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك وقسم قالوا إنما نحن عبيدك فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك وان منعتنا تضر إليك وذكرناك فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا فإذا مزقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم وقرة الأعين كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين فأنت مع أحدهما لا محالة فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه واستنصحوا العقل فشاوروه وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له وجوارحهم للعمل بما أمروا به وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها واهتموا بالله وطاعنه على قدر حاجتهم إليها وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه وأقبل بقلوبهم إليه وجمعها على محبته وشوقهم إلى لقائه ونعمهم بقربه وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها والغم من خوف ذهابها فاستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدانهم والملأ الأعلى بأرواحهم

فصل التوحيد أصلف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأدنى شيء يخدشه ويدنسه

ويؤثر فيه فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر وكالمرآة الصافية جدا أدنى شيء يؤثر فيها ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية فإن بادر صاحبه." (٢)

"وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعا يتعسر عليه قلعه

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال ولكن

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٧٨

(٢) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٩٤

من الناس من يكون توحيده كبيرا عظيما ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده فيظهر تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير وأيضا فان المحل الصافي جدا يظهر لصاحبه مما يدنسه مالا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به وأيضا فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جدا أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة وأيضا فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن كما قيل

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضا فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها

فائدة ترك الشهوات لله وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته

فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس **والشوق** إليه والفرح والابتهاج به لا يحصل في قلب فيه غيره وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم فإن سبحانه أبى أن يجعل." (١)

"انقضائه يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴿وقالت امرأة فرعون﴾ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة فإن الجار قبل الدار من كلام الشيخ على

قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لا تبد فاقة إلى غيري فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك في عبوديتك ابتليتك بالفقر لتصير ذهبا خالصا فلا تزيفن بعد السبك حكمت بالفقر ولنفسي بالغنى فإن وصلتها بي وصلتك بالغنى وإن وصلتها بغيري حسمت عنك مواد معونتي طردا لك عن بابي لا تركن إلى شيء دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك إن ركنت إلى العمل رددناه عليك وإن ركنت إلى المعرفة نكرناها عليك وإن ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه وإن ركنت إلى العلم أو قفناك معه وإن ركنت إلى المخلوقين وكلناك إليهم أرضنا لك ربا نرضاك لنا عبدا

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٩٥

فائدة الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب أحدها يلوح له عند سماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقة فهذه شهقة **شوق** وثانيها أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفا وحزنا على نفسه وهذه شهقة خشية وثالثها أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه فيحدث له ذلك حزنا فيشهق شهقة حزن ورابعها أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن وخامسها أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحا والطريق ظاهرة فشهق فرحا وسرورا بما لاح وبكل حال فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف." (١)

"اعترف به حذاقهم وأئمتهم، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالا عن الأرواح، وأن قوى العوذ، والرقى، والدعوات، فوق قوى الأدوية، حتى إنها تبطل قوى السموم القاتلة.

والمقصود: أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام، والعلة الفاعلة للطاعون، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده، يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه، كالعفونة، والنتن والسمية في أي وقت كان من أوقات السنة، وإن كان أكثر حدوته في أواخر الصيف، وفي الخريف غالبا لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحللها في آخره، وفي الخريف لبرد الجو، وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف، فتنحصر، فتسخن، وتعفن، فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعدا، قابلا، رهلا، قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب.

وأصح الفصول فيه فصل الربيع. قال بقراط: إن في الخريف أشد ما تكون من الأمراض، وأقتل، وأما الربيع، فأصح الأوقات كلها وأقلها موتا، وقد جرت عادة الصيادلة، ومجهزي الموتى أنهم يستدينون، ويتسلفون في الربيع والصيف على فصل الخريف، فهو ربيعهم، وهم **أشوق** شيء إليه، وأفرح بقدومه، وقد روي في حديث: «إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن كل بلد» «١» . وفسر بطلوع الثريا، وفسر بطلوع النبات زمن الربيع، ومنه والنجم والشجر يسجدان «٢» فإن كمال طلوعه وتمامه يكون في فصل الربيع، وهو الفصل الذي ترتفع فيه الآفات.

وأما الثريا، فالأمراض تكثر وقت طلوعها مع الفجر وسقوطها.

---

(١) الفوائد لابن القيم ابن القيم ص/١٩٧

قال التميمي في كتاب «مادة البقاء» : أشد أوقات السنة فسادا، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان، أحدهما: وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر.

---

(١) أخرجه محمد بن الحسن في الآثار، والطبراني في «الصغير» وأبو نعيم في تاريخ أصبهان بلفظ «إذا طلع النجم رفعت العاهة عن كل بلد» وإسناده صحح

(٢) الرحمن- ٦." [١]

"اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تحس بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس المؤلم الشديد الألم، فلا تحس به، وما من أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئا منه، وإذا اشتغلت النفس بما دهمها، وورد عليها، لم تحس بألم الجوع، فإن كان الوارد مفرحا قوي التفريح، قام لها مقام الغذاء، فشبعت به، وانتعشت قواها، وتضاعفت، وجرت الدموية في الجسد حتى تظهر في سطحه، فيشرق وجهه، وتظهر دمويته، فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق، فتمتلىء به، فلا تطلب الأعضاء حظها من الغذاء المعتاد لاشتغالها بما هو أحب إليها، وإلى الطبيعة منه، والطبيعة إذا ظفرت بما تحب، آثرته على ما هو دونه.

وإن كان الوارد مؤلما أو محزنا أو مخوفا، اشتغلت بمحاربته ومقاومته ومدافعته عن طلب الغذاء، فهي في حال حربها في شغل عن طلب الطعام والشراب. فإن ظفرت في هذا الحرب، انتعشت قواها، وأخلفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب، وإن كانت مغلوبة مقهورة، انحطت قواها بحسب ما حصل لها من ذلك، وإن كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سجالا، فالقوة تظهر تارة وتختفي أخرى، وبالجملة فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العدوين المتقاتلين، والنصر للغالب، والمغلوب إما قتيل، وإما جريح، وإما أسير.

فالمريض له مدد من الله تعالى يغذيه به زائدا على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم، وهذا المدد بحسب ضعفه وانكساره وانطراحه بين يدي ربه عز وجل، فيحصل له من ذلك ما يوجب له قربا من ربه، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه إذا انكسر قلبه، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه، فإن كان وليا له، حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها، وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قوي إيمانه وحبه لربه، وأنسه به، وفرحه به، وقوي يقينه بربه، واشتد **شوقه** إليه ورضاه به وعنه، وجد في نفسه

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٣٣

من هذه القوة ما لا يعبر عنه، ولا يدركه وصف طبيب، ولا يناله علمه.

ومن غلظ طبعه، وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به، فلينظر حال كثير من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من صورة، أو جاه، أو مال، أو علم، وقد شاهد الناس من هذا عجائب في أنفسهم وفي غيرهم.." (١)

"التحريم: وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم «١» . وقال في هذه السورة:

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم «٢» وقال في أولها: وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم «٣» . فتأمل هذا الذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة رضي الله عنها، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صح أنه قال: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لأتخذت أبا بكر خليلا» «٤» . وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن» «٥» .

فصل

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله **والشوق** إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين [يوسف: ٢٤] ، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني فارغا مما سوى **معشوقه**. قال تعالى: وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به أي: فارغا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

---

(١) النساء- ٢٣.

(٢) الأحزاب- ٤٠.

(٣) الأحزاب- ٤.

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٧٠

(٤) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه مسلم في فضائل الصحابة.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة.." [(١)]

"والعشق مركب من أمرين: استحسان **للمعشوق**، وطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب. فنقول: قد استقرت حكمة الله- عز وجل- في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي، إنما هو التناسب والتشاكل، والتوافق، وسر التباين والانفصال، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر، والضد عن ضده هارب، وعنه نافر، وقد قال تعالى «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها «١» فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره، فعلة السكون المذكور- وهو الحب- كونها منه، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي، وإن كانت هذه أيضا من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» «٢» وفي «مسند الإمام أحمد» وغيره في سبب هذا الحديث: أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس، فجاءت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأرواح جنود مجندة» الحديث «٣» .

وقد استقرت شريعته سبحانه أن حكم الشيء حكم مثله، فلا تفرق شريعته بين متماثلين أبدا ولا تجمع بين متضادين، ومن ظن خلاف ذلك، فإما لقلة علمه بالشريعة، وإما لتقصيره في معرفة التماثل والاختلاف، وإما لنسبته إلى شريعته ما لم ينزل به سلطانا، بل يكون من آراء الرجال، فبحكمته وعدله ظهر خلقه وشرعه،

---

(١) الأعراف- ١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، ومسلم في البر والصلة.

(٣) أخرجه أحمد.." [(٢)]

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٠١

(٢) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٠٢

"علاجه، كما ثبت في «الصحيحين» . من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» . فدل المحب على علاجين:

أصلي، وبدلي. وأمره بالأصلي، وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلا.

وروى ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لم نر للمتحابين مثل النكاح» . وهذا هو المعنى الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله: يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا [النساء: ٢٨] . فذكر تخفيفه في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة، وأنه- سبحانه- خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شا مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج إلى ذلك علاجا لهذه الشهوة، وتخفيفا عن هذا الخلق الضعيف، ورحمة به.

فصل

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال **معشوقه** قدرا أو شرعا، أو هو ممتنع عليه من الجهتين، وهو الداء العضال، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه، فإن النفس متى يئست من الشيء، استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس، فقد انحرف الطبع انحرافا شديدا، فينتقل إلى علاج آخر، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها في فلكها، وهذا معدود عند جميع العقلاء في زمرة المجانين.

وإن كان الوصال متعذرا شرعا لا قدرا، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدرا، إذ ما لم يأذن فيه الله، فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات، فإن لم تجبه." (١)

"المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه، مستغيثا به، متضرعا، متذللا، مستكينا، فمتى وفق لذلك، فقد قرع باب التوفيق، فليعف وليكتم، ولا يشبب بذكر المحبوب، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٠٥

للأذى، فإنه يكون ظالما معتديا.

ولا يغتر بالحديث الموضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه سويد بن سعيد، عن علي بن مسهر، عن أبي يحيى القتات، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه عن أبي مسهر أيضا، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه الزبير بن بكار، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، عن عبد العزيز بن أبي حازم، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عشق، فعف، فمات فهو شهيد» وفي رواية: «من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له، وأدخله الجنة» «١» .

فإن هذا الحديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز أن يكون من كلامه، فإن الشهادة درجة عالية عند الله، مقرونة بدرجة الصديقية، ولها أعمال وأحوال، هي شرط في حصولها، وهي نوعان: عامة وخاصة، فالخاصة: الشهادة في سبيل الله.

والعامة خمس مذكورة في «الصحيح» «٢» ليس العشق واحدا منها. وكيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة، وفراغ القلب عن الله، وتمليك القلب والروح، والحب لغيره تنال به درجة الشهادة، هذا من المحال، فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمر الروح الذي يسكرها، ويصدها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاته، والأنس به، ويوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبد **لمعشوقه**، بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل، والحب

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه.

(٢) والعامة خمس مذكورة في الصحيح: في البخاري: «الشهداء خمسة: المطعون والفرق وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله.." (١)

"شربا وطلاء، ويجلو العين ويقويها، وينفع من كثير من أمراضها، ويقوي جميع الأعضاء.

وإمساكه في الفم يزيل البخر، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكي، وكوي به لم يتنفط موضعه، ويبرأ سريعا، وإن اتخذ منه ميلا واكتحل به، قوى العين وجلاها، وإذا اتخذ منه خاتم فصه منه وأحمي، وكوي به قوادم أجنحة الحمام، ألفت أبراجها، ولم تنتقل عنها

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٠٧

وله خاصية عجيبة في تقوية النفوس، لأجلها أبيح في الحرب والسلاح منه ما أبيح، وقد روى الترمذي من حديث مزيدة العصري رضي الله عنه، قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، وعلى سيفه ذهب وفضة «١» .

وهو معشوق النفوس التي متى فرحت به، سلاها عن غيره من محبوبات الدنيا، قال تعالى: زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير. المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث «٢» .

وفي «الصحيحين» عن النبي صلى الله عليه وسلم «لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى إليه ثانيا، ولو كان له ثان، لابتغى إليه ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» .

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها، وأعظم شيء عصي الله به، وبه قطعت الأرحام، وأريقت الدماء، واستحلت المحارم، ومنعت الحقوق، وتظالم العباد، وهو المرغب في الدنيا وعاجلها، والمزهد في الآخرة وما أعده الله لأوليائه فيها، فكم أميت به من حق وأحيي به من باطل ونصر به ظالم، وقهر به مظلوم، وما أحسن ما قال فيه الحريري «٣» :

---

(١) أخرجه الترمذي في الجهاد.

(٢) آل عمران- ١٤.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، ومسلم في الزكاة.." [١]

"تبا له من خادع مماذق ... أصفر في وجهين كالمنافق

يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينة معشوق ولون عاشق

وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق

لولاه لم تقطع يمين السارق ... ولا بدت مظلمة من فاسق

ولا اشمأز باطل من طارق ... ولا اشتكى الممطول مطل العائق

ولا استعيذ من حسود راشق ... وشر ما فيه من الخلائق

أن ليس يغني عنك في المضايق ... إلا إذا فر فرار الآبق

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٣٣

رطب: قال الله تعالى لمريم: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا «١» .

وفي «الصحيحين» عن عبد الله بن جعفر، قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القثاء بالرطب «٢» .

«سنن أبي داود» عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من ماء «٣» .

طبع الرطب طبع المياه حار رطب، يقوي المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه، ويخصب البدن، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة ويغذو غذاء كثيرا.

وهو من أعظم الفاكهة موافقة لأهل المدينة وغيرها من البلاد التي هو

---

(١) مريم- ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة، ومسلم في الأشربة.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وأحمد.." [1]

"وثمرها يؤكل رطبا ويابسا، وبلحا ويانعا، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى، وشراب وفاكهة، وجذوعها للبناء والآلات والأواني، ويتخذ من خوصها الحصر والمكاتل والأواني والمراوح، وغير ذلك، ومن ليفها الحبال والحشايا وغيرها، ثم آخر شيء نواها علف للإبل، ويدخل في الأدوية والأكحال، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها، وبهجة منظرها، وحسن نضد ثمرها، وصنعته وبهجته، ومسرة النفوس عند رؤيته، فرؤيتها مذكرة لفاطرها وخالقها، وبديع صنعته، وكمال قدرته، وتمام حكمته، ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن، إذ هو خير كله، ونفع ظاهر وباطن.

وهي الشجرة التي حن جذعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فارقه شوقا إلى قربه، وسماع كلامه، وهي التي نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى عليه السلام، وقد ورد في حديث في إسناده نظر: أكرموا عماتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم.» » .

وقد اختلف الناس في تفضيلها على الحبلة أو بالعكس على قولين، وقد قرن الله بينهما في كتابه في غير

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٢٣٤

موضع، وما أقرب أحدهما من صاحبه، وإن كان كل واحد منهما في محل سلطانه ومنبته، والأرض التي توافقه أفضل وأنفع.

نرجس: فيه حديث لا يصح: «عليكم بشم النرجس فإن في القلب حبة الجنون والجذام والبرص، لا يقطعها إلا شم النرجس» «٢» .

وهو حار يابس في الثانية، وأصله يدمل القروح الغائرة إلى العصب، وله قوة غسالة جالية جابذة، وإذا طبخ وشرب ماؤه، أو أكل مسلوقا، هيج القيء، وجذب الرطوبة من قعر المعدة، وإذا طبخ مع الكرسنة والعسل، نقى أوساخ القروح، وفجر الدبيلات العسرة النضج.

---

(١) حديث موضوع.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب.." [١]

"فإن قيل القوم كانوا عن هذا الباب معرضين وبالزهد والعبادة والجهاد مشتغلين لم يكن هذا الباب من همتهم ولا عنايتهم به قيل هذا من أبين المحال وأبطل الباطل بل كانت عنايتهم بهذا الباب فوق كل عناية واهتمامهم به فوق كل اهتمام وذلك بحسب حياة قلوبهم ومحبتهم لمعبودهم ومنافستهم في القرب منه فمن في قلبه أدنى حياة أو محبة لربه وإرادة لوجهه **وشوق** إلى لقائه فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته وازدياده من التبصر فيه وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر مقاصده وأعظم مطالبه وأجل غاياته وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيء من الأشياء **أشوق** منها إلى معرفة هذا الأمر ولا فرحها بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه فكيف يمكن مع قيام هذا المقتضى الذي هو من أقوى المقتضيات أن يتخلف عنه أثره في خيار الأمة وسادات أهل العلم والإيمان الذين هممهم أشرف الهمم ومطالبهم أجل المطالب ونفوسهم أزكى النفوس فكيف يظن بهم الإعراض عن مثل هذا الأمر العظيم أو الغفلة عنه أو التكلم بخلاف الصواب فيه واعتقاد الباطل ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة وورثة." [٢]

"﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه٥] ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر١٠] واقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى١١] ﴿ولا يحيطون به علما﴾ [طه١١٠]

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي فليتأمل اللبيب ما في كلام هذا الفاضل من العبر فإنه لم يأت في

---

(١) الطب النبوي لابن القيم ابن القيم ص/٣٠٣

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١/١٦١

المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ما حصله ووقف على نهايات أقدام العقلاء وغايات مباحث الفضلاء وضرب بعضها ببعض ومخضها أشد المخض فما رآها تشفي علة داء الجهالة ولا تروي غلة ظمأ **الشوق** والطلب وأنها لم تحل عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث التي عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله ولا صفاته ولا أفعاله وصدق والله فإنه شاك في ذات رب العالمين هل له ماهية غير الوجود المطلق يختص بها أم ماهيته نفس وجوده الواجب ومات ولم تنحل له عقدتها وشاك في صفاته هل هي أمور وجودية أم نسب إضافية عدمية ومات ولم تنحل له عقدتها وشاك في أفعاله هل هي مقارنة له أزلا وأبدا لم تزل معه أم الفعل متأخر عنه تأخرا لا نهاية لأمده فصار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا ومات لم تنحل له عقدتها فننظر في كتبه الكلامية قول المتكلمين وفي كتبه." (١)

"ولا الرضى به ولا الابتهاج بقربه ولا الفرح به ولا اللذة العظمى برؤية وجهه ولا لذة الآذان والأرواح بسماع كلامه بل ولا **الشوق** إليه ولا الأمان ولا الطمأنينة به وإليه ولا الأمن من عذابه لهم بغير جرم أصلا ومن إبطاله أعمالهم الصالحة بغير سبب بل أعظم من ذلك أنهم سدوا على أنفسهم طريق العلم بإثباته وإثبات ربوبيته إلا بما ينافي صفاته وأفعاله فليس لهم طريق إلى إثبات ذاته إلا بما يستلزم نفي ذاته وصفاته وأفعاله وسدوا علىأنفسهم طريق العلم بصدق رسله بتجويزهم عليه كل شيء حتى إنه يجوز عليه تأييد الكاذب المفتري عليه بأعظم المعجزات وليس في العقل ما يحيل ذلك عندهم وسدوا على أنفسهم طريق العلم بالمعاد لأنهم بنوه على إثبات الجوهر الفرد ولا حقيقة له وهذه جملة إنما يظهر تفصيلها عند الكلام على مسائلهم ودلائلهم.

أما محبة الرب سبحانه فإنهم صرحوا بأنه لا يحب ولا يحب واستدلوا على ذلك بما هو مناقض للفطرة والعقل والشرائع كما سنذكره إن شاء الله وأصل الدين هو كونه سبحانه يحب ولا يحب فإن الشرائع مبناها على شهادة أن لا إله إلا الله والإله هو المستحق لكمال الحب بكمال التعظيم والإجلال والذل له والخضوع له فإنكار المحبة." (٢)

"الرب جل جلاله وبين شيء من مخلوقاته فالنسبة بين اللذتين لا تدرك أصلا قال شيخنا وعلى ذلك جميع أهل السنة وسلف الأمة وأئمة الإسلام قال الحسن البصري شيخ الإسلام في زمن التابعين لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا **شوقا** إليه.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٢/٦٦٦

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٤/١٤٣٥

وقال الشافعي رحمه الله لو علم محمد بن إدريس أنه لا يرى ربه في الآخرة لما عبده في الدنيا وقال أنا أخالف ابن علية في كل شيء حتى في قول لا إله إلا الله فإني أقول لا إله إلا الله الذي يرى في الآخرة وهو يقول لا إله إلا الله الذي لا يرى في الآخرة وكذلك جاءت السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم." (١)

"قال: "إذا أدخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة" فأخبر الصادق المصدوق أن نظرهم إليه أحب إليهم من كل ما أعطاهموه وكذلك ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن وابن حبان في صحيحه من حديث عمار بن ياسر أنه سمع النبي يدعو: " اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك لذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زين، بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين" يوضحه

الوجه السادس والمائتان: وهو أن اللذة والفرح تابعة للمحبة في الكمال والقوة والمحبة تابعة لمعرفة المحب بصفات المحبوب وجماله فكلما كان العلم به أكمل كانت محبته أقوى وكلما كانت المحبة." (٢)

"النظر إلى وجهك **وشوقا** إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك فأن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأشهدك وكفى بك شهيدا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنك تبعث من في القبور وأنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي إنك أنت التواب الرحيم" فهذه ثلاثون وجها مضافة إلى المائتين فصارت مائتين وثلاثين وجها تبطل معارضتهم للنصوص بالتوهمات والظنون الكاذبة التي يسمونها عقليات.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١٤٥٤/٤

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ١٤٥٥/٤

الوجه الحادي والثلاثون بعد المائتين: أن نقول إذا عارضتم بين المعقول والمنقول فإما أن تكذبوا المنقول وإما أن تصدقوه فإن كذبتموه ألحقتم بأعداء الرسل المكذبين لهم وانسلختم من العقل والدين كانسلاخ الشعرة من العجين وإن صدقتم المنقول فإما أن تعتقدوا أن له معنى أو تقولوا لا معنى له ولا يمكنكم أن تقولوا بالثاني إذ تستحيل المعارضة على هذا التقدير وتبطل المسألة التي." (١)

"بن ياسر صلى صلاة ودعا بدعوات وقال: سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، **والشوق** إلى لقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا مهتدين» .

الفصل الثالث عشر في الأذكار المشروعة بعد السلام وهو أدبار السجود

وفي صحيح مسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثا وقال «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو عل كل شيء قدير.

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أن رسول اله صلى الله عليه وسلم كان يهلل دبر كل صلاة حين يسلم بهؤلاء الكلمات «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من سبح لله في دبر كل صلاة

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ابن القيم ٤/١٥٠٦

ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت." (١)

"ينفعني» .

وفيه أيضا عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن تدعو بهذا الدعاء «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك من خير ما سألك عبدك ورسولك محمد، وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا» .

وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى سلمان الخير فقال له «إني أريد أن أمنحك كلمات تسألن الرحمن، وترغب إليه فيهن وتدعو بهن في الليل والنهار: قل: اللهم إني أسألك صحة في إيمان، وإيمانا في حسن خلق، ونجاحا يتبعه فلاح، ورحمة منك وعافية، ومغفرة منك ورضوانا» .

وفيه أيضا عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهؤلاء الدعوات «اللهم أنت الأول لا شيء قبلك، وأنت الآخر لا شيء بعدك، أعوذ بك من شر كل دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل، ومن عذاب القبر، ومن فتنة الغنى ومن فتنة الفقر، وأعوذ بك من المأثم والمغرم.

الهم نق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، اللهم بعد بيني وبين خطيئتي كما بعدت بين المشرق والمغرب» .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم أيضا عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه صلى صلاة أوجز فيها، فقيل له في ذلك قال: لقد دعوت الله فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي.

اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك **الشوق** إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص/١٠٨

فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين» .." [1]

"في الجهاد قطع بصحة هذا القول والمقصود تقديم المال في الذكر وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزو بماله لا يجب عليه شيء فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال فكيف يقال لا يجيب به ولو قيل إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس لكان هذا القول أصح من قول من قال لا يجب بالمال وهذا بين وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب وهي أن المال محبوب النفس **ومعشوقها** التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار وتتعرض للموت في طلبه وهذا يدل على أنه هو محبوبها **ومعشوقها** فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل **معشوقهم** ومحبوبهم في مرضاته فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه فإذا بذلوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها وهي بذل نفوسهم له فهذا غاية الحب فإن الإنسان لا شيء أحب إليه من نفسه فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفسه وماله فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه هذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم فلم يرض الله من محبيه بهذا بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتهم وأيضا فبذل النفس آخر المراتب فإن العبد يبذل ماله أولا يقي به نفسه فإذا لم يبق له ماله بذل نفسه فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع وأما قوله ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ فكان تقديم الأنفس هو الأولى لأنها هي المشتراة في الحقيقة وهي مورد العقد وهي السلعة التي استلمها ربها وطلب شراءها لنفسه وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها فإذا ملكها مشتريها ملك مالها فإن العبد وما يملكه لسيده ليس له فيه شيء فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها فحسن تقديم النفس على المال في." [2]

"أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق الثالث: أنه هدى وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية الخامس: الأمن لداخله وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ابن القيم ص/١٥١

(٢) بدائع الفوائد ابن القيم ١/٧٨

وتناءت بهم الأقطار ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسلبهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثم منه الركن أطلب برد ما ... بقلبي من شوق ومن هيمان

فو الله ما أزداد إلا صبابة ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى ويا غاية المنى ... ويا منيتي من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ... إليك فما لي بالبعاد يدان

وما كان صدى عنك صد ملالة ... ولي شاهد من مقلني ولساني

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلبى البكا والصبر عنك عصاني

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا ... دواء الهوى في الناس كل أوان

بل إنه يبلى التصبر والهوى ... على حاله لم يبله الملوان

وهذا محب قاده الشوق والهوى ... بغير زمام قائد وعنان

أتاك على بعد المزار ولو ونت ... مطيته جاءت به القدمان." [١]

"وواهبا عمره في مثل ذا سفها ... لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب

وبائعا طيب عيش ما له خطر ... بطيف عيش من الآلام منتهب

عينت والله غبنا فاحشا فلو اس ... ترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب

وواردا صفو عيش كله كدر ... أمامك الورد صفوا ليس بالكذب

وحاطب الليل في الظلماء منتصبا ... لكل داهية تدنو من العطب

شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٤٦/٢

وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والضي في الأفق الشرقي لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت ... عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذات التخلف والدنيا قد ارتحلت ... ورسل ربك قد وافتك في الطلب
ما في الديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من سكني ولا أرب
فأفرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق في الحقب
ما ربع مية محفوفا يطوف به ... غيلان أشهى له من ربعك الخرب
ولا الخدود وإن أدمين من ضرج ... أشهى إلى ناظري من خدك الترب
منازلا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب
فكلما جليت تلك الربوع له ... يهوى إليها هوي الماء في صب
أحيا له **الشوق** تذكار العهود بها ... فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل في الأرض يألفه ... وما له في سواها الدهر من رغب
في الخيام أخو وجد يريحك إن ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب
وأسر في غمرات الليل مهتديا ... بنفحة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخي جبن ومعجزة ... وحارب النفس لا تلقيك في الحرب." (١)

"قد علمت أين المنزل فأحد لها تسر.

قال أبو يزيد: "ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكى حتى سقتها إليه وهي تضحك". الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدي الملتقي فاستبشر عند القدوم: ﴿وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ .

الجنة ترضى منك بأداء الفرائض والنار تندفع عنك بترك المعاصي والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل لروح: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾ . بدم المحب يباع وصلهم. فمن الذي يبتاع بالثمن. لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضا على أرض الاشتياق.

زرناك **شوقا** ولو أن النوى بسطت ... فرش الفلا بيننا جمرا لزرناك

ما سافر الخليل سفرا ولا سلك طريقا أطيب من الفلاة التي دخلها حين خرج من كفة المنجنيق. رآه جبريل قد ودع بلد العادة فظن ضعف التوكل فعرض عليه زاد "ألك حاجة" فرده بأنفه "أما إليك فلا" لما تكامل

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢/٢٧٢

وفاؤه ما أمر به جاءته خلعته: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ .

قالت لطيف خيال زارها ومضى ... بالله صفة ولا تنقص ولا تزد

فقال خلفته لو مات من ظمأ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

قالت صدقت الوفا في الحب شيمته ... يا برد ذاك الذي قالت علي كبدي

وقال غيره:

إن قومي بانوا فرقوا بينه وبيني ... فإذا كنت أنا الرهن فمن يقبض ديني

وقال غيره:

وكم مغرم بين تلك الخيا ... م تحسبه بعض إطنابها

للنفس حظ وعليها حق ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ وإن رأيتم منها فتورا فاضربوها بسوط الهجر في المضاجع ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ ارفقوا بمطايا الأبدان فقد ألفت الترف ﴿وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ". ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن." [١]

"تتمكن المحبة فلها حينئذ حكمها. شراب الهوى حلو ولكنه يورث **الشوق**. من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة. يا معرقلا في شرك الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم أي تصرف بقى لك في قلبك وهو بين إصبعين. يا منقطعين عن القوم سيروا في بادية الدجى وافتحوا بوادي الذل فإذا فتح باب للواصلين فدونكم فاهجموا هجوم اللوانين وابسطوا أكف ﴿وتصدق علينا﴾ لعل هاتف الرحمة يقول لا تثريب. لله ملك السموات والأرض. واستقرض منك حبة فبخلت بها وخلق سبعة أبحر واستقرض دمعة فقحطت عينك بها. إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور والقلب كعبة وما يرضى المعبود بمزاحمه الأصنام. لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت في عين البصيرة فخفيت الجادة. تدور عينك على المحرمات كأنه قد ضاع منك شيء. وراحل همتك في الهوى ما تحمل لها قتب إن قهر نفسك حب الفاني فذكرها العيش الباقي فإن أبت إلا ببيع الغبن فاحجر عليها حجر السفيه وغط بصر باشقك إلى أن ينسى ما رأى واغسل باطن عينيك بطهور المدامع وكلما تذكرت ما أبصرت فاطرق بدمعة لعل فرط البكاء يدفع فساد البصر فيصلح لرؤية الحبيب.

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢١٦/٣

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها ... سواها وما طهرتها المدامع

وتسمع منها لفظة بعدما جرى ... حديث سواها في خروق المسامع

وقال غيره:

إذا لم أنل منكم حديثا ونظرة ... إليكم فما نفعى بسمعي وناظري

تزينت الجنة للخطاب فجدوا في تحصيل المهور. تعرف رب العزة للمحبين فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف. ما يساوى ربع الدينار خجل الفضيحة فكيف بألم القطع. المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب والمحبة نشيد لا يطرب." (١)

"بينهم وبين ما يشتهون﴾ . يا منفقا بضاعة العمر في مخالفة حبيبه والبعد منه ليس في أعدائك أشد شرا عليك منك.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقال غيره:

هذا المحب لديك فانظر هل ترى ... قلبا فإن صادفت قلبا فاعذل

غاية العاذل إيصال اللوم إلي الأذن فأما القلب فلا سبيل له إليه. سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة. تمر النجائب في الأول وحاملات الزاد في الآخر ولو وردت ماء مدين لوجدت عليه أمة من الناس يسقون. إقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب. لو أحببت المخدوم حضر قلبك في خدمته.

فيا دارها بالحزن إن مزارها ... قريب ولكن دون ذلك أهوال

العروس تلبس عند العرض تحت الثياب شعار الخوف من الرد وفوق الثياب حلة الانكسار وحمرة الخجل تغنيها عن تخمير مستعار لأنها لا تدري على مإذا تقدم فكيف يسكن من لا يعرف العواقب. مداراة قيس ممكن ولكن لا مع ذكر ليلى. انقسم العباد ثلاثة: أقسام: فمنهم من لاحظ الحصاد فزاد في البذر ومنهم من رأى حق المخدوم فقام بأدائه ومنهم من خدم حبا وشوقا فتلذذ بالخدمة وهذه الخدمة لا ثقل لها لان محركها الحب وغيرها ثقيل على البدن. نوق أبدان المحبين لا تحس بالنصب وأسماعها مشغولة بصوت الحادي وقلوبها معلقة بالمنزل. من عبده خوفا أمنه ومن عبده رجاء أعطاه أمله ومن عبده حبا فلا تعلم نفس ما أخفي لها.

يراها بعين الشوق قلبي على النوى ... فتحظى ولكن من لعيني برؤياها

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢١٧/٣

وهبكم منعتم أن يراها بعينه ... فهل تمنعون القلب أن يتمناها

كم دخل المجلس عاص في باطنه باطية خمر فما زالت تعمل فيها حدة شمس التذكير حتى انقلبت خلا فحلت.

يكون أجاجا دونكم فإذا أنتهي ...

إليكم تلقى نشركم فيطيب." (١)

"التبذير والبطاله اخل معها في بيت الفكر سويعة ثم انظر هل هي معك أو عليك ثم عاملها بما تعامل به واحدا منهما. من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه. سينقشع غيم التعب عن فجر الآخرة. كم صبر بشر عن شهوة حتى سمع كل يا من لم يأكل. يامن حسد سجاف نعم العبد على قبة ووهبنا له حتى وصل على قدر إنا وجدناه صابرا. كيف يفلح من يشكو الليل إلى ربه من طول يومه والنهار من قبيح فعله. كيف يفلح من هو جيفة بالليل قطرب بالنهار ينصب بميزان البخس ومكيال التطفيف والقدر ثالثة الأثافي. لو فكر الطائر في الذبح ما حام حول القمح. لولا صبر المضمرات على قلة العلف ما قيل لها سوابق.

مما أضر بأهل العشق أنهم ... هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى نفوسهم شوقا وأعينهم ... في إثر كل قبيح وجهه حسن

تحمل حميلكم كل رابحة ... فكل بين على اليوم مؤتمن

ما في هوادجكم من مهجتي عوض ... إن مت شوقا ولا فيها لها ثمن

سهرت بعد رحيل وحشة لكم ... ثم استمر مريري وارعوى الوسن

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ... ما دام تصحب فيه روحك البدن

فما يديم سرورا قد سررت به ... لا يرد عليك الغائب الحزن

إذا لم تكن من أنصار الرسول فتناول الحرب فكن من حراس الخيام فإن لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين ولا تكن الرابعة فتهلك. إذا رأيت الباب مسدودا في وجهك فاقنع بالوقوف خارج الدار مستقبلا الباب سائلا مستعطيا فعسى ولكن لا تول ظهرك وتقول ما حيلتي وقد سد الباب دوني. لما نادي منادي الأفضال ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ سارت نجائب الأعمال قام الجزاء

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٣/٢١٩

يصيح بالدليل ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ فقال: " ما منكم من ينجيه عمله ". إن لم تقدر على مشارع أرباب العزائم فرد باقي الحياض. فمن لم يكن." (١)

"فتضاعف ما أمكنك. لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد اخرج كاسبا. لما كانت النملة ضعيفة البصر أعينت بقوة الشم فهي تجد ريح المطعوم من البعد. ولما كانت الخلد عمياء ألهمت وقت الحاجة إلى القوت أن تفتح الذباب فيسقط فيه فتناول منه حاجتها. الأطيار تترنم طول النهار فقيل للضفدع ما لك لا تنطقين فقالت مع صوت المزمار يستبشع صوتي ولكن الليل أجمل بي. لا تنس العناية بالسحرة جاءوا يحاربونه ويحاربون رسله وخلع الصلح قد فصلت وتيجان الرضى قد وضعت وشراب الوصال مروق فمدوا أيديهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى فإذا بها قد انقلبت خلا فأقطروا عليه فسكروا بشراب المحبة فلما عربدت عليهم المحبة صلبوا في جذوع النخل. واعجبا لعزمات ما ثناها لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. سجدوا له سجدة واحدة فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة فغلبهم الوجد وتمكن منهم **الشوق** فقالوا اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.

تمر الصبا بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهب هبوبها

قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حل حبيبها

قطعت نياق جدهم بادية الليل ولم تجد مس التعب فالطريق إلى المحبوب لا تطول.

بعيد على كسلان أو ذي ملالة ... وأما علي المشتاق فهو قريب

يا حاضرين معنا بنية النزهة لستم معنا عودوا إلى أوكار الكسل فالحرب طعن وضرب ويا مودعين ارجعوا فقد عبرنا العذيب وعن قريب تأتيكم أخبارنا بعد قليل ويا أيها الحادث عرس بالخيف من منى تعلمك الدموع كيف ترمى حصا الجمار. ضيف المحبة ما له قرى إلا المهج. إذا رأيت محبا ولم تدر لمن وضع يدك على نبضه وسم له من تطبه به فإن النبض ينزعج عند ذكره. المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. حر الخوف صيف الذوبان وبرودة الرجاء." (٢)

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢٢٦/٣

(٢) بدائع الفوائد ابن القيم ٢٣٤/٣

"لا تنفع الرياضة إلا في نجيب. لو سقى الحنظل بماء السكر لم يخرج إلا مرا. شجر الأثل والصفصاف والحور ونحوها ولو دام الماء في عروقها لا تثمر أبدا سحاب الهوى قد طبق بيداء الأكوان وأمطر مشارق الأرض ومغربها ولكن قيعان أرض قلبك قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ومع هذا فلا تيأس فقد يستحيل الخمر خلا ولكن إنما ذلك لطيب العنصر. خلا الفكر في القلب في بيت التلاوة فجرى ذكر الحبيب وأوصافه فنهض **الشوق** على قدم السعي يا من لم يشاهد جمال يوسف لم يعرف ما الذي ألم قلب يعقوب.

من لم يبت والحب حشوة فؤاده ... لم يدر كيف تفتت ألأكباد

يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة فتكاثفت عليه غيوم الغفلة فأظلم أفق المعرفة لا تيأس فالشمس تحت الغيم. لو تصاعد منك نفس أسف استحالت شمالا فتقطع السحاب فبانت الشمس تحته. لما كان رزق الطائر اختلاسا لم يجعل له أسنان لأن زمن الانتهاب لا يحتمل المضغ وجعل له حوصلة كالمخلاة ينقل إليها ما يسلب ثم تنقله إلى القاضة في زمن الإمكان فإن كانت له أفراخ أسهمهم قبل النقل. كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه ليمكنه تناول الأطعمة من الأرض. رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء فإن لم تطق رفعها فانقب حولها لعل ينابيع الماء تنفجر. لو بعت لحظة من إقبالك على الله بمقدار عمر نوح في ملك قارون لكنت مغبونا في العقد. عشاق الدنيا بين مقتول ومأسور فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر. يا طالبي العلم قد كتبتم ودرستم فلو طلبكم العلم في بيت العمل فلستم وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم. شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع أين شركائي الذي كنتم تزعمون وأما شجرة الدباء فإنها تجتث عند نسمة من كان يعبد شيئا فليتبعه. رياء المرائين صير مسجد الضرار مزبلة وخربة لا تقم فيه أبدا وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث. رب أشعث أغبر قلب من ترائيه بيد من أعرضت عنه يصرفه عنك غلى غيرك فلا على ثواب المخلصين." (١)

"حصلت ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت وفات الأجر والمدح فلا هذا ولا هذا. لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك فإنه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد. المخلص يتبهرج على الخلق بستر حاله وببهرجته يصح له النقد والمرائي يتبرطل على باب الملك يوهم أنه من الخواص وهو غريب فسله عن أسرار الملك يفتضح فإن خفي عليك فانظر حاله مع خاصة الملك. يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف يتعين عليه بكاء يعقوب فإن لم يطق فذل إخواته يوم تصدق علينا. إذا طاب لبث الطين على الأنهار تكامل ربه

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٢٣٧/٣

فإذا نضب عنه الماء استلبت الشمس ما فيه من الرطوبة فيشتد **شوقه** إلى الماء فلو وضعت منه قطعة على لسانك لأمسكه وعلق به **شوقا** إلى الورد فيا من نضب ماء معاملته هل أحسست بالعطش وقالوا:

يعود الماء في البئر بعدما ... كانت بالحجاز لنا ليال ... نهبناهن من أيدي الزمان

ولا تنصب خيامك في محل ... فإن النازلين على ارتحال

مداراة الضعفاء باللطف فإذا قووا شدد عليهم. مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر. كان الإسلام في بدايته كالنطفة فاقتنع بكلمة التوحيد فلما نفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة فلما تحرك وجبت الهجرة فلما اشتد وجبت الزكاة فلما قربت الولادة لزم الحج فلما ظهر طفلا حبا بلطف يريد الله بكم اليسر فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة لا تقنطوا فلما ترعرع قال المؤدب من يعمل سوءا يجز به فلما بلغ أشده واستوى جاء ويحذركم الله نفسه. المتعبدون بالليل يقربون إلى نوق الأبدان خيط الرقاد فإذا تناولت سد الفاقة رفعت رؤوسها فإذا الدليل على الجادة فتأخذ في السير. من النجوم الجواري مؤذن ومنها مقيم فأرباب العزائم يؤذن في محلتهم بليل ويقام لهم أول الوقت ومن دونهم يصلون في أول الوقت وأهل الفتور في آخرة. إذا هجمت جنود الرقاد على العيون صاح حارس اليقظة بالمتعبدين الصلاة خير من النوم وهتف رقيب المعاتبة كذب من ادعى محبتي حتى إذا جنة الليل نام عني فيصيح المشتاق." (١)

"سلوا الليل عني مذ تناءت دياركم ... هل اكتحلت بالغمض لي فيه أجفان

ثم تمر بالمجتهدين سيارة النجوم فيبعثون مع كل فيج رسالة فتسلم أخباره إلى ركب السحر فتهب لمجيئها رياح الأسحار فيقول المنتظر إني لأجد ريح يوسف. سبحان من أنعم على الموجودات بإيجادها من غير طلب فلما وجدت بسطت اكف السؤال لطلب تكميلها فالأجنة في بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق والبذر تحت التراب يطلب قوته من الري ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ومراكب البحار تحريكها بالرياح وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم وطلاب العلم يسالون فتح منغلق الفهم وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر والمريض يتململ بين يديه طلبا للطفه والمكروب ينتظر كشف ما به والخائف يترقب بريد الأمن والأبدان المتمزقة في اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات وعرائس الجنان يسألن سلامة بعولتهن وتعجيل اللقاء فإذا قام الخلق من أطباق التراب بإنعاش البعث نكس صاحب الزلل رأس الندم طلبا للعفو ومد العابد يد التقاضي بالمسلم فيه عند حلول الأجل وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر واشرف المحب على أطلال **الشوق** إلى الحبيب وصاح العارف بلسان

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٣/٢٣٨

الوجد إذ لم يبق وقت للصمت

لي عندكم دين فواعجبا ... الدين لي وفؤادي الرهن

من شاء باهلتي باهلته بهم ... وبعد عند ورود الحوض نستبق

وقال غيره:

عدمت دوائي بالعراق وربما ... وجدت بنجد لي طبيبا مداويا

ويا جبل الريان إن تعر منهم ... فإني سأكسوك الدموع الجواريا

ومن جذري لا أسأل الركب عنهم ... وأغلاق وجدي باقيات كما هيا

ومن يسال الركبان عن كل غائب ... فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا." (١)

"جرى لموسى مع قومه ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه حيث كانت ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿أن طهرا بيتي﴾ وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته **والشوق** إليه ما أسكنت وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم فول وجهك شطر المسجد الحرام تلقاه رسول الله والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيدا عندهم لأن رسول الله كان كثيرا ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحول الله عن قبلة أهل الكتاب فولاه الله القبلة التي يرضاها وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة وذكر الشبهات الداحضة وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة وابتداء ذلك بالتسلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس فلا تعبأوا بقولهم فإنه قول سفيه ثم قال: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له أنه رب ذلك فأيا ما تعبد له عبادة بأمره إلى أي جهة كانت فهم مطيعون له كما قال: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ فلم يصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى فإذا كنتم تصلون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها فما صليتم إلا له أولا وآخرا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر لأن كليهما كان بأمره

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٣/٢٣٩

ورضاه فانتقلتم من رضاه ثم نبه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيا بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعا لكم ورضيها." [1]

"ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب، قال الشاعر:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه، ومنه سمي الغريم غريما؛ لملازمته صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿إن عذابها كان غراما﴾ [سورة الفرقان: ٦٥] .

وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقل أن تجده في أشعار العرب.

ثم العشق وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا يطلق في حقه.

ثم الشوق وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر: «أنه صلى صلاة فأوجز فيها، فقيل له في ذلك، فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يدعو بهن: اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.»

وفي أثر آخر: " «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقا» ".

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» .

وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [سورة العنكبوت: ٥] .

لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه، ضرب لهم أجلا وموعدا

---

(١) بدائع الفوائد ابن القيم ٤/١٥٨

للقائه، وتسكن نفوسهم به، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة الحقيقية، ولا حياة للقلب." (١)

"أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ [سورة النحل: ٩٧] .

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، ومن طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحدا في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه **والشوق** إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث، كما في صحيح البخاري عنه – صلى الله عليه وسلم – فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: " «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله، كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه ".»

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي – الذي حرام على غليظ الطبع كسيف القلب فهم معناه والمراد به – حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبته لله له محبة أخرى منه فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى، ومالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبة الصادق في محبته، التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/١٨٣

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه، فالباء هاهنا للمصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية لا علمية محضة.." (١)

"وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه وأطيب عيش قال: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى - فإن الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: ٤٠ - ٤١] .

فالجنة مأواه يوم اللقاء.

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله **والشوق** إلى لقائه والفرح به والرضا به، وعنه مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ [سورة النحل: ٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥] .

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمر من ضيق الصدر؟

وقال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - الذين آمنوا وكانوا يتقون - لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [سورة يونس: ٦٢ - ٦٤] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا، وأنعمهم بالا، وأشرحهم صدرا، وأسرهم قلبا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر» .

ومن هذا قوله - صلى الله عليه وسلم -: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» .

ومن هذا قوله وقد سألوه عن وصاله في الصوم: «إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/١٨٤

.

فأخبر – صلى الله عليه وسلم – أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام." [1]

"وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى كقوله: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ [سورة النساء: ٣٤] .

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له، فلماذا تعبدون عبيده من دونه؟

[فصل آثار المحبة]

فصل

آثار المحبة

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة، من الوجد والذوق والحلاوة، والشوق والأنس، والاتصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد عنه، والصد والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة: هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان السعادة، والضارة: هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان الشقاوة.

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها، وذلك من ظلم الإنسان لنفسه، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم، وإما عالمة بما في محبته من الضرر لكن تؤثر هواها على علمها، وقد تتركب محبتها على أمرين: اعتقاد فاسد، وهو مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس، فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب، أو ما تركب من ذلك فأعان بعضه بعضا فتنفق شبهة وشهوة، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلى حصوله، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/١٩٧

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له، فحكمها حكم متبوعها، فإن." (١)

"الله، فإن مواقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، وذلك من وجوه:

أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالا، بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام أحمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن» .

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابا، وشهوة الشباب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا، ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحبا، كما قال الشاعر:

وزادني كلفا في الحب أن منعت ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إبائها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإبائها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد **شوقه** كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها، وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٠٤

الثامن: أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.." [١]

"[فصل عشق اللوطية]

فصل

عشق اللوطية

والطائفة الثانية، الذين حكى الله عنهم العشق: هم اللوطية كما قال تعالى: ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون – قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون – واتقوا الله ولا تخزون – قالوا أولم ننهك عن العالمين – قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين – لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [سورة الحجر: ٦٧ – ٧٢] .

فهذه الأمة عشقت فحكاه سبحانه عن طائفتين، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور، ولم يبال بما في عشقه من الضرر.

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه، وعز عليهم شفاؤه، وهو والله الداء العضال، والسم القتال، الذي ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره.

وهو أقسام:

تارة يكون كفرا: لمن اتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه؟ فهذا عشق لا يغفر لصاحبه، فإنه من أعظم الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك.

وعلامة العشق الشركي الكفري: أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على ربه، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه، وحق ربه وطاعته، قدم حق معشوقه على حق ربه، وآثر رضاه على رضاه، وبذل له أنفس ما يقدر عليه، وبذل لربه – إن بذل – أردأ ما عنده، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه، وجعل لربه – إن أطاعه – الفضلة التي تفضل معشوقه من ساعاته.

فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزنا يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل، وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه، كما قال العاشق الخبيث:

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٠٩

يترشفن من فمي رشفات ... هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصل **معشوقه** أشهى إليه من رحمة ربه، وقد مر.." [1]

"بلا ريب إن هذا العشق من أعظم الشرك، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير **معشوقه** ألبتة، بل قد ملك عليه قلبه كله فصار عبدا محضا من كل وجه **لمعشوقه**، فقد رضي هذا من عبودية الخالق جل جلاله بعبودية مخلوق مثله: فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله **لمعشوقه** فقد أعطاه حقيقة العبودية.

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة، فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكم أمثاله، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك، وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلي من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله.

[فصل دواء العشق]

فصل

دواء العشق

ودواء هذا الداء القتال: أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد، إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله تعالى، فعليه أن يعرف توحيد ربه وسننه أولا، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يراجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [سورة يوسف: ٢٤] .

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا أخلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١١

للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي: معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له.." (١)

"أضرار العشق

ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره، فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر، ويكون السلطان والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه به، فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ولا بد، كما قيل:

فما في الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا شوقا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند الفراق ... وتسخن عينه عند التلاقي

والعشق وإن استلذ به صاحبه، فهو أعظم من عذاب القلب.

الثالث: أن قلبه أسير قبضة غيره يسومه الهوان، ولكن لسكرته لا يشعر بمصابه، فقلبه كعصفورة في كف طفل يسومها حياض الردى، والطفل يلهو ويلعب، كما قال بعض هؤلاء:

ملكتَ فؤادي بالقطيعة والجفا ... وأنت خلي البال تلهو وتلعب

فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخلي عيش المسيب المطلق.

طليق برأي العين وهو أسير ... عليل على قطب الهلاك يدور

وميت يرى في صورة الحي غاديا ... وليس له حتى النشور نشور

أخو غمرات ضاع فيهن قلبه ... فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثا وتشتيتا له. وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٢

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الحطب، وسبب ذلك: أن القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصاله به بعد من الله، فأبعد." [١]

"القلوب من الله قلوب عشاق الصور، وإذا بعد القلب من الله طرقته الآفات، وتولاه الشيطان من كل ناحية، واستولى عليه لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله، فما الظن بقلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على غيه وفساده، وبعد منه وليه، ومن لا سعادة له ولا فرح ولا سرور إلا بقربه وولايته؟

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانه، أفسد الذهن، وأحدث الوسواس، وربما ألحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها.

وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها، بل بعضها مشاهد بالعيان، وأشرف ما في الإنسان عقله، وبه يتميز عن سائر الحيوانات، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا ذلك؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها، إما إفسادا معنويا أو صوريا، أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسنا منه ومن **معشوقه** كما في المسند مرفوعا: «حبك الشيء يعمي ويصم» فهو يعمي عين القلب عن رؤية مساوئ المحبوب وعيوبه، فلا ترى العين ذلك، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العدل فيه، فلا تسمع الأذن ذلك، والرغبات تستر العيوب، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه، حتى إذ زالت رغبته فيه أبصر عيوبه، فشدة الرغبة غشاوة على العين، تمنع من رؤية الشيء على ما هو به، كما قيل:

هويتك إذ عيني عليها غشاوة ... فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه، والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه، ثم خرج منه، ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرا من الذين ولدوا في الإسلام.

قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا ولد في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٣

وأما فساد الحواس ظاهرا، فإنه يمرض البدن وينهكه، وربما أدى إلى تلفه، كما هو المعروف في أخبار من قتلهم العشق.." (١)

"وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدا على عظم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامة يومه.

الثامن: أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة، بحيث يستولي **المعشوق** على قلب العاشق، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتتعطل تلك القوة، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويتعذر، فتتغير أفعاله وصفاته ومقاصده، ويختل جميع ذلك، فتعجز البشر عن صلاحه، كما قيل:

الحب أول ما يكون لجاجة ... يأتي بها وتسوقه الأقدار

حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى ... جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مباديه سهلة حلوة، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم، وآخره عطب وقتل، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى، كما قيل:

وعش خاليا فالحب أوله عنا ... وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر:

تولع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكن منها غرق

والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: " يداك أوكتا، وفوك نفخ ".

[فصل مقامات العاشق]

فصل

مقامات العاشق

والعاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه: قالوا: يجب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه، إذا كان الوصول إلى **معشوقه** متعذرا قدرا وشرعا، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه – وهذا مقام التوسط والانتهاء – فعليه كتمانه

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٤

ذلك، وأن لا يفشيه إلى الخلق، ولا يشمت بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع." (١)

"الظلم، وربما كان أعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلى مصدق ومكذب، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة، وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة، كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون.

وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقيني، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزما لا يحتمل النقيض، بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقا؛ لجزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام والأخبار الكاذبة، كجزمهم بالحسيات المشاهدة، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة، حبيبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، المبرأة من فوق سبع سماوات، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك، ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها، والذب عنها، وتكذيب قاذفها، لكان أمرا آخر.

والمقصود: أن في إظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وأذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله، وتعرض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه، فإن استعان عليه بمن يستميله إليه، إما برغبة أو رهبة، تعدى الظلم وانتشر، وصار ذلك الواسطة ديوثا ظالما، وإذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد لعن الرائش – وهو الواسطة بين الراشي والمرتشي في إيصال الرشوة – فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق في الوصل، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضه على ظلمه في نفس أو مال أو عرض، فإن كثيرا ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه، وكم قتيل طل دمه بهذا السبب، من زوج وسيد وقريب، وكم خببت امرأة على بعلها، وجارية وعبد على سيدهما، وقد لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من فعل ذلك وتبرأ منه، وهو من أكبر الكبائر.

وإذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم – قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه، وأن يستام على سوم أخيه، فكيف بمن يسعى في التفريق بين رجل وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما؟

وعشاق الصور ومساعدوهم من الديايثة لا يرون ذلك ذنبا، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٥

والسيد، ففي ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة، وإن لم يرب عليها، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة، فإن من ظلم الوالد إفساد ولده وفلذة كبده، ومن هو أعز عليه من نفسه، فظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه – أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه، فيا له من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة، فإن كان ذلك حقا لغاز." (١)

"في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة، وقيل له: «خذ من حسناته ما شئت،» كما أخبر بذلك النبي – صلى الله عليه وسلم –.

ثم قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: فما ظنكم؟ أي: فما تظنون يبقى له من حسناته؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارا، أو ذا رحم محرم، تعدد الظلم فصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم وإيذاء الجار، ولا يدخل الجنة قاطع رحم، ولا من لا يأمن جاره بوائقه.

فإن استعان العاشق على وصال **معشوقه** بشياطين الجن – إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك – ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر، فإن لم يفعله هو ورضي به، كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصده، وهذا ليس ببعيد من الكفر.

والمقصود أن التعاون في هذا الباب، تعاون على الإثم والعدوان.

وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدي ضرره فأمر لا يخفى، فإنه إذا حصل له مقصوده من **المعشوق**، **فللمعشوق** أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها، فلا يجد من إعانته بدا، فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان، **فالمعشوق** يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه، والعاشق يعين **المعشوق** على ظلم من يكون غرض **المعشوق** متوقفا على ظلمه، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس، فيحصل العدوان والظلم بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم، كما جرت به العادة بين العشاق **والمعشوقين**، من إعانة العاشق **لمعشوقه** على ما فيه ظلم وعدوان وبغي، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله، وفي تحصيل مال من غير حله، وفي استطالته على غيره، فإذا اختصم **معشوقه** وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب **المعشوق** ظالما كان أو مظلوما، هذا إلى ما ينضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم، والتوصل بها إلى **معشوقه** بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك،

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٦

وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله، ليأخذ ماله ليتوصل به إلى **معشوقه**.

فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور، وربما حمل على الكفر الصريح، وقد تنصر جماعة ممن نشئوا في الإسلام بسبب العشق، كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح، ففتن بها، ونزل، ودخل عليها، وسألها نفسها، فقالت: هي نصرانية، فإن دخلت في ديني تزوجت بك، ففعل، فرقي في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات، ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له.

وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير، أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها." [١]

"حتى إذا تمكن حبها من قلبه، بذلت له نفسها إن دخل في دينها، فهنالك: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ [سورة إبراهيم: ٢٧]

.

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق **والمعشوق** لصاحبه بمعاونته له على الفاحشة، وظلمه لنفسه ما فيه، فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعد إلى الغير كما تقدم، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها.

والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف، وذلك ظلم منه، بأن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه، فهو يسومه سوء العذاب، والعاشق ربما قتل **معشوقه** ليشفي نفسه منه، ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره، فكم للعشق من قتيل من الجانبين، وكم أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة. وشتت من شمل، وكم أفسد من أهل للرجل وولده، فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هي **معشوقا** لنفسها، فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة، فمن الناس من يؤثر هذا، ومنهم من يؤثر هذا.

فعلى العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور، لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها، فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه المغرر بها، فإذا هلكت فهو الذي أهلكها، فلولا تكراره النظر إلى وجه **معشوقه** وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع، فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإياس من ذلك لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به؛ لم يحدث له ذلك، فإن أطال مع ذلك الفكر في محاسن

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٧

المعشوق وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله، إما خوف ديني كدخول النار، وغضب الجبار، واحتقاب الأوزار، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر؛ لم يحدث له ذلك العشق، فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوي كخوف إتلاف نفسه، أو ماله، أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس، وسقوطه من عين من يعز عليه، وغلب هذا الخوف لداعي العشق دفعه، وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب إليه وأنفع له من ذلك المعشوق، وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق؛ اندفع عنه العشق، فإن انتفى ذلك كله، وغلبت محبة المعشوق لذلك، انجذب إليه القلب بالكلية، ومالت إليه النفس كل الميل.

فإن قيل: قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التي من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس وخفتها، وزوال ثقلها ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة، والكرم، والمروءة، ورقة الحاشية، ولطف الجانب.." (١)

"وقال بعض العشاق أولو العفة والصيانة: عفوا تشرفوا، واعشقوا تظفروا.

وقيل لبعض العشاق: ما كنت تصنع لو ظفرت بمن تهوى؟ فقال: كنت أمتع طرفي بوجهه، وأروح قلبي بذكره وحديثه، وأستر منه ما لا يحب كشفه، ولا أصير بقبيح الفعل إلى ما ينقض عهده، ثم أنشد:

أخلو به فأعف عنه تكرما ... خوف الديانة لست من عشاقه

كالماء في يد صائم يلتذه ... ظمأ فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم: أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك، وفي ذلك قيل:

خليلي إن الحب فيه لذاذة ... وفيه شقاء دائم وكروب

على ذاك ما عيش يطيب بغيره ... ولا عيش إلا بالحبيب يطيب

ولا خير في الدنيا بغير صبابة ... ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطي عن أبي غسان قال: مر أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي ... متمايلا مثل القضيب الناعم

سألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: من هواك؟ فتلكأت، فأقسم عليها، فقالت:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢١٨

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها ... قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب فقال: هؤلاء والله فتن الرجال، وكم والله مات بهن كريم، وعطب بهن سليم.

وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان – رضي الله عنه – تستعدي على رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: كلفت يا أمير المؤمنين بابن أخيه، فما أنفك أراعيه، فقال عثمان: إما أن تهبها إلى ابن أخيك، أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

ونحن لا ننكر فساد العشق الذي متعلقه فعل الفاحشة **بالمعشوق**، وإنما الكلام في." [1]

"العشق العفيف من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين **معشوقه** بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام، فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة، عشق حتى اشتهر أمره، ولم ينكر عليه، وعد ظالما من لامه، ومن شعره:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم عليك الكاشحون، وقبلهم ... عليك الهوى قد نم لو ينفع الكتم

فأصبحت كالهندي إذ مات حسرة ... على إثر هند أو كمن شفه سقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فذق هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك، وكانت جارية بارعة الجمال، وكان معجبا بها، وكان يطلبها من امرأته، ويحرص على أن تهبها له، فتأبى، ولم تزل الجارية في نفس عمر، فلما استخلف، أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت، وكانت مثلا في حسنها وجمالها، ثم دخلت على عمر، وقالت: يا أمير المؤمنين، إنك كنت معجبا بجاريتي فلانة، وسألتها، فأبيت عليك، والآن قد طابت نفسي لك بها، فلما قالت له ذلك؛ استبان الفرح في وجهه، وقال عجلي علي بها، فلما دخلت بها عليه، ازداد بها عجبا، وقال لها: ألقي ثيابك، ففعلت، ثم قال لها: على رسلك، أخبريني لمن كنت؟ ومن أين صرت لفاطمة؟ فقالت: أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا، وكنت في رقيق ذلك العامل، قالت: فأخذني وبعث بي إلى عبد الملك، فوهبني لفاطمة، قال: وما فعل ذلك العامل؟ قالت: هلك، قال: وهل ترك ولدا؟ قالت: نعم، قال: فما حالهم؟ قالت: سيئة، فقال: شدي عليك ثيابك، واذهبي إلى مكانك، ثم كتب إلى عامله

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٢٠

على العراق: أن ابعث إلي فلان بن فلان على البريد، فلما قدم، قال له: ارفع إلي جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك، فلم يرفع إليه شيئا إلا دفعه إليه، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه، ثم قال له: إياك وإياها، فلعل أباك قد ألم بها، فقال الغلام: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: لا حاجة لي بها، قال: فابتعها مني، قال: لست إذا ممن نهى النفس عن الهوى، فلما عزم الفتى على الانصراف بها، قالت: أين وجدك بي يا أمير المؤمنين؟ قال: على حاله، ولقد زاد، ولم تزل الجارية في نفس عمر، حتى مات رحمه الله.

وهذا أبو بكر بن محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم: من الفقه، والحديث، والتفسير، والأدب، وله قوله في الفقه، وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نفطويه: دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه، فقلت: كيف تجدك؟ فقال: حب من تعلم أورثني ما ترى، فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال:." (١)

"الاستمتاع على وجهين: أحدهما: النظر المباح، والآخر: اللذة المحظورة، فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فيمنعني منها ما حدثني أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا علي بن مسهر عن أبي يحيى القتاب عن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه: «من عشق وكتم وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة ".»

ثم أنشد:

انظر إلى السحر يجري من لواحظه ... وانظر إلى دعج في طرفه الساجي

وانظر إلى شعرات فوق عارضه ... كأنهن نمال دب في عاج

ثم أنشد:

ما لهم أنكروا سوادا بخديه ... ولا ينكرون ورد الغصون؟

إن يكن عيب خده برد الشعر ... فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له: نفيت القياس في الفقه، وأثبته في الشر؟ فقال: غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه، ثم مات من ليلته، وبسبب **معشوقه** صنف كتاب الزهرة.

ومن كلامه فيه: " من يئس ممن يهواه، ولم يمت من وقته سلاه، وذلك أول روعات اليأس تأتي ال‍قلب وهو غير مستعد لها، فأما الثانية فتأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى ".

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن علي بن عيسى الوزير، فتناظرا في مسألة من الإيلاء،

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٢١

فقال له ابن سريج: أنت بأن تقول: من دامت لحظاته؛ كثرت حسراته، أحذق منك بالكلام على الفقه، فقال: لئن كان ذلك فإني أقول:

أنزه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال محرما

وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه ... يصب على الصخر الأصم تهدما

وينطق طرفي عن مترجم خاطري ... فلولا اختلاسي وده لتكلما

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم ... فلست أرى ودا صحيحا مسلما

فقال له أبو العباس بن سريج: بم تفخر علي؟ ولو شئت لقلت:

ومطاعمه كالشهد في نغماته ... قد بت أمنعه لذيذ سناته

بصبابة وبحسنه وحديثه ... وأنزه اللحظات عن وجناته

حتى إذا ما الصبح راح عموده ... ولى بخاتم ربه وبراته

فقال أبو بكر: يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهدا على أنه ولى بخاتم ربه وبراءته، فقال ابن سريج: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك:." (١)

"أنزه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال محرما

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما لطفا وظرفا، ذكر ذلك أبو بكر الخطيب في تاريخه.

وجاءته يوما فتيا مضمونها:

يا ابن داود يا فقيه العراق ... أفتنا في قواتل الأحداق

هل عليها بما أتت من جناح ... أم حلال لها دم العشاق

فكتب بخطه تحت البيتين:

عندي جواب مسائل العشاق ... فاسمعه من قرح الحشا مشتاق

لما سألت عن الهوى هيجتني ... وأرقت دمعا لم يكن بمراق

إن كان معشوقا يعذب عاشقا ... كان المعذب أنعم العشاق

قال صاحب كتاب " منازل الأحباب "، شهاب الدين محمد بن سليمان بن فهد صاحب كتاب الإنشاء:

وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيبا للسائل:

قل لمن جاء سائلا عن لحاظ ... هن يلعبن في دم العشاق

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٢٢

ما على السيف في الورى من جناح ... إن ثنى الحد عن دم مهراق

وسيوف اللحاظ أولى بأن تص ... فح عما جنت على العشاق

إنما كل من قتلن شهيد ... ولهذا يفنى ضنى وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكوذاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله:

قل للإمام أبي الخطاب: مسألة ... جاءت إليك وما خلق سواك لها

ماذا على رجل رام الصلاة فمذ ... لاحت لخاطره ذات الجمال لها

فأجابه تحت السؤال:

قل للأديب الذي وافى بمسألة ... سرت فؤادي لما أن أصخت لها

إن التي فتنته عن عبادته ... خريدة ذات حسن فانثنى ولها

إن تاب ثم قضى عنه عبادته ... فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسي: حججت سنة، ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر، إذ سمعت أنينا فأصغيت إليه فإذا هو يقول: أشجاك نوح حمائم السدر ... فأهجن منك بلابل الصدر." (١)

"بولدها، وأشد فرحا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويعصى فيغفر ويعفو، وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٢٣

ما اعتاض باذل حبه لسواه من ... عوض ولو ملك الوجود بأسره

[فصل كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة]

فصل

كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة

وهذا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين: أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحب أكمل، فلذة العبد من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب **شوقه** وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرفت هذا، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي وعاقل، إذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألما أعظم منها، أو منعت لذة خيرا منها وأجل، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوتت أعظم اللذات." [١]

"وفي النسائي ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في دعائه: «وأسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم، **والشوق** إلى لقائك» وفي كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعا: «كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك» .

وإذا عرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تتقلب آلاما وعذابا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست ال حياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقد

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٣١

تقدم ذلك، وكان غيره يقول: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب، يقول في حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره:

أف للدنيا إذا ما لم يكن ... صاحب الدنيا محبا أو حبيبا

ويقول آخر:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر:

اسكن إلى سكن تلذ بحبه ... ذهب الزمان وأنت منفرد

ويقول الآخر:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا به ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره." (١)

"وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا منه الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة،

وما لجرح ميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع: فأعظمها وأكملها: ما أوصل لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله، من أكله، وشربه، ولباسه، ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، **وشوقه** إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة، وتعقب آلاما أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم:

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٣٣

﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ [سورة الأنعام: ١٢٨ - ١٢٩]
.

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق.

وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما؛ يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون - وأملي لهم إن كيدي متين﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣] .

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون - فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [سورة الأنعام: ٤٤ - ٤٥] .

وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة:

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين - نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [سورة المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] .." [١]

"إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي؟ ... أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه؟ وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - يوما لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «اقرأ علي، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فاستفتح سورة النساء، حتى إذا بلغ قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [سورة النساء: ٤١] ، قال: حسبك الآن، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تذرفان من البكاء» .

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ، وهم يستمعون، فلمحبي القرآن - من الوجد، والذوق، واللذة، والحلاوة، والسرور - أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل، ذوقه، ووجده، وطربه، وتشوقه إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع القرآن، كما قيل:

تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالسكران.

---

(١) الجوا ب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٣٤

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شيء.

ففي محبة الله وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسق المحب إليه.

[فصل محبة الزوجات]

فصل

محبة الزوجات

وأما محبة الزوجات: فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله، وقد امتن الله سبحانه بها على عباده فقال:." (١)

"الله، ابتلاه بمحبة المردان، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت، فما أتوا إلا من هذا العشق، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ [سورة الحجر: ٧٢] .

ودواء هذا الداء: الاستعانة بمقلب القلوب، وصدق اللجأ إليه، والاشتغال بذكره، والتعويض بحبه وقربه، والتفكر في الألم الذي يعقبه هذا العشق، واللذة التي تفوته به، فيترتب عليه فوات أعظم محبوب، وحصول أعظم مكروه، فإذا أقدمت نفسه على هذا وآثرته، فليكبر على نفسه تكبير الجنازة، وليعلم أن البلاء قد أحاط به.

والقسم الثالث: العشق المباح، وهو الواقع من غير قصد، كعشق من وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فتعلق قلبه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يملك ولا يعاقب، والأنفع له مدافعته، والاشتغال بما هو أنفع له منه، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى، فيثبته الله على ذلك، ويعوضه على صبره لله وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

[فصل أقسام الناس في العشق]

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٣٦

فصل

أقسام الناس في العشق

والناس في العشق ثلاثة أقسام:

منهم: من يعشق الجمال المطلق، وقلبه يهيم في كل واد، له في كل صورة جميلة مراد.

ومنهم: من يعشق الجمال المقيد، سواء طمع في وصاله أو لا.

ومنهم: من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله.

وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف.

فعاشق الجمال المطلق، يهيم قلبه في كل واد، وله في كل صورة جميلة مراد:

فيوما بحزوى، ويوما

بالعقيق وبال

عذيب يوما ويوما بالخليصاء ... وتارة ينتحي نجدا وآونة

شعب العقيق وطورا قصر تيماء

فهذا عشقه أوسع، ولكنه غير ثابت كثير التنقل:

يهيم بهذا ثم يعشق غيره ... ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على **معشوقه**، وأدوم محبة له، ومحبته أقوى من محبة الأول، لاجتماعها في واحد، ولكن يضعفهما عدم الطمع في الوصال، وعاشق الجمال الذي يطمع في وصاله أعقل العشاق وأعرفهم، وحبه أقوى لأن الطمع يمده ويقويه.." (١)

"يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن أبي نجيح، والخرائطي هذا مشهور بالضعف في الرواية، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء.

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان، وإليهم يرجع في هذا الشأن، ولا صححه ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه، ويرجع في التصحيح إليه، ولا من عادته التسامح والتساهل، فإنه لم يصف نفسه له، ويكفي أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف، ويروي منها الغث والسمين، قد أنكره وشهد ببطلانه.

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٤١

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه: أنه سئل عن الميت عشقا، فقال: قتيل الهوى لا عقل له ولا قود.

ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ، فقال: ما شأنه؟ قالوا: العشق، فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق وقد تقدم.

فهذا نفس ما روي عنه ذلك.

ومما يوضح ذلك «أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عد الشهداء في الصحيح، فذكر المقتول في الجهاد، والمبطون، والحرق، والنفساء يقتلها ولدها، والغرق، وصاحب ذات الجنب،» ولم يذكر منهم من يقتله العشق.

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس – رضي الله عنهما –، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله، لكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على **معشوقه**، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه، هذا أحق من دخل تحت قوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [سورة النازعات: ٤٠ – ٤١] .

وتحت قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [سورة الرحمن: ٤٦] .

فنسأل الله العظيم، رب العرش الكريم، أن يجعلنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه.." (١)

"عنك هجره؟ فقال وفي اليأس راحة أي المطلوب أحد أمرين إما يأس مريح أو وصال صاف

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو جعد بأني ... وقد كذبوا كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت ولم اخلق من الطير إن بدا ... سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال فكدت أطير فيقال له وهل خلقت من الطير فاحترز بهذا الاعتراض وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا وهو قوة **شوقه** ونزوعه إلى أرض الحجاز فأخبر انه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران فإنه لم يخلق من الطير ولا عجب طيران من خلق من الطير وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير لشدة نزوعه **وشوقه** إلى جهة محبوبة فتأمله

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية ... حذار هذا الصدود والغضب

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء ابن القيم ص/٢٤٣

إن تم ذا الهجر يا ظلوم ولا ... تم فما لي في العيش من أرب

وقول الآخ

إن سليمى والله يكلؤها ...

ضنت بشيء ما كان يرزؤها." (١)

"في طرق المطالب العالية إلا بنوره ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة وسبيل الرشاد ونور البصائر فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة وإنما أنزل بالحق وللحق والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به

ثم قال سبحانه ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ومحبته **والشوق** إليه والأنس بقربه والإبتهاج بذكره وكان لا حياة له إلا بذلك كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب أنعم سبحانه على عبادة بهذين النوعين من الرزق وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما ومنهم من قتر عليه في الرزقين ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب وبالعكس وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع." (٢)

"فصل

ثم لما أراد الله سبحانه أن يذر نسلهما في الأرض ويكثره وضع فيهما حرارة الشهوة ونار **الشوق** والطلب وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه فاجتمعا على أمر قد قدر فاسمع الآن عجائب ما هناك

لما شاء الرب تعالى أن يخرج نسخة هذا الإنسان منه أودع جسده حرارة وسلط عليه هيجانها فصارت شهوة غالبة فإذا هاجت حرارة الجسد تحللت الرطوبات من جميع أجزاء الجسد وابتدأت نازلة من خلف

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٢٢٣

(٢) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٢٣٥

الدماغ من عروق خلف الأذنين إلى قفا الظهر ثم تخرج إلى الكليتين ثم تجتمع في أوعية المنى بعد أن طبختها نار الشهوة وعقدتها حتى صار لها قوام وغلظ وقصرتها حتى ابيضت وقدر لها مجاري وطرق تنفذ فيها ثم اقتضت حكمته سبحانه أن قدر لخروجها أقوى الأسباب المستفرغة لها من خارج ومن داخل فقيض لها صورة حسنها في عين الناظر **وشوقه** إليها وساق أحدهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة والمحبة فحن كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه واختلاطه به ليقضى الله أمرا كان مفعولا وجعل هذا محل الحرث وهذا محل البذر ليلتقي الماءان على أمر قد قدر وقدر بينهما تلك الحركات لتعمل الحرارة في تلك الرطوبة والفضلة عملها واستخرجها من تحت الشعر والبشر والظفر لتوافق نسخة الأصل ويكون." (١)

"قالوا وبهذا أجرى الله العادة أن الولد لا يكون إلا لأب واحد كما لا تكون الأم إلا واحدة وهذا هو مذهب الشافعي

وقالت طائفة بل يتخلق من ماءين فأكثر قالوا وانضمام الرحم واشتماله على الماء لا يمنع قبوله الماء الثاني فإن الرحم **أشوق** شيء وأقبله للمنى

قالوا ومثال ذلك كمثال المعدة فإن الطعام إذا استقر فيها انضمت عليه غاية الانضمام فإذا ورد عليها طعام فوقه انفتحت له **لشوقها** إليه

قالوا وقد شهد بهذا القائف بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ولد ادعاه اثنان فنظر إليهما وإليه وقال ما أراهما إلا اشتركا فيه فوافقه عمر وألحقه بهما فوافقه على ذلك الإمام أحمد ومالك رضي الله عنهما

قالوا والحس يشهد بذلك كما ترى في جراء الكلبة والسنور تأتي بها مختلفة الألوان لتعدد آبائها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه زرع غيره" يريد وطء الحامل من غير الواطئ قال الإمام أحمد الوطء يزيد في سمع الولد وبصره هذا بعد انقعاده

وعلى هذا مسألة فقهية وهي لو أحبل جارية غيره بنكاح أو زنى." (٢)

"يأكل العلفة ليتقوى بها على ما أمر به فهمته وقواه مصروفة إلى أمور وراء الأكل فغذا أكل ما يغذيه ويقيم صلبه إستغنى قلبه ونفسه وروحه بالغذاء الإيماني عن الإستكثار من الغذاء الحيواني فاشتغل معاه الواحد وهو قولان بالغذاء فأمسكه حتى أخذت منه الأعضاء والقوى مقدار الحاجة فلم يحتج إلى أن يملأ

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٣٢٧

(٢) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٣٥٤

أمعاءه كلها من الطعام وهذا أمر معلوم بالتجربة وإذا قويت مواد الإيمان ومعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته **والشوق** إلى لقائه في القلب استغنى بها العبد عن كثير من الغذاء ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيواني فإن كثف طباعك عن هذا وكنت عنه بمعزل فتأمل حال الفرح والسرور بتجدد نعمة عظيمة واستغناؤك مدة عن الطعام والشراب مع وفور قوتك وظهور الدموية على بشرتك وتغذية بالسرور والفرح ولا نسبة لذلك إلى فرح القلب ونعيمه وابتهاج الروح بقربه تعالى ومحبته ومعرفته كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الطعام وتلهيها عن الزاد

وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته "إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني" وصدق الصادق المصدوق." (١)

"فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت. وأما أمراضه التى لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال "شفى غيظه" فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى:

﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء﴾ [التوبة: ١٤-١٥] .

فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه فى شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور **بالمعشوق**، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضا أخر أصعب من مرض العشق كما سيأتى إن شاء الله تعالى، وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر، ولم يزل، وأعقب أمراضا هى أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهى فى الحقيقة إنما تزيده مرضا إلى مرضه، لكن اشتغال القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التى هى شرط فى صحته وبرئه، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتى بفتواهم "قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العى

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ابن القيم ص/٣٨٢

السؤال"، فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك فى الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان." [1]

"فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة. ولم يعطهم فى الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته **والشوق** إلى لقائه، والأنس بقربه، والتنعم بذكره.

وقد جمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والإمام أحمد، وابن حبان فى صحيحه وغيرهم، من حديث عمار ابن ياسر: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدعو به "اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الرضى والغضب، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك **الشوق** إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين".

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء فى الدنيا، وهو **الشوق** إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء فى الآخرة، وهو النظر إلى وجهه سبحانه.

ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر فى الدنيا. ويفتن فى الدين قال: "فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة".

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره، مرشدا له قال:

"واجعلنا هداة مهتدين".

ولما كان الرضى النافع المحصل للمقصود هو الرضى بعد وقوع القضاء لا قبله، فإن ذلك عزم على الرضى، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضى بعده، فإن المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم /١٩١

والرضى بعد وقوعه. فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما، كما فى المسند وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم "إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه." [1]

"فقال تعالى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه. والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إن هؤلاء لضالون﴾ [المطففين: ٣٢] .

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصا أو عموما.

فصل:

[فى أن لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته فى الدنيا]

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما فى الجنة إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى سبحانه، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به ومحبتهم له، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم.

الوجه الخامس: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل الله وحده هو الذى يملك له ذلك كله، قال الله تعالى:

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ [فاطر: ٢] وقال تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده﴾ [آل عمران:١٦٠] . وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون﴾ [يس: ٢٣] وقال تعالى: ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٢٨

إلا هو فأنى تؤفكون﴾ [فاطر: ٣] وقال تعالى: ﴿أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا." (١)

"زاد، وقدم على غير مهاد. فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء. سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل. فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن، ولا نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختيارا، وبسطها لأعدائه اغترارا. فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله عز وجل برسوله صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه".

وقال الحسن أيضا: إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب. فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها. وهذا باب واسع.

وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم فى طلبها.

ولما كانت هى أكبر هم من لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو لقاء ربه، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها، وشدة اجتهاده فى طلبها.

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق فان فى حب معشوقه، وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه، ولا يفى له ويهجره ويصل عدوه. فهو مع معشوقه فى أنكد عيش، يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلون، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه ولا يجد عنه سبيلا إلى سلوة تريحه، ولا وصال يدوم له، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به، التى شغلته عن سعيه فى طلب زاده، ومصالح معاده؟، وسنعود إلى تمام الكلام فى هذا الباب فى باب ذكر علاج مرض القلب بحب الدنيا إن شاء الله تعالى، إذ المقصود بيان أن من أحب شيئا سوى الله تعالى، ولم تكن محبته له." (٢)

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٣٣

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٣٨

"لله تعالى، ولا لكونه معينا له على طاعة الله تعالى: عذب به فى الدنيا قبل يوم القيامة. كما قيل:

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فإذا كان يوم المعاد ولى الحكم العدل سبحانه كل محب ما كان يحبه فى الدنيا. فكان معه: إما منعما أو معذبا. ولهذا:

"يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه، يعنى شدقيه، يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره".

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو **ومعشوقه** على غير طاعة الله تعالى جمع الله بينهما فى النار، وعذب كل منهما بصاحبه. قال تعالى:

﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: ٦٧] .

وأخبر سبحانه أن الذين توادوا فى الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، ويلعن بعضهم بعضا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين.

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى. ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق: "أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار الدنيا؟ ".

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: "المرء مع من أحب". وقال تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] . وقال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لا تناصرون﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٥] .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه "أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم" وقال تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ [التكوير:٧] .

فقرن كل شكل إلى شكله، وجعل معه قرينا وزوجا: البر مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصود: أن من أحب شيئا سوى الله عز وجل فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذب بفراقه وتألم على قدر تعلق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل." (١)

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٣٩

"له من الألم قبل حصوله، ومن النكد فى حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته، أضعاف ما فى حصوله له من اللذة:

فما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا فى كل ... حالمخافة فرقة، أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا، شوقا إليهم ... ويبكى إن دنوا، حذر الفراق

فتسخن عينه عند التلاقى ... وتسخن عينه عند الفراق

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره: "الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه" فذكره: جميع أنواع طاعته، فكل من كان فى طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر، وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه؛ فاللعنة لا تنال ذلك إلا بوجهه، وهى نائلة كل ما عداه.

الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمله م نه، فلا بد أن يخذل من الجهة التى قدر أن ينصر منها، ويذم من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب، قال تعالى:

﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ [يس: ٧٤- ٧٥] .

أى يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجند ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كل عليهم. وقال تعالى:

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾ [هود: ١٠١] . أى غير تخسير، وقال تعالى: ﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾ [الشعراء: ٢١٣] وقال تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا﴾ [الإسراء: ٢٢] .

فإن المش رك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل

له الخذلان والذم.

والمقصود: أن هذين الوجهين فى المخلوق وضدهما فى الخالق سبحانه. فصلاح القلب." [١]

"البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك. فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من محبة الله تعالى وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوى فلا تثبت معه، ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدا، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاء، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام.

﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] .

فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيما، والتتيم التعبد، فيصير العاشق عابدا **لمعشوقه**، وكثيرا ما يغلب حبه وذكره **والشوق** إليه، والسعى فى مرضاته، وإيثار محابه على حب الله وذكره، والسعى فى مرضاته، بل كثيرا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقا **بمعشوقه** من الصور، كما هو مشاهد، فيصير **المعشوق** هو إلهه من دون الله عز وجل يقدم رضاه وحبه على رضى الله وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله، وينفق فى مرضاته ما لا ينفقه فى مرضاة الله، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حبا، وخضوعا، وذلا، وسمعا، وطاعة.

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوى شرك العبد بلى بعشق الصور، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه. والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه، وإنما لتنقله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصورا على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده.." [٢]

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٤٠

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٦٤

"الباب العاشر: فى علامات مرض القلب وصحته

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص، به كماله فى حصول ذلك الفعل منه، ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذى خلق له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين، بل إذا كان القلب خاليا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له ولا بد، فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من جهتين من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، وكل من عرف الله أحبه، وأخلص العبادة له ولا بد، ولم يؤثر عليه شيئا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب، وتعوضت بمحبة غيره. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجرح بميت إيلام." (١)

"كما قال النبى عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر: "كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور".

فحى على جنات عدن ... فإنهامنازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو، فهل ... ترنعود إلى أوطاننا ونسلم؟

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه "إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل".

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٦٨

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف. فذكره قوته وغذاؤه ومحبته، **والشوق** إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن فى القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذى له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة.." (١)

"وذكر أحمد أيضا عن عبد الله بن رباح الأنصاري قال "كان داود عليه السلام ينظر أغمص حلقة فى بني إسرائيل فيجلس بين ظهرانيهم، ثم يقول: يا رب مسكين بين ظهرانى مساكين".

وذكر عن عمران بن موسى القصير قال: قال موسى عليه السلام: "يا رب أين أبغيك؟ قال: ابغنى عند المنكسرة قلوبهم، فإني أدنو منهم كل يوم باعا، ولولا ذلك انهدموا".

وفى كتاب الزهد للإمام أحمد: "أن رجلا من بنى إسرائيل تعبد ستين سنة فى طلب حاجة. فلم يظفر بها. فقال فى نفسه: والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأتى فى منامه، فقيل له: أرأيت ازدراءك على نفسك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين".

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى عليه. ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهى قليلة المنفعة جدا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج: حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: "بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه، فإني قد رحمته، فأوحى الله تعالى إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجيب له حتى ينظر فى حقي عليه".

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/ ٧١

فمن أنفع ما للقلب النظر فى حق الله على العبد. فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزدراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي الله، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر فى هذا الحق الذى لربه عليه علم علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذى أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون فى حقهم على الله، ولا ينظرون فى حق الله عليهم. ومن هاهنا انقطعوا عن الله، وحجبت قلوبهم عن معرفته، ومحبته، **والشوق** إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد فى حق الله عليه أولا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي." (١)

"أن عبد أربابها من دون الله، وعبدت قبورهم، واتخذت أوثانا، وبنيت عليها الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجسادا لها ظل، ثم جعلت أصناما، وعبدت مع الله تعالى.

وكان أول هذا الداء العظيم فى قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم فى كتابه، حيث يقول:

﴿قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا﴾ [نوح: ٢١-٢٤] . قال ابن جرير: "وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين من بنى آدم. وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان **أشوق** لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم". قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: "كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام". حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى هذه الآية قال: "كانت آلهة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع لهذيل. وكان يغوث لبنى غطيف من مراد.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٨٨

وكان يعوق لهمدان. وكان نسر لذى الكلاع من حمير". وقال الوالبى، عن ابن عباس: "هذه أصنام كانت تعبد فى زمان نوح عليه السلام".

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس: "صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل. وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع." (١)

"المخدوع أى بضاعة أضاع، وأن من كان مالك رقه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والأتباع، فأى مصيبة أعظم من مصيبة ملك أنزل عن سرير ملكه، وجعل لمن لا يصلح أن يكون مملوكه أسيرا، وجعل تحت أوامره ونواهيه مقهورا. فلو رأيت قلبه وهو فى يد محبوبه لرأيته:

كعصفورة فى يد طفل يسومها ... حياض الردى، والطفل يلهو ويلعب

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت:

وما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا فى كل حين ... مخافة فرقة، أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا، **شوقا** إليهم ... ويبكى إن دنوا، حذر الفراق

ولو شاهدت نومه وراحته، لعلمت أن المحبة والمنام تعاهدا وتحالفا أن ليسا يلتقيان ولو شاهدت فيض مدامعه، ولهيب النار فى أحشائه لقلت:

سبحان رب العرش، متقن صنعه ... ومؤلف الأضداد دون تعاند

قطر تولد عن لهيب فى الحشا ... ماء ونار فى محل واحد

ولو شاهدت مسلك الحب فى القلب وتغلغه فيه، لعلمت: أن الحب ألطف مسلكا فيه من الأرواح فى أبدانها.

فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسومه سوء العذاب، ويوقع بينه وبين وليه ومولاه الحق الذى لا غناء له عنه ولا بد له منه أعظم الحجاب؟ فالمحب بمن أحبه قتيل. وهو له عبد خاضع ذليل. إن

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١٨٣/١

دعاه لباه. وإن قيل له: ما تتمنى؟ فهو غاية ما يتمناه، لا يأنس بغيره ولا يسكن إلى سواه، فحقيق به أن لا يملك رقه إلا لأجل حبيب. وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب.." [١]

"المتحرك من الميل والطلب لكماله وانتهائه، كحركة النار، وحركة النبات، وحركة الرياح. وكذلك حركة الجسم الثقيل إلى أسفل فإنه بطبعه يطلب مستقره من المركز، ما لم يعقه عنه عائق. وأما الحركة القسرية: كحركته بالقسر إلى العلو، فتابعه لإرادة القاسر له، فلم يبق حركة أصلية إلا عن الإرادة والمحبة.

فصل

فإذا عرف ذلك فالمحبة هى التى تحرك المحب فى طلب محبوبه الذى يكمل بحصوله له، فتحرك محب الرحمن، ومحب القرآن، ومحب العلم والإيمان، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصلبان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الأوطان ومحب الإخوان فتثير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء. فيتحرك عند ذكر محبوبه منه دون غيره، ولهذا تجد محب النسوان والصبيان، ومحب قرآن الشيطان بالأصوات والألحان لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الإيمان، ولا عند تلاوة القرآن، حتى إذا ذكر له محبوبه اهتز له وربا، وتحرك باطنه وظاهره **شوقا** إليه وطربا لذكره.

فكل هذه المحاب باطلة مضمحلة سوى محبة الله وما والاها، من محبة رسوله، وكتابه، ودينه، وأوليائه. فهذه المحبة تدوم وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به، وفضلها على سائر المحاب كفضل من تعلقت به على ما سواه. وإذا انقطعت علائق المحبين، وأسباب توادهم وتحابهم لم تنقطع أسبابها. قال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ [البقرة: ١٦٦] .

قال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما: "المودة".

وقال مجاهد: "تواصلهم فى الدنيا".

وقال الضحاك: "يعنى تقطعت بهم الأرحام، وتفرقت بهم المنازل فى النار".

وقال أبو صالح: "الأعمال".." [٢]

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٢٢

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٣٢

"فصل

ومما ينبغى أن يعلم: أنه قد يقترن بالأيسر إثما ما يجعله أعظم إثما مما هو فوقه.

مثاله: أنه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذى يوجب اشتغال القلب **بالمعشوق**، وتأليهه له وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته وما يأمر به، على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره، فيقترن بمحبة خدنه وتعظيمه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، ما قد يكون أعظم ضررا على صاحبه من مجرد ركوب الفاحشة.

فإن المحبوبات لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد. كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح:

"تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطى رضى، وإن منع سخط" رواه البخارى.

فسمى هؤلاء الذين إن أعطوا رضوا، وإن منعوا سخطوا عبيدا لهذه الأشياء، لانتهاء محبتهم ورضاهم ورغبتهم إليها.

فإذا شغف الإنسان بمحبة صورة لغير الله، بحيث يرضيه وصوله إليها وظفره بها، ويسخطه فوات ذلك كان فيه من التعبد لها بقدر ذلك.." (١)

"ولهذا يجعلون الحب مراتب: أوله: العلاقة، ثم الصبابة، ثم الغرام، ثم العشق. وآخر ذلك: التتيم. وهو التعبد **للمعشوق**. فيصير العاشق عبدا **لمعشوقه**.

والله سبحانه إنما حكى عشق الصور فى القرآن عن المشركين.

فحكاه عن امرأة العزيز، وكانت مشركة على دين زوجها. وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية، وكانوا مشركين، فقال تعالى فى قصتهم: ﴿لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾ [الحجر: ٧٢] .

أخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص، فقال: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] وقال عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] وقال تعالى: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ [الحجر: ٤٢] .

والغاوى ضد الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغى.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٤٩

لهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع الشعرى غاوين. كما سماهم الله تعالى بذلك فى قوله:
﴿الشعراء يتبعهم الغاوون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] .
فالغاوون يتبعون الشعراء، وأصحاب السماع الشعرى الشيطانى، وهؤلاء لا ينفكون عن طلب وصال، أو سؤال نوال. كما قال أبو تمام لرجل: أما تعرفنى؟ فقال: ومن أعرف بك منى؟.

أنت بين اثنتين تبرز للن ... اس وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال ... من حبيب أو راجيا لنوال
أى ماء يبقى لوجهك هذا ... بين ذل الهوى، وذل السؤال؟

والزنا بالفرج – وإن كان أعظم من الإلمام بالصغيرة، كالنظرة والقبلة واللمس– لكن إصرار العاشق على محبة الفعل، وتوابعه، ولوازمه، وتمنيه له، وحديث نفسه به: أنه لا يتركه، واشتغال قلبه **بالمعشوق**، قد يكون أعظم ضررا من فعل الفاحشة مرة بشيء كثير. فإن." (١)

"ما ليس مثله وبين جنس آخر من المخلوقات. ولهذا لا يعرف فى محبة شيء من المحبوبات المخالفة للمحب فى الجنس ما يزيل العقل، ويفسد الإدراك، ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب، وإنما يعرف ذلك فى محبته لجنسه، فتستوعب قلبه، وتسلب لبه، ويصير **لمعشوقه** سامعا مطيعا كما قيل:

إن هواك الذى بقلبصيرنى سامعا مطيعا

ويقوى هذا السمع والطاعة عند كثير من العشاق، حتى يبذل نفسه، ويسلمها للتلف فى طاعة **معشوقه**، كما يبذل المجاهد نفسه لربه، حتى يقتل فى سبيله، وإذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد قال فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره:
"شارب الخمر – أو قال مدمن الخمر – كعابد وثن".
ومر على بن طالب رضى الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال "ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ ".
فما الظن بالعاشق المتيم الفانى فى **معشوقه**؟ ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والأنصاب وهى الأصنام التى تعبد من دون الله، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر

---
(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٥٠

ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١] .
ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره، بل لا بد أن يفيق، ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سكره. وأما سكرة العشق فقل أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى، ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فاجأهم عذاب الله وعقوبته." (١)

"وأهل المعاصى والفسوق وإن كان بينهم نوع مودة وتحاب، فإنها تنقلب عدواة وبغضا وفى الغالب يتعجل لهم ذلك فى الدنيا قبل الآخرة، أما فى الآخرة فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

وقال إمام الحنفاء لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾ [العنكبوت: ٢٥] .

فالمعاصى كلها توجب ذلك، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وذكر ذلك فى الخمر الميسر - اللذين هما من أواخر المحرمات - تنبيه على ما فى غيرهما من ذلك، مما حرم قبلهما، وهو أشد تحريما منهما، فإن ما يوقعه قتل النفوس، وسرقة الأموال، وارتكاب الفواحش من ذلك، وما يصد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهد بذلك.

وكم وقع، وهو واقع بين الناس - بسبب عشق الصور - من العداوة والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلا بها عدواة.

وأما صده عن ذكر الله، فقلب العاشق ليس فيه موضع لغير معشوقه، كما قيل:

ما فى الفؤاد لغير حبك موضع ... كلا، ولا أحد سواك يحله

وأما صده عن الصلاة، فهو إن لم يصد عن صورتها وأعمالها الظاهرة، فإنه يصد عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

فصل

ومما يبين أن هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة، أو غير ذلك: أنها فى المشركين أكثر منها فى المخلصين، ويوجد فيهم منها ما لا يوجد مثله فى المخلصين.
قال تعالى ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث." (٢)

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٥٣

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٥٥

"قال أبو حازم: "لما يلقى الذى لا يتقى الله معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذى يتقى الله من معالجة التقوى".

واعتبر ذلك بحال إبليس. فإنه امتنع من السجود لآدم فرارا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادما لأهل الفسوق والفجور من ذريته فلم يرض بالسجود له، ورضى أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته.

وكذلك عباد الأصنام، أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر، وأن يعبدوا إلها واحدا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يذل ماله فى مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه فى طاعته ومرضاته عقوبة له، كما قال بعض السلف: "من امتنع أن يمشى مع أخيه خطوات فى حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها فى غير طاعته".

فصل

فى خاتمة لهذا الباب، هى الغاية المطلوبة، وجميع ما تقدم كالوسيلة إليها.

وهى: أن محبة الله سبحانه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه: أصل الدين وأصل أعماله وإرادته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها. فمعرفته أجل المعارف، وإرادة وجهة أجل المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ [النحل: ١٢٣] .." (١)

"وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة. وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما فى محبته من الإعراض عنك، والتجنى عليك، وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١٩٥/٢

إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها. فمحبة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذى يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التى تناله أعلى من كل لذة. كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله "إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا، إنهم لفى عيش طيب".

وقال آخر: "إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربا بأنسه بالله وحبه له".

وقال آخر: "مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها".

وقال آخر: "لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف".

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب." (١)

"وجد من هذه الحلاوة فى قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبا لغيره، ولا أنسابه، وكلما ازداد له حبا ازداد له عبودية وذلا، وخضوعا ورقا له، وحرية عن رق غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقا، حتى يظفر بما خلق له، وهيئ له: من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه. فإن فيه فقرا ذاتيا إلى ربه وإلهه، من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرا ذاتيا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره. وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبودبته له.

فأصبح حرا عزة وصيانة ... على وجهه أنواره وضياؤه

وما من مؤمن إلا وفى قلبه محبة لله تعالى. وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلى

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٩٧

لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحسن به، لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه: هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعا لأجله، لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعى فى هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعينا بالله، متوكلا عليه، مفتقرا إليه فى حصوله، متيقنا أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته، وإعانته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه. فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فلا يوصل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يعبد إلا بإعانته، ولا يطاع إلا بمشيئته.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩] .." [١]

"وكان أول ما كاد به عباد الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه، فقال:

﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا، ولا سواعا، ولا يغوث، ويعوق، ونسرا﴾ [نوح: ١٣] .

قال البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت".

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: "كانوا قوما صالحين من بنى آدم، كان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان **أشوق** لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم".

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبى: أخبرنى أبى قال: "أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه أدم بأرض الهند، ويقال للجبل: نوذ، وهو أخصب جبل فى الأرض".

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/١٩٨

قال هشام: فأخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: "فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم فى المغارة، فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بنى قابيل بن آدم: يا بنى قابيل، إن لبنى شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء فنحت لهم صنما، فكان أول من عملها".

قال هشام: وأخبرنى أبى قال: "كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر: قوما صالحين، فماتوا فى شهر، فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بنى قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ غير أنى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا، قالوا:." (١)

"وفي رواية: "ألا أعلمك خير سورتين قرأنا"؟ قلت: بلى. قال: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ . ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ "، فلما نزل صلى بهما الغداة قال كيف ترى يا عقبة؟ رواه أحمد وأبو داود.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي من حديث عمار بن ياسر أنه صلى صلاة فأوجز فيها فأنكروا عليه فقال: ألم أتم الركوع والسجود؟ قالوا: بلى. قال: أما إني دعوت فيها بدعاء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بت: "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى ولذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة ومن فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين".

قالوا: فأين هذه الأحاديث من أحاديث التطويل صحة وكثرة وصراحة. وحينئذ فيتعين حملها على أنها في أول الإسلام لما كان في المصلين قله، فلما كثروا واتسعت رقعة الإسلام شرع التخفيف وأمر به لأنه أدعى إلى القبول ومحبة العبادة فيدخل فيها برغبة ويخرج منها باشتياق ويندر بها الوسواس فإنها متى طالت استولى الوسواس فيها على المصلي فلا يفي ثواب إطالته بنقصان أجره.

قالوا: وكيف يقاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم غيره من الائمة من محبة الصحابة له والقيام خلفه لسماع صوته بالقرآن غضا كما أنزل وشدة رغبة القوم في الدين وإقبال قلوبهم على الله وتفريغها له في العبادة ولهذا قال: "إن منكم منفرين" ، ولم يكونوا ينفرون من طول صلاته صلى الله عليه وسلم فالذي كان يحصل للصحابة خلفه في الصلاة كان يحملهم على أن يروا صلاته وإن طالت خفيفة على قلوبهم وأبدانهم فإن الإمام محمل المأمومين بقلبه وخشوعه وصوته وحاله فإذا عرى من ذلك كله كان كلا على المأمومين وثقلا عليهم فليخفف من ثقله عليهم ما أمكنه لئلا يبغضهم الصلاة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ٢/٢٠٥

قالوا: وقد ذم رسول الله صلى الله عليه وسلم الخوارج لشدة تنطعهم في الدين وتشددهم في العبادة بقوله: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم". ومدح الرفق وأهله وأخبر عن محبة الله له وأنه يعطي عليه ما لا يعطي على العنف، وقال:." (١)

"والجعفران كذاك شيطان ويد ... عى الطاق لا حييت من شيطان

وكذلك الشحام والعلاف والنـ ... جار أهل الجهل بالقرآن

والله ما في القوم شخص رافع ... بالوحي رأسا بل برأي فلان

وخيار عسكركم فذاك الأشعر ... ي القرم ذاك مقدم الفرسان

لكنكم والله ما أنتم على ... إثباته والحق ذو برهان

هو قال إن الله فوق العرش ... واستولى مقالة كل ذي بهتان

في كتبه طرا وقرر قول ذي الـ ... إثبات تقريرا عظيم الشان

لكنكم أكفرتموه وقلتم ... من قال هذا فهو ذو كفران

فخيار عسكركم فأنتم منهم ... برآء إذ قربوا من الإيمان

هذي العساكر قد تلاقت جهرة ... ودنا القتال وصيح بالأقران

صفوا الجيوش وعبئوها وابرزوا ... للحرب واقتربوا من الفرسان

فهم إلى لقياكم بالشوق كي ... يوفوا بنذرهم من القربان

ولهم إليكم شوق ذي قرم فما ... يشفيه غير موائد اللحمان

تبا لكم لو تعقلون لكنتم ... خلف الخدور كأضعف النسوان

من أين أنتم والحديث وأهله ... والوحي والمعقول بالبرهان

ما عندكم إلا الدعاوى والشكا ... وى أو شهادات على البهتان

هذا الذي والله نلنا منكم ... في الحرب إذ يتقابل الصفان

والله ما جئتم بقال الله أو ... قال الرسول ونحن في الميدان." (٢)

"ولقد أتى مصداقه في الترمذي ... لمن له أذنان واعيتان

في أجر محيي سنة ماتت فذا ... ك مع الرسول رفيقه بجنان

---

(١) الصلاة وأحكام تاركها ابن القيم ص/١٣٥

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٢٢٥

هذا ومصداق له أيضا أتى ... في الترمذي لمن له عينان

تشبيه أمته بغيث أول ... منه وآخره فمشتبهان

فلذالك لا يدري الذي هو منهما ... قد خص بالتفضيل والرجحان

ولقد أتى أثر بأن الفضل في ... الطرفين أعني أولا والثاني

والوسط ذو ثبج فأعوج هكذا ... جاء الحديث وليس ذا نكران

ولقد أتى في الوحي مصداق له ... في الثلتين وذاك في القرآن

أهل اليمن فثلة مع مثلها ... والسابقون أقل في الحسبان

ما ذاك إلا أن تابعهم هم ... الغرباء ليست غربة الأوطان

لكنها والله غربة قائم ... بالدين بين عساكر الشيطان

فلذاك شبههم به متبوعهم ... في الغربتين وذاك ذو تبيان

لم بشبهوهم في جميع أمورهم ... من كل وجه ليس يستويان

فانظر إلى تفسيره الغرباء ... بالمحيين سنته بكل زمان

طوبى لهم **والشوق** يحدوهم إلى ... أخذ الحديث ومحكم القرآن

طوبى لهم لم يعبأوا بنحاتة الأ ... فكار أو بزبالة الأذهان

طوبى لهم ركبوا على متن العزا ... ئم قاصدين لمطلع الإيمان

طوبى لهم لم يعبأوا شيئا بذي الآ ... راء إذ أغناهم الوحيان." (١)

"فخذان قد حفا به حرسا له ... فجنابه في عزة وصيان

قاما بخدمته هو السلطان بيـ ... ـنهما وحق طاعة السلطان

وهو المطاع أميره لا ينثني ... عنه ولا هو عنده بجبان

وجماعها فهو الشفا لصبها ... فالصب منه ليس بالضجران

وإذا يجامعها تعود كما أتت ... بكرا بغير دم ولا نقصان

فهو الشهي وعضوه لا ينثني ... جاء الحديث بذا بلا نكران

ولقد روينا أن شغلهم الذي ... قد جاء في يس دون بيان

شغل العروس بعرسه من بعدما ... عبثت به الأشواق طول زمان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٠٤

بالله لا تسأله عن أشغاله ... تلك الليالي شأنه ذو شان

واضرب لهم مثلا بصب غاب عن ... محبوبه في شاسع البلدان

والشوق يزعجه إليه وما له ... بلقائه سبب من الإمكان

وافى إليه بعد طول مغيبه ... عنه وصار الوصل ذا إمكان

أتلومه إن صار ذا شغل به ... لا والذي أعطى بلا حسبان

يا رب غفرا قد طغت أقلامنا ... يا رب معذرة من الطغيان

فصل

أقدامها من فضة قد ركبت ... من فوقها ساقان ملتفان

والساق مثل العاج ملموم يرى ... مخ العظام وراءه بعيان." [١]

"فيضمها وتضمه أرأيت مع ... شوقين بعد البعد يلتقيان

غاب الرقيب وغاب كل منكد ... وهما بثوب الوصل مشتملان

أتراهما ضجرين من ذا العيش لا ... وحياة ربك ما هما ضجران

ويزيد كل منهما حبا لصا ... حبه جديدا سائر الأزمان

ووصاله يكسوه حبا بعده ... متسلسلا لا ينتهي بزمان

فالوصل محفوف بحب سابق ... وبلاحق وكلاهما صنوان

فرق لطيف بين ذاك وبين ذا ... يدريه ذو شغل بهذا الشان

ومزيدهم في كل وقت حاصل ... سبحان ذي الملكوت والسلطان

يا غافلا عما خلقت له انتبه ... جد الرحيل فلست باليقظان

سار الرفاق وخلفوك مع الألى ... قنعوا بذا الحظ الخسيس الفاني

ورأيت أكثر من ترى متخلفا ... فتبعتهم ورضيت بالحرمان

لكن أتيت بخطتي عجز وجهـ ... ـل بعد ذا وصحبت كل أمان

منتك نفسك باللحاق مع القعو ... د عن المسير وراحة الأبدان

ولسوف تعلم حين ينكشف الغطا ... ماذا صنعت وكنت ذا إمكان." [٢]

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٣٦

(٢) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٤٠

"أن العباد يرونه سبحانه ... رؤيا العيان كما يرى القمران

فإن استطعتم كل وقت فاحفظوا الـ ... بردين ما عشتم مدى الأزمان

ولقد روى بضع وعشرون امرءا ... من صحب أحمد خيرة الرحمان

أخبار هذا الباب عمن قد أتى ... بالوحي تفصيلا بلا كتمان

وألذ شيء للقلوب فهذه الأخبار ... مع أمثالها هي بهجة الإيمان

والله لولا رؤية الرحمن في الـ ... جنات ما طابت لذي العرفان

أعلى نعيم رؤية وجهه ... وخطابه في جنة الحيوان

وأشد شيء في العذاب حجابه ... سبحانه عن ساكني النيران

وإذ رآه المؤمنون نسوا الذي ... هم فيه مما نالت العينان

فإذا توارى عنهم عادوا إلى ... لذاتهم من سائر الألوان

فلهم نعيم عند رؤيته سوى ... هذا النعيم فحبذا الأمران

أو ما سمعت سؤال أعرف خلقه ... بجلاله المبعوث بالقرآن

شوقا إليه ولذة النظر التي ... بجلال وجه الرب ذي السلطان

فالشوق لذة روحه في هذه الـ ... ـدنيا ويوم قيامة الأبدان

تلتذ بالنظر الذي فازت به ... دون الجوارح هذه العينان

والله ما في هذه الدنيا ألذ ... من اشتياق العبد للرحمن

وكذاك رؤية وجهه سبحانه ... هي أكمل اللذات للإنسان

لكنما الجهمي ينكر ذا وذا ... والوجه أيضا خشية الحدثان." (١)

"فصل: في إقامة المأتم على المتخلفين عن رفقة السابقين

بالله ما عذر امرئ هو مؤمن ... حقا بهذا ليس باليقظان

بل قلبه في رقدة فإذا استفا ... ق فلبسه هو حلة الكسلان

تالله لو شاقتك جنات النعيـ ... ـم طلبتها بنفائس الأثمان

وسعيت جهدك في وصال نواعم ... وكواعب بيض الوجوه حسان

جليت عليك عرائس والله لو ... تجلى على صخر من الصوان

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٤٥

رقت حواشيه وعاد لوقته ... ينهال مثل نقى من الكثبان

لكن قلبك في القساوة جاز حد ... الصخرة والحصباء في أشجان

لو هزك الشوق المقيم وكنت ذا ... حس لما استبدلت بالأهوان

أو صادفت منك الصفات حياة قل ... ب كنت ذا طلب لهذا الشان

خود تزف إلى ضرير مقعد ... يا محنة الحسناء بالعميان

شمس لعنين تزف إليه ما ... ذا حلية العنين في الغشيان

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان

يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها ... إلا أولو التقوى مع الإيمان." (١)

"موجبا بمجرده لدخول الجنة ولا عوضا لها فإن اعماله وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه فهي لا تقاوم نعمة الله التي انعم بها عليه في دار الدنيا ولا تعادلها بل لو حاسبه لوقعت اعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله كما في السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعا الى النبي انه قال ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل ارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم والمقصود ان حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإنزالهم فيها بحسب اعمالهم ولازم هذا إنزالهم الى دار العمل والمجاهدة وأيضا فإنه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم في الارض كما اخبر سبحانه في كتابه بقوله ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقوله ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ وقال ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ فأراد سبحانه ان ينقله وذريته من هذا الاستخلاف الى توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق علمه انه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الاجل النفيس فإن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الاخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولا فعلم سبحانه ما في طبيعته من الضعف والخور فاقتضت حكمته ان ادخله الجنة ليعرف النعيم الذي اعد له عيانا فيكون اليه اشوق وعليه احرص وله اشد طلبا فإن محبة الشيء وطلبه والشوق اليه من لوازم تصوره فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكد يصبر عنه وهذا لان النفس ذواقة تواقة فإذا ذاقت تاقت ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الايمان وخالطت

---

(١) نونية ابن القيم = الكافية الشافية ابن القيم ص/٣٥٤

بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئا ابدا وفي الصحيح من حديث ابي هريرة رضى الله عنه المرفوع ان الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألني عبادي فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يا رب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا فاقتضت حكمته ان اراها أباهم وأسكنه إياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع ابيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع اليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كانه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الاول فهو دائم الحنين الى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الاول كم منزل في الارض يألفه الفتى ... وحنينه ابدا لاول منزل ولي من ابيات تلم بهذا المعنى:

وحى على جنات عدن فإنها ... منازلك الاولى وفيها المخيم ...." (١)

"وحشر الكافرين جمعهم وضمهم الى النار قال تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقال تعالى احشروا الذين ظلموا أزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم فهذا الحشر هو بعدحشرهم الى الموقف وهو حشرهم وضمهم الى النار لانه قد اخبر عنهم انهم قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ثم قال تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الاول من القبور الى الموقف والحشر الثاني من الموقف الى النار فعند الحشر الاول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضا ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا

فصل والمقصود ان الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج

آدم وذريته من الجنة اعاضهم افضل منها وهو ما اعطاهم من عهده الذي جعله سببا موصلا لهم اليه وطريقا واضحا بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن اعرض عنه شقى وغوى ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل اليه ابدا إلا من باب العلم والارادة فالارادة باب الوصول اليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكمال كل انسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين او من احداهما اما ان لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها او يكون عالما بها ولا تنهض همته اليها فلا يزال في حضيض طبعه محبوسا

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٩/١

وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا قد أسام نفسه مع الانعام راعيا مع الهمل واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمر اليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه قد ابت غلبات شوقه الا لهجرة الى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء الا ابن سبيل يرافقه في سبيله ولما كان كمال الارادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها ان تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت وعزمات همته مسافرة الى حضرة الحي الذي لا يموت ولا سبيل له إلى هذا المطلب الاسني والحظ الاوفى الا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعيا وأقامه على هذا الطريق هاديا وجعله واسطة بينه وبين الانام وداعيا لهم بإذنه الى دار السلام وأبى سبحانه ان يفتح لاحد منهم الاعلى يديه او يقبل من احد منهم سعيا الا ان يكون مبتدأ منه ومنتهيا اليه." (١)

"بعدالمائة قوله ايضا العالم والمتعلم شريكان في الاجر وسائر الناس همج لا خير فيهم الوجه السابع والعشرون بعدالمائة ما رواه ابو حاتم بن حبان في صحيحه من حديث ابي هريرة انه سمع رسول الله يقول من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا او ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر الى ما ليس له الوجه الثامن والعشرون بعدالمائة ما رواه ايضا في صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا الى رسول الله وهو جالس في حلقه فأعرض احدهم واستحى الاخر فجلس خلفهم وجلس الثالث في فرجة في الحلقة فقال النبي اما احدهم فأوى الى الله فآواه الله وأما الاخر فاستيحا فاستحيا الله منه وأما الاخر فاعرض فاعرض الله عنه فلولم يكن لطالب العلم الا ان الله يؤويه اليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا الوجه التاسع والعشرون بعد المائة ما رواه كميل بن زياد النخعي قال اخذ علي بن ابي طالب رضى الله عنه بيدي فا خرجني ناحية الجبانة فلما اصحر جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب اوعية فخيرها اوعاها احفظ عني ما اقول لك الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئؤوا بنور العلم ولم يلجئوا الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال العلم يكزكوا على الانفاق وفي رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقي الدهر اعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا علما واشار بيده الى صدره لو اصبت له حملة بل اصبته لقنا غير مأمون

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٤٦/١

عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده او منقادا لاهل الحق لا بصير له في احبائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لاذاو لا ذاك او منهوما للذات سلس القياد للشهوات او مغرى بجمع الاموال والادخار ليسا من دعاة الدين اقرب شبها بهم الانعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامليه اللهم بك لن تخلو الارض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبنياته اولئك الاقلون عددا الاعظمون عند الله قيلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها في قلوب اشابههم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وانسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان ارواحها معلقة بالملأ الاعلى اولئك خلفاء الله في ارضه ودعاته الى دينه هاه هاه شوقا الى رؤيتهم واستغفر الله لي ولك اذا شئت فقم ذكره ابو نعيم في الحلية وغيره قال ابو بكر الخطيب هذا حديث حسن من احسن الاحاديث معنى واشرفها لفظا وتقسيم امير." (١)

"وخلفه غيره وأما العلم فكالقبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاقتباس منه فهو كالعين التي كلما اخذ منها قوى ينبوعها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه احدها ان العلم ميراث الانبياء والمال ميراث الملوك والاغنياء والثاني ان العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله والثالث ان المال تذهبه النفقات والعلم يزكوا على النفقة الرابع ان صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره الخامس ان العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم السادس ان المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل الا للمؤمن ز السابع ان العالم يحتاج اليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج اليه اهل العدم والفاقة الثامن ان النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزكيها ولا يكمله ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها التاسع ان المال يدعوها الى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التوضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها الى صفات الملوك والعلم يدعوها الى صفات العبيد العاشر ان العلم جاذب موصل لها الى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها الحادي عشر ان غني العلم اجل من غني المال فإن غني المال غنى بامر خارجي عن حقيقة الانسان لو ذهب في ليلة اصبح فقيرا معدما وغني العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زايدة ابدا فهو الغني العالي حقيقة كما قيل

غنيت بلا مال عن الناس كلهم ... وان الغني العالي عن الشيء لا به الثاني عشر ان المال يستعبد محبه

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/١٢٣

وصاحبه فيجعله عبدا له كما قال النبي تعس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لا يدعوه إلا الى عبودية الله وحده الثالث عشر ان احب العلم وطلبه اصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه اصل كل سيئة الرابع عشر ان قيمة الغني ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فإذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة والعالم لاتزول قيمته بل هي فيضاعف وزيادة دائما الخامس عشر ان جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الامرين كالفرق بين الروح والبدن السادس عشر ان العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضا من علمه والغني العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو ان له علمه بغناه اجمع السابع عشر انه ما اطاع الله احد قط الا بالعلم وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال الثامن عشر ان العالم يدعو الناس الى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم الى الدنيا بحاله وماله التاسع عشر ان غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيرا فإنه **معشوق** النفوس فإذا رأت من يستأثر **بمعشوقها** عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى." [1]

"يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم اما المحروم فيقول كيف جاد على غيري وبخل علي واما المرحوم فإنه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعا مستشرفا لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالبا فيفضى ذلك الى العداوة الشديدة والمذمة ولهذا قيل اتق شر من احسنت اليه وهذه الافات لا تعرض في غنى العلم فإن صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم واشتراكهم فيه والقدر المبذول منه باق لاخذه لا يزول بل يتجربه فهو كالغني إذا اعطى الفقير رأس مال يتجربه حتى يصير غنيا مثله الوجه الثالث والثلاثون ان جمع المال مقرون بثلاثة انواع من الافات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعدمفارقته فأما النوع الاول فهو المشاق والانكاد والالام التي لا يحصل الا بها واما النوع الثاني فمشقة حفظه وحرساته حراسته وتعلق القلب به فلا يصبح الا مهموما ولا يمسي الا مغموما فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر **بمعشوقته** والعيون من كل جانب ترمقه والالسن والقلوب ترشقه فأي عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم ان اعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين **معشوقه** وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم ان يزيلوا اختصاصه به دونهم فإن فازوا به والا استووا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا انه لا سبيل الى سلب علمه عمدوا الى جحده وانكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فإن بهر علمه وامتنع عن مكابرة

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٢٩/١

الجحود والانكار رموه بالعظائم ونسبوه الى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهؤلاء سحرة بالسنتهم فإن عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس والدوكرة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة اهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل ان يتأذى به إذ لا سبيل له الى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف والنوع الثالث من آفات الغنى ما يحصل للعبد بعد مفارقته من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من اين اكتسبه وفيما ذا انفقه وغنى العلم والايمان مع سلامته من هذه الافات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال الا على جسر من التعب والصبر والمشقة الرابع والثلاثون ان لذة الغني بالمال مقرونة بخلطة الناس ولو لم يكن الا خدمه وازواجه وسراريه واتابعه إذ لو انفرد الغني بماله وحده من غير ان يتعلق بخادم او زوجه او احد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفا على اتصاله بالغير فذلك منشأ الافات والالام ولو لم يكن الا اختلاف الناس وطبائعهم وارادتهم فقبيح هذا حسن ذاك ومصلحة ذاك مفسدة." (١)

"هذا ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه فان ارضاءهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين وارضاء بعضهم واسخاط غيره سبب الشر والمعاداة وكلما طالت المخالطة ازدادت اسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الاقارب والعشراء اضعاف الشر الحاصل من الاجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغني بالمال اما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من اذى الخلطة والعشرة وهذه الافات معدودة في الغنى بالعلم الخامس والثلاثون ان المال لا يراد لذاته وعينه فإنه لا يحصل بذاته شيء من المنافع اصلا فإنه لا يشبع ولا يروى ولا يدفء ولا يمتع وإنما يراد لهذه الاشياء فإنه لما كان طريقا اليها اريد ارادة الوسائل ومعلوم ان الغايات اشرف من الوسائل فهذه الغايات اذا اشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة اليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من العقلاء الى انها لا حقيقة لها وانما هي دمع الالم فقط فإن لبس الثياب مثلا إنما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الاكل إنما فائدته دفع الم الجوع ولهذا لو لم يجد الم الجوع لم يستطب الاكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب ومعلوم ان في مزاولة ذلك وتحصيله الما وضررا ولكن ضرره وألمه اقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٣٢/١

الانسان اخف الضررين دفعا لاعظمهما وحكى عن بعض العقلاء انه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه قال اصبحت في دار بليات ادافع آفات بآفات وفي الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمأكل شهوتي البطن والفرج ليس لهما ثالث البتة الا ما كان وسيلة اليهما وطريقا الى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة منها ان تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها ومنها انها ممزوجة بالافات ومعجونة بالالام محتاطة بالمخاوف وفي الغالب لاتفي الامها بطيبها كما قيل:

قايست بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لاتفي

ومنها ان الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها اعظم زيادة وافحشها فنسبتهم فيها الى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمة اليهم فمشاركة الاراذل وأهل الخسة والدناءة فيها زيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب **والمعشوق** منها بهذه الطريق هذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل." (١)

"الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين واحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة **والشوق** والخوف والرجاء والانابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الاحوال التي بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصفات والافعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاجا إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى الى حصول الايمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد احدهم الاية الى الصباح وقد ثبت عن النبي انه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فقراءة القرآن بالتفكر هي اصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لاتهذوا القرآن هذا الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم احدكم آخر السورة وروى ابو ايوب عن ابي جمرة قال قلت لابن عباس اني سريع القراءة إني اقرا القرآن في ثلاث قال لان اقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها احب الي من ان اقرأ القرآن كما تقرأ والتفكر

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/١٣٣

في القرآن نوعان تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه وتفكر في معاني ما دعا عباده الى التفكر فيه فالاول تفكر في الدليل القرآني والثاني تفكر في الدليل العياني الاول ففكر في آياته المسموعة والثاني تفكر في آياته المشهودة ولهذا انزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الاعراض عنه قال الحسن البصري انزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا

فصل وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده الى الفكر فيه

اوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته واحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف الى عباده وندبهم الى التفكر في آياته ونذكر لذلك امثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه يستدل بها على غيرها فمن ذلك خلق الانسان وقدندب سبحانه الى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ وقوله تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وقال تعالى يايها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعدعلم." (١)

"ذكرناها ولو انه ساقه من البحر الى الارض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي الا بتخريب كثير من الارض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعدة سبحانه الى الجو بلطفه وقدرته ثم انزله على الارض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الارض فصل ثم تأمل الحكمة البا لغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا اخذت

الارض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها اقلع عنها واعقبه بالصحو فهما اعني الصحو والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام احدهما كان فيه فساده فلو توالت الامطار لاهلكت ما علي الارض ولو زادت على الحاجة افسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضروات وأرخت الابدان وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الامراض وفسد اكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الابدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والابار والانهار والاودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الارض وجفت الابدان وغلب اليبس واحدث ذلك ضروبا من الامراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الامر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١٨٧/١

الاخر واستقام امر العالم وصلح

فصل ثم تأمل الحكمة الالهية في اخراج الاقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الارض ولم تكن تنبت على هذه السوق والاغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فإن كل فصل واوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يتقضيه الفصل الاخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للمصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه ثم انه سبحانه خلق تلك الاقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الاقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والاواني وغيرها ومنافع النور من الادوية والمنظر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرائي الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الاخضر ثم اخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها ثم تأمل اين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالام." (١)

"ويعلمهم الكتاب والحكمة ثم أخبر عن جهل من رغب عن ملة إبراهيم وسفه ونقصان عقله ثم أكد عليهم أن يكونوا على ملة إبراهيم وأنهم إن خرجوا عنها إلى يهودية أو نصرانية أو غيرها كانوا ضلالا غير مهتدين وهذه كلها مقدمات بين يدي الأمر باستقبال الكعبة لمن تأملها وتدبرها وعلم ارتباطها بشأن القبلة فإنه يعلم بذلك عظمة القرآن وجلالته وتنبيهه على كمال دينه وحسنه وجلالته وأنه هو عين المصلحة لعباده لا مصلحة لهم سواه وشوق بذلك النفوس إلى الشهادة له بالحسن والكمال والحكمة التامة فلما قرر ذلك كله أعلمهم بما سيقول السفهاء من الناس إذا تركوا قبلتهم لئلا يفجأهم من غير علم به فيعظم موقعه عندهم فلما وقع لم يهلهم ولم يصعب عليهم بل أخبر أن له المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ثم أخبر انه كما جعلهم أمة وسطا خيارا اختار لهم أوسط جهات الاستقبال وخيرها كما اختار لهم خير الأنبياء وشرع لهم خير الأديان وأنزل عليهم خير الكتب وجعلهم شهداء على الناس كلهم لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة ثم نبه سبحانه على حكمته البالغة في أن جعل القبلة أولا هي بيت المقدس ليعلم سبحانه واقعا في الخارج ما كان معلوما له قبل وقوعه من يتبع الرسول في جميع أحواله وينقاد

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ١/٢٢٤

له ولأوامر الرب تعالى ويدين بها كيف كانت وحيث كانت فهذا هو المؤمن حقا الذي أعطى العبودية حقها ومن ينقلب على عقبيه ممن لم يرسخ في الإيمان قلبه ولم يستقر عليه قدمه فعارض وأعرض ورجع على حافره وشك في النبوة وخالط قلبه شبهة الكفار الذين قالوا أن كانت القبلة الأولى حقا فقد خرجتم عن الحق وأن كانت باطلا فقد كنتم على باطل وضاق عقله المنكوس عن القسم الثالث الحق وهو أنها كانت حقا ومصلحة في الوقت الأول ثم صارت مفسدة باطلة الاستقبال في الوقت الثاني ولهذا أخبر سبحانه عن عظم شأن هذا التحويل والنسخ في القبلة فقال وأن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ثم أخبر أنه سبحانه لم يكن يضيع ما تقدم لهم من الصلوات إلى القبلة الأولى وأن رأفته ورحمته بهم تأبي إضاعة ذلك عليهم وقد كان طاعة لهم فلما قرر سبحانه ذلك كله وبين حسن هذه الجهة بعظمة البيت وعلو شأنه وجلالته قال قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وأكد ذلك عليهم مرة بعد مرة اعتناء بهذا الشأن وتفخيما له وأنه شأن ينبغي الاعتناء به والاحتفال بأمره فندبر هذا الاعتناء وهذا التقرير وبيان المصالح الناشئة من هذا الفرع من فروع الشريعة وبيان المفاسد الناشئة من خلافه وان كل جهة في وقتها كان استقبالها هو المصلحة وأن للرب تعالى الحكمة البالغة في شرع القبلة الأولى وتحويل عباده عنها إلى المسجد." (١)

"قالوا: ولهذا نقش داود الخطيئة في كفه، وكان ينظر إليها ويبكي.

قالوا: ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت، وأطرقت بين يدي الله عز وجل، خاشعا ذليلا خائفا، وهذه طريق العبودية.

والصواب التفصيل في هذه المسألة، وهو أن يقال: إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوى، ورقيقة من العجب ونسيان المنة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له، وإن كان في حال مشاهدته منة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وفنائه به، وعدم استغنائه عنه في ذرة من ذراته، وقد خالط قلبه حال المحبة، والفرح بالله، والأنس به، **والشوق** إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات، فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع، فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك، ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض، وهذا من حسد الشيطان له، أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه في ميادين

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن القيم ٣١/٢

المعرفة والمحبة، والشوق إلى وحشة الإساءة، وحصر الجناية.

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله، من بها عليه، ليؤمنه بها من مقت الدعوى، وحجاب الكبر الخفي الذي لا يشعر به، فهذا لون وهذا لون.

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة، وبالله التوفيق، وهو المستعان.

[فصل التوبة من التوبة]

فصل

وأما التوبة من التوبة فهي من المجملات التي يراد بها حق وباطل، ويكون مراد المتكلم بها حقا، فيطلقه من غير تمييز.

فإن التوبة من أعظم الحسنات، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات، وأقبح الجنايات، بل هي كفر، إن أخذت على ظاهرها، ولا فرق بين التوبة من التوبة والتوبة من الإسلام والإيمان، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان؟ .

ولكن مرادهم أن يتوب من رؤية التوبة، فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته، ولو خلي ونفسه لم تسمح بها البتة، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به، وغفل عن منة الله عليه تاب من هذه الرؤية والغفلة، ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي." (١)

"باحتمال أدناهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وقد فتح لك الباب، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل، وإلا فرد الباب وارجع بسلام.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم السميع، البصير يقتضي مسموعا ومبصرا، واسم الرزاق يقتضي مرزوقا، واسم الرحيم يقتضي مرحوما، وكذلك أسماء الغفور، والعفو، والتواب، والحليم يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود، فلا بد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم» .

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوما، فمن يرزق الرزاق سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/ ٢٢٠

من العالم، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت، والعبيد أغنياء معافون، فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات، ودلهم عليه بأنواع الدلالات، وفتح لهم إليه جميع الطرقات، ثم نصب إليه الصراط المستقيم، وعرفهم به ودلهم عليه ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ [الأنفال: ٤٢] .

ومنها: السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له، وطمأنينة به وشوقا إليه، ولهجا بذكره، وشهودا لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت." (١)

"يا أبتاه، يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه في طلبه، حتى وقف على رأسه، وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلي بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها إذا فر عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحا ببابه، يمرغ خده في ثرى أعتابه باكيا بين يديه، يقول: يا رب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك، لا ملجأ له ولا منجى له منك إلا إليك، أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

[فصل المشهد الثالث عشر مشهد العبودية والمحبة والشوق إلى لقائه والابتهاج به]

فصل

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه، وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى:

المشهد الثالث عشر

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٢٥/١

وهو الغاية التي شمر إليها السالكون، وأمها القاصدون، ولحظ إليها العاملون.

وهو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره، وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته، فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.." (١)

"وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب إلى الله من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة، يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابا من المحبة، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا، وتفريطا وذنبا وخطيئة، نوع آخر وفتح آخر، والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في واد وهو في واد، وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده، فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد من ربه سبحانه عليه قبل الذنب، وفي حال مواقعته، وبعده، بره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وأي

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/٤٢٩

إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه، فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه، والأرض تستأذنه أن تخسف به، والبحر يستأذنه أن يغرقه، كما في مسند الإمام أحمد عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق ابن آدم، والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه، والرب تعالى يقول: دعوا عبدي، فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض، إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمني وإلي، عبدي وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته، وإن أتاني نهارا قبلته، وإن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، وإن مشى إلي هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إلي تبت عليه، من أعظم مني جودا وكرما، وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم على فرشهم، من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد، أهل ذكري أهل." [1]

"والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام، فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التي اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه، وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تصمه وتبكمه وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه، ومن لا شعور له بهذا فميت القلب، وما لجرح بميت إيلام، فهي عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته في الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، **والشوق** إلى لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/ ٤٣٠

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.
وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، **والشوق** إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضا وعللا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، يوجب له تشتتا وتفرقا، وهما وغما، وضعفا، وحملا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟ .." (١)

"فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه، ولا يصدنك عن تحقيق ذلك ما يحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق، فإنا لا ننكره، بل نقر به، ولكن الشأن في مرتبته، وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات فيحتمل أمرين.

أحدهما: ما يعارض شهوده الجمعي من التفرقات، وهو مراده.

والثاني: ما يعارض إرادته من الإرادات، وما يعارض مراد الله من المرادات، وهذا أكمل من الأول، وأعلى منه.

وأما قطع المعاوضات فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة، بل يجردها لذاته، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعابده عوض منه، فإنه يستحق أن يعبد لذاته لا لعلة، ولا لعوض ولا لمطلوب، وهذا أيضا موضع لا بد من تجريده.

فيقال: ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل، وإنما الشأن في ملاحظة الأعواض وتباينها، فالمحب الصادق الذي قد تجرد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض، وشمر إليها، وهي قربه من الله ووصوله إليه، واشتغاله به عما سواه، والتنعم بحبه ولذة **الشوق** إلى لقائه، فهذه أعواض لا بد للخاصة منها، وهي من أجل مقاصدهم وأغراضهم، ولا تقدح في مقاماتهم، وتجريد عبودياتهم، بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتا إلى هذه الأعواض.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١/٤٥٢

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة من الجاه، والمال، والرياسة، والملك أو طلب الحور العين والقصور والولدان، ونحو ذلك بالنسبة إلى تلك الأعواض التي تطلبها الخاصة معلولة، وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها.

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتي هو قربه والوصول إليه، والتنعم بحبه، والشوق إلى لقائه، وانضاف إلى هذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل فلا علة في هذه العبودية بوجه ما، ولا نقص، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حولها ندندن يعني الجنة، وقال." (١)

"إلى ديار الأفرح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قبل فالق الإصباح حي على الفلاح، حي على الفلاح.

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردا على ضلالة، وإرشادا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرا بمصلحة، ونهيا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجا من ظلمة، وزجرا عن هوى، وحثا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد، ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة هل وجدوا ذلك أو شيئا منه في الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ . والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان، فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنا ما كان، ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقا في السماع، وحالا ووجدا وبكاء.

ويا لله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات، لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب إنما هو في الصور المحرمة، ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤٧٦/١

وحياة قلب أن يتقرب إلى اىله، ويزداد إيمانا وقربا منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ ! .

يا لله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس، لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره، فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعا وموقوفا " «إن الشيطان قال: يا رب، اجعل لي قرآنا، قال: قرآنك الشعر، قال: اجعل لي كتابا، قال: كتابك الوشم، قال: اجعل لي مؤذنا، قال: مؤذنك المزمار، قال: اجعل لي بيتا، قال: بيتك الحمام، قال: اجعل لي مصائد، قال: مصائدك النساء، قال:." (١)

"الأحمق الفاجر، الذي هو الشيطان، وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة وقد ضربها حتى بدا شعرها وقال: لا حرمة لها، إنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه، وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتفتن الحي وتؤذي الميت، وتبيع عبرتها، وتبكي شجو غيرها.

ومعلوم عند الخاصة والعامة أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير، والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان.

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة، فإن لها عند القوم شأنا عظيما.

وأما قولهم: من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولي لله، فحجة عامية، نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددا، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرا، وأقرب بالقرون المفضلة عهدا، وليس من شرط ولي الله العصمة، وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيوف، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة. وكون ولي الله يرتكب المحظور والمكروه متأولا أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله، وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع، المشتمل على هذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم من فتنة المشروب، وحاشا أولياء الله من ذلك وإنما السماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكان خال من الأغيار يذكرون الله، ويتلون شيئا من القرآن، ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئا من الأشعار المزهدة في الدنيا، المرغبة في لقاء الله ومحبته، وخوفه ورجائه، والدار

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤٨٢/١

الآخرة، وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة، أو بعد أو انقطاع، أو تأسف على فائت، أو تدارك لفارط، أو وفاء بعهد، أو تصديق بوعد، أو ذكر قلق وشوق، أو خوف فرقة أو صد، وما جرى هذا المجرى. فهذا السماع الذي اختلف فيه القوم، لا سماع المكاء والتصدية، والمعازف والخمريات. وعشق الصور من المردان والنسوان، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها، فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضى بتحريمه، وعلم أن الشرع لا يأتي بإباحته." [١]

"الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم ما قلت له زاهد؛ لأن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأما الحرام فإن ارتكبته عذبك الله عز وجل.

ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد.

فقالت طائفة: الزهد إنما هو في الحلال؛ لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزهد لا يكون إلا في الحرام. وأما الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقا إلى جنته أفضل من الزهد فيها، والتخلي عنها، ومجانبة أسبابها.

والتحقيق أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكرا لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها. والله أعلم.

[فصل الزهد بالنسبة للعامة وللمريد]

فصل

قال صاحب " المنازل ":

الزهد هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية.

يريد بالشيء المزهود فيه ما سوى الله. والإسقاط عنه إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به.

وقوله: بالكلية؛ أي بحيث لا يلتفت إليه، ولا يتشوق إليه.

قال: وهو للعامة قربة. وللمريد ضرورة. وللخاصة خشية.

يعني أن العامة تتقرب به إلى الله. والقربة ما يتقرب به المتقرب إلى محبوبه. وهو ضرورة للمريد؛ لأنه لا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤٩٦/١

يحصل له التخلي بما هو بصدده، إلا بإسقاط الرغبة فيما سوى مطلوبه. فهو مضطر إلى الزهد، كضرورته إلى الطعام والشراب. إذ التعلق." (١)

"يقال: وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه المحسن البر فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه. ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح. وهدمت صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولي من أبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسرا وتمزقا

وكذاك لولا برده بحرارة ال ... أكباد ذابت بالحجاب تحرقا

أيكون قط حليف حب لا يرى ... برجائه لحبيبه متعلقا؟ !

أم كلما قويت محبته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا

لولا الرجا يحدو المطي لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه، أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينيه. وطرد محبوبه له وإبعاده. واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه. فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة. فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة. بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير. وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ ! وبينهما كما بين حالي ہما.

وبالجملة: فالرجاء ضروري للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد. فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢ /١٧

ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها. فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله. وهذا حاله؟." [1]

"بالوقوف عندها طلبا وقصدا.

[الدرجة الثالثة رجاء أرباب القلوب]

قال: الدرجة الثالثة: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها، قال الله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [الكهف: ١١٠] ، وقال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت: ٥] .

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه. وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها.

والاشتياق هو سفر القلب في طلب محبوبه.

واختلف المحبون: هل يبقى عند لقاء المحبوب أم يزول؟ على قولين.

فقالت طائفة: يزول؛ لأنه إنما يكون مع الغيبة. وهو سفر القلب إلى المحبوب. فإذا انتهى السفر، واجتمع بمحبوبه، وضع عصا الاشتياق عن عاتقه. وصار الاشتياق أنسا به ولذة بقربه.

وقالت طائفة: بل يزيد ولا يزول باللقاء.

قالوا: لأن الحب يقوى بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته. وإنما يواري سلطانه فناءه ودهشته بمعاينة محبوبه، حتى إذا توارى عنه ظهر سلطان شوقه إليه، ولهذا قيل:

وأعظم ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الخيام من الخيام

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة وتوابعها في كتابنا الكبير في المحبة. وفي كتاب " سفر الهجرتين ". وسنعود إليها إذا انتهينا إلى منزلتها إن شاء الله تعالى.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٤٣/٢

وقوله " المنغص للعيش " فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه. فهناك تقر عينه. ويزول عن عيشه تنغيصه. وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد؛ لأن." [١]

"تعالى، والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة، وسماع كلامه وحبه. والمنكرين على من يزعم أنه يحب الله. وهم عبيد الأجرة المحضة. فهؤلاء لا يريدون الله تعالى.

ومنهم من يصرح بأن إرادة الله محال.

قالوا: لأن الإرادة إنما تتعلق بالحادث. فالقديم لا يراد. فهؤلاء منكرون لإرادة الله غاية الإنكار. وأعلى الإرادة عندهم: إرادة الأكل والشرب، والنكاح واللباس في الجنة، وتوابع ذلك. فهؤلاء في شق، وأولئك – الذين قالوا: لم نعبده طلبا لجنته، ولا هربا من ناره – في شق. وهما طرفا نقيض. بينهما أعظم من بعد المشرقين. وهؤلاء من أكثف الناس حجابا، وأغلظهم طباعا، وأقساهم قلوبا، وأبعدهم عن روح المحبة والتأله، ونعيم الأرواح والقلوب. وهم يكفرون أصحاب المحبة **والشوق** إلى الله والتلذذ بحبه، والتصديق بلذة النظر إلى وجهه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

وأولئك لا يعدونهم من البشر إلا بالصورة. ومرتبتهم عندهم قريبة من مرتبة الجماد والحيوان البهيم. وهم عندهم في حجاب كثيف عن معرفة نفوسهم وكمالها، ومعرفة معبودهم وسر عبوديته.

وحال الطائفتين عجب لمن اطلع عليه.

والقسم الرابع – وهو محال –: أن يريد الله، ولا يريد منه. فهذا هو الذي يزعم هؤلاء أنه مطلوبهم، وأن من لم يصل إليه ففي سيره علة، وأن العارف ينتهي إلى هذا المقام. وهو أن يكون الله مراده، ولا يريد منه شيئا. كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: قيل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد أن لا أريد.

وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع: عقلا وفطرة، وحسا وشرعا. فإن الإرادة من لوازم الحي. وإنما يعرض له التجرد عنها بالغيبة عن عقله وحسه؛ كالسكر والإغماء والنوم. فنحن لا ننكر التجريد عن إرادة ما سواه من المخلوقات التي تزاحم إرادتها إرادته. أفليس صاحب هذا المقام مريدا لقربه ورضاه، ودوام مراقبته، والحضور معه؟ وأي إرادة فوق هذه؟

نعم. قد زهد في مراد لمراد هو أجل منه وأعلى. فلم يخرج عن الإرادة. وإنما انتقل من إرادة إلى إرادة،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٥٤

ومن مراد إلى مراد. وأما خلوه عن صفة الإرادة بالكلية، مع حضور عقله وحسه فمحال.

وإن حاكمنا في ذلك محاكم إلى ذوق مصطلم مأخوذ عن نفسه، فان عن عوالمها: لم." [١]

"وقال: «رباط يوم في سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها» .

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله. وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله. ورابطوا بأسراركم على **الشوق** إلى الله.

وقيل: اصبروا في الله. وصابروا بالله. ورابطوا مع الله.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار البقاء.

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضا لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه ويخربه أو يشعثه.

وقيل: تجرع الصبر، فإن قتلك قتلك شهيدا. وإن أحياك أحياك عزيزا.

وقيل: الصبر لله غناء. وبالله تعالى بقاء. وفي الله بلاء. ومع الله وفاء. وعن الله جفاء. والصبر على الطلب عنوان الظفر. وفي المحن عنوان الفرج.

وقيل: حال العبد مع الله رباطه. وما دون الله أعداؤه.

وفي كتاب الأدب للبخاري «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان؟ فقال: الصبر، والسماحة» . ذكره عن موسى بن إسماعيل. قال: حدثنا سويد قال: حدثنا عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده فذكره.

وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهانا، وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها.

فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أمرت به، وإعطاؤه. فالحامل عليه:." [٢]

"إذا لم يذمه صانعه – غيبة له وقدح فيه.

الرابع والخمسون: أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله الرضا بالقضاء. كما في المسند والسنن «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي. وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٨٢

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/١٥٩

وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء. وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. وأسألك **الشوق** إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين» .

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: سأله الرضا بعد القضاء. لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضا. وأما الرضا قبله: فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه. وإنما يتحقق الرضا بعده.

قال البيهقي: وروينا في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أسألك الصحة، والعفة، والأمانة، وحسن الخلق، والرضا بالقدر» .

الخامس والخمسون: أن الرضا بالقدر يخلص العبد من أن يرضي الناس بسخط الله. وأن يذمهم على ما لم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالما لهم في الأول - وهو رضاهم وذمهم - مشركا بهم في الثاني - وهو حمدهم - فإذا رضي بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضا من ذلك كله.

وقد روى عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كره كاره. وإن الله - بحكمته - جعل الروح والفرح في الرضا." (١)

"فقال: بل من تورع في كل شيء: فقد بلغ حد الورع. ومن زهد في غير الله: فقد بلغ حد الزهد. ومن رضي عن الله في كل شيء: فقد بلغ حد الرضا.

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك. وهي: أهل مقامات ثلاثة:

أحدهم: يحب الموت **شوقا** إلى الله ولقائه.

والثاني: يحب البقاء للخدمة والتقرب.

وقال الثالث: لا أختار. بل أرضى بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني، وإن شاء أماتني.

فتحاكموا إلى بعض العارفين. فقال: صاحب الرضا أفضلهم. لأنه أقلهم فضولا، وأقربهم إلى السلامة.

ولا ريب أن مقام الرضا فوق مقام **الشوق** والزهد في الدنيا.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٢١٤

بقي النظر في مقامي الآخرين: أيهما أعلى؟

فرجحت طائفة مقام من أحب الموت. لأنه في مقام **الشوق** إلى لقاء الله ومحبة لقائه. ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

ورجحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالى.

واحتجوا بأن الأول محب لحظه من الله. وهذا محب لمراد الله منه. لم يشبع منه، ولم يقض منه وطرا.

قالوا: وهذا حال موسى – صلوات الله وسلامه عليه – حين لطم وجه ملك الموت. ففقأ عينه، لا محبة للدنيا، ولكن لينفذ أوامر ربه. ومراضيه في الناس. فكأنه قال: أنت عبده، وأنا عبده. وأنت في طاعته. وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره.

وحينئذ فنقول في الوجه الثاني والستين: إن حال الراضي المسلم ينتظم حاليهما جميعا، مع زيادة التسليم، وترك الاختيار، فإنه قد غاب بمراد ربه منه – من إحيائه وإماتته – عن مراده هو من هذين الأمرين. وكل محب فهو مشتاق إلى لقاء حبيبه، مؤثر لمراضيه. فقد أخذ بزمام كل من المقامين، واتصف بالحالين. وقال: أحب ذلك إلي أحبه." (١)

"بكل طريق. وكلما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة. لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية. بل ما خفي عنه منها أعظم. فيداخله من شهود هذه الحالة نوع إدلال وانبساط. وشهود نفسه في منزلة المراد المحبوب. ولا يسلم من آفات ذلك إلا خواص العارفين.

وصاحب هذا المقام نهايته: أن يكون معذورا، وما يبدو منه من أحكامه بالشطحات أليق منه بأحكام العبودية.

ولم يكن لأحد من البشر في منزلة القرب والكرامة والحظوة والجاه ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى. وكان أشد الخلق لله خشية وتعظيما وإجلالا. وحاله كلها مع الله تشهد بتكميل العبودية. وأين درجة الانبساط من المخلوق من التراب، إلى الانبساط مع رب الأرباب؟

نعم لا ينكر فرح القلب بالرب تعالى وسروره به، وابتهاجه وقرة عينه، ونعيمه بحبه، **والشوق** إلى لقائه: إلا كثيف الحجاب، حجري الطباع. فلا بهذا الميعان. ولا بذاك الجمود والقسوة.

وبهذا ومثله طرق المتأخرون من القوم السبيل إليهم. وفتحوا للمقالة فيهم بابا، فالعبد الخائف الوجل المشفق الذليل بين يدي الله عز وجل، المنكس الرأس بين يديه، الذي لا يرضى لربه شيئا من عمله: هو

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٢١٩

أحوج شيء إلى عفوه ورحمته. ولا يرى نفسه في نعمته إلا طفيليا. ولا يرى نفسه محسنا قط. وإن صدر منه إحسان: علم أنه ليس من نفسه، ولا بها ولا فيها. وإنما هو محض منة الله عليه، وصدقته عليه. فما لهذا والانبساط؟

نعم انبساطه انبساط فرح وسرور ورضا وابتهاج. فإن كان المراد بالانبساط هذا: فلا ننكره. لكنه غير الاسترسال المذكور، والاستشهاد عليه بالآية يبين مراده. والله أعلم.." [١]

"[فصل الدرجة الثانية الأنس بنور الكشف]

فصل

قال: الدرجة الثانية: الأنس بنور الكشف. وهو أنس شاخص عن الأنس الأول. تشوبه صولة الهيمان. ويضربه موج الفناء. وهو الذي غلب قوما على عقولهم وسلب قوما طاقة الاصطبار. وحل عنهم قيود العلم. وفي هذا ورد الخبر بهذا الدعاء: «أسألك شوقا إلى لقائك، من غير ضراء مضرة. ولا فتنة مضلة» .

يجوز أن تكون الباء في قوله: بنور الكشف. باء السببية، أو باء الإلصاق.

فإن كانت باء السببية: كان المعنى: الأنس الحاصل بسبب نور الكشف.

وإن كانت باء الإلصاق، كان المعنى: الأنس المتلبس بنور الكشف.

فإن قلت: ما الفرق بين الأنس، ونور الكشف، حتى يكون أحدهما سببا للآخر، أو متلبسا به؟ .

قلت: الفرق بينهما: أن نور الكشف من باب المعارف وانكشاف الحقيقة للقلب. وأما الأنس: فمن باب القرب والدنو، والسكون إلى من يأنس به، والطمأنينة إليه. فضده: الوحشة. وضد نور الكشف: ظلمة الحجاب.

وقوله: شاخص عن الأنس الأول.

أي مرتفع عنه وأعلى منه.

قوله: تشوبه صولة الهيمان.

وذلك: لأن هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس. ويتعلق بها. كاسم الجميل، والبر، واللطيف، والودود، والحليم، والرحيم ونحوها. ثم يقوى التعلق بها إلى أن يستغرق العقل، فيمازجه نوع من الأسماء. فيقهر العقل بصولته.

والهيمان هو الحركة إلى كل جهة بسبب الحيرة والدهشة. وذلك إنما يكون مع نوع عدم تمييز. وقوة إرادة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٣٤٠

قاهرة، لا يملك صاحبها ضبطها.

وقوله: ويضربه موج الفناء.

أي إن صاحب هذا الأنس: يطالع مبادئ الفناء محيطة به. فهي تقلبه كما يقلب." [1]

"واتفق أن العارفين تكلموا في الحقائق. وأمروا بالانتقال من الرسوم والظواهر إليها، وأن لا يقف عندها. فظن هؤلاء الزنادقة: أنهم جوزوا خلعها، والانحلال منها.

ولا ريب أن من جوز ذلك: فهو مثل هؤلاء. والله يركم الخبيث بعضه على بعض. فيجعله في جهنم. أولئك هم الخاسرون.

فصاحب " المنازل ": أشار إلى المعنى الحق الصحيح. كما أشار إليه شيوخ القوم.

وأما استدلاله بقول النبي صلى الله عليه وسلم «أسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة. ولا فتنة مضلة» فليس مطابقا لما ذكره في هذه الدرجة.

فأين طلب الشوق إلى لقائه، الباعث على كمال الاستعداد، وعلى خفة أعباء السير، والمزيل لكل فتور، والحامل على كل صدق، وإخلاص وإنابة. وصحة معاملة - إلى أمر مشوب بصولة الهيمان. تضربه أمواج الفناء، بحيث غلب قوما على عقولهم، وسلب قوما صبرهم بحيث صيرهم في عالم الفناء؟ .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يكن ريسأل حالة الفناء قط. وإنما سأل شوقا موجبا للبقاء، مصاحبا له. موجبا له طيب الحياة، وقرة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح.

وصاحب " المنازل ": كأنه فهم منه اشتياقه إلى المشاهدة من غير غلبة على عقل، ولا فقد لاصطبار. ولهذا قال: من غير ضراء مضرة، وهي الغلبة على العقل. ولا فتنة مضلة، وهي مفارقة أحكام العلم.

وهذا غايته: أن يؤخذ من إشارة الحديث على عادة القوم. وأما أن يكون هو نفس المراد: فلا.

وإنما المسئول: أن يهب له شوقا إلى لقائه. مصاحبا للعافية، والهداية. فلا تصحبه فتنة ولا محنة. وهذا من أجل العطايا والمواهب. فإن كثيرا ممن يحصل له هذا لا يناله إلا بعد امتحان واختبار: هل يصلح أم لا؟ ومن لم يمتحن ولم يختبر فأكثرهم لم يؤهل لهذا.

فتضمن هذا الدعاء: حصول ذلك. والتأهيل له، مع كمال العافية بلا محنة، والهداية بلا فتنة. وبالله التوفيق. والله أعلم.." [2]

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٣٩٢

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٣٩٤

"قال الدرجة الثانية: طمأنينة الروح في القصد إلى الكشف، وفي **الشوق** إلى العدة. وفي التفرقة إلى الجمع.

طمأنينة الروح أن تطمئن في حال قصدها. ولا تلتفت إلى ما وراءها.

والمراد بالكشف: كشف الحقيقة، لا الكشف الجزئي السفلي. وهو ثلاث درجات.

كشف عن الطريق الموصل إلى المطلوب. وهو الكشف عن حقائق الإيمان. وشرائع الإسلام.

وكشف عن المطلوب المقصود بالسير: وهو معرفة الأسماء والصفات. ونوعي التوحيد وتفاصيله. ومراعاة ذلك حق رعايته.

وليس وراء ذلك إلا الدعاوى والشطح والغرور.

وقوله: وفي **الشوق** إلى العدة.

يعني أن الروح تظهر في اشتياقها إلى ما وعدت به، **وشوقت** إليه، فطمأنينتها بتلك العدة: تسكن عنها لهيب اشتياقها. وهذا شأن كل مشتاق إلى محبوب وعد بحصوله إنما يحصل لروحه الطمأنينة بسكونها إلى وعد اللقاء. وعلمها بحصول الموعود به.

قوله: وفي التفرقة إلى الجمع

أي وتطمئن الروح في حال تفرقتها إلى ما اعتادته من الجمع، بأن توافيها روحه فتسكن إليه وتطمئن به، كما يطمئن الجائع الشديد الجوع إلى ما عنده من الطعام. ويسكن إليه قلبه. وهذا إنما يكون لمن أشرف على الجمع من وراء حجاب رقيق. وشام برقه. فاطمأن بحصوله. وأما من بينه وبينه الحجب الكثيفة: فلا يطمئن به.

[فصل الدرجة الثالثة طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف]

فصل

قال: الدرجة الثالثة: طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف. وطمأنينة الجمع إلى البقاء. وطمأنينة المقام إلى نور الأزل.." (١)

"الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢/٤٨٤

واصليها. وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله – يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة –: أن المرء مع من أحب. فيا لها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويدا وتجي في الأول

أجابوا منادي **الشوق** إذ نادى بهم: حي على الفلاح. وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضا والسماح. وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي **الشوق** فاطو المراحلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن **الشوق** يكفيك حاملا

وخذ منهم زادا إليهم وسر على ... طريق الهدى والفقر تصبح واصلا

وأحي بذكراهم سراك إذا ونت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا

وخذ قبسا من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا

وحي على واد الأراك فقل به ... عساك تراهم فيه إن كنت قائلا

وإلا ففي نعمان عند معرف ال ... أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا

وإلا ففي جمع بليلته فإن ... تفت، فمتى؟ يا ويح من كان غافلا

وحي على جنات عدن بقربهم ... منازلك الأولى بها كنت نازلا

ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا ... وقفت على الأطلال تبكي المنازلا." (١)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٩

"وهذا أيضا من حقوقها وثمراتها. وموجباتها.

الرابع والعشرون: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم ... لكن سكري نشا من رؤية الساقي.

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ، التي غاية صاحبها: أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه، وقهره له. فمحبة الله أعلى وأجل من أن تضرب لها هذه الأمثال، وتجعل عرضة للأفواه المتلوثة، والألفاظ المبتدعة، ولكن الصادق في خفارة صدقه.

الخامس والعشرون: أن لا يؤثر على المحبوب غيره، وأن لا يتولى أمورك غيره.

السادس والعشرون: الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

السابع والعشرون: المحبة سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام.

قلت: أما سفر القلب في طلب المحبوب: فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره: فلا ريب أن من أحب شيئا أكثر من ذكره.

الثامن والعشرون: أن المحبة هي ما لا ينقص بالجفاء. ولا تزيد بالبر. وهو ليحيى بن معاذ، بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته، فلا ينقص ذلك جفاؤه. ولا يزيده بره.

وفي ذلك ما فيه. فإن المحبة الذاتية تزيد بالبر. ولا تنقصها زيادتها بالبر. وليس ذلك بعلة، ولكن مراد يحيى: أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية. فإذا جاء البر من محبوبه. لم يجد في القلب مكانا خاليا من حبه يشغله محبة البر. بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب. ومع هذا فلا يزيل الوهم. فإن المحبة لا نهاية لها. وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة. ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره. فلا نهاية لمحبته، بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحد منهم: كان ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله. ولهذا لا تسمى محبة العبد لربه عشقا – كما سيأتي – لأنه إفراط المحبة، والعبد لا يصل في محبة الله إلى حد الإفراط، ألبتة. والله أعلم.." (١)

"وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ [الإنسان: ٩] . وقال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ [الليل: ١٩] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/١٧

وقال تعالى: ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. .

وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن «النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنه كان يدعو: اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا. وأسألك القصد في الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد. وأسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين» .

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية لا وجه له سبحانه، ولا ينظر إليه، فضلا أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعيا يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هب أن له وجها، أفتلتذ بالنظر إليه؟

وفي الصحيح عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار» .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء." (١)

"وأصل التأله التعبد. والتعبد آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلله لمحبوبه.

ف " المحبة " حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضا، والحمد والشكر، والخوف والرجاء! ! وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين! ! فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك الزهد في الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته.

وكذلك الحياء في الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم. وأما ما لا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام الفقر فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٤

القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وحده في الحب، ولم يجد منه عوضا سواه. هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك الغنى هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك الشوق إلى الله تعالى ولقائه. فإنه لب المحبة وسرها. كما سيأتي.

فمنكر المحبة هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام. فإن الخلة كمال المحبة. وهو يتأول الخليل بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم – على قوله – لله من خليل من بر وفاجر، بل مؤمن وكافر. إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان. ولهذا ضحى خالد بن عبد الله القسري بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم، وقال في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته: أيها الناس، ضحوا. تقبل الله ضحاياكم. فإني مضح بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما. تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.." (١)

"وكيف يرد الأمس في اليوم الجديد؟ ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ [سبأ: ٥٢] ومنع مما يحبه ويرتضيه، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا حسرات ما إلى رد مثله ... سبيل ولو ردت لهان التحسر

هي الشهوات اللاء كانت تحولت ... إلى حسرات حين عز التصبر

فلو أنها ردت بصبر وقوة ... تحولن لذات وذو اللب يبصر

ويقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صعدوه إلى نحو محبوبهم، صاعدا إليه، متلبسا بمحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفسا آخر مثله. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بمحبته والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك لالتباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكته: أوجبت له ذلك لا محالة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٨

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال. تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه. فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه. فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك. فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤] ويقال للأشقياء ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ [غافر: ٧٥] .

[فصل الدرجة الثالثة غيرة العارف]

فصل

قال: الدرجة الثالثة: غيرة العارف على عين غطاها غين. وسر غشيه رين، ونفس علق برجاء، أو التفت إلى عطاء.

أي يغار على بصيرة غطاها ستر أو حجاب. فإن الغين بمنزلة الغطاء." (١)

"والحجاب. وهو غطاء رقيق جدا. وفوقه الغيم وهو لعموم المؤمنين. وفوقه الرين والران وهو للكفار.

وقوله " وسر غشيه رين " أي حجاب أغلظ من الغيم الأول.

والسر هاهنا: إما اللطيفة المدركة من الروح، وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل. فإذا غشيه رين النفس والطبيعة استغاث صاحبه، كما يستغيث المعذب في عذابه، غيرة على سره من ذلك الرين.

وقوله: ونفس علق برجاء، والتفت إلى عطاء.

يعني: أن صاحب النفس يغار على نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل، ولم يتعلق بإرادة الله ومحبته. فإن بين النفسين كما بين متعلقهما.

وكذلك قوله " أو التفت إلى عطاء " يعني: أنه يلتفت إلى عطاء من دون الله فيرضى به. ولا ينبغي أن يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلا إلى المعطي الغني الحميد. وهو الله وحده. والله أعلم.

[فصل منزلة الشوق]

[حقيقة الشوق]

فصل منزلة الشوق

ومن منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " منزلة الشوق

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥١

قال الله تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت: ٥] .

قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم. أي أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي. فقد أجلت له أجلا يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة. وكل آت قريب.

وفيه لطيفة أخرى. وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء.." [١]

"لولا التعلل بالرجاء لقطعت ... نفس المحب صبابة وتشوقا

ولقد يكاد يذوب منه قلبه ... مما يقاسي حسرة وتحرقا

حتى إذا روح الرجاء أصابه ... سكن الحريق إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في دعائه «أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك» .

قال بعضهم: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - دائم الشوق إلى لقاء الله. لم يسكن شوقه إلى لقائه قط. ولكن الشوق مائة جزء. تسعة وتسعون له. وجزء مقسوم على الأمة. فأراد - صلى الله عليه وسلم - أن يكون ذلك الجزء مضافا إلى ما له من الشوق الذي يختص به. والله سبحانه وتعالى أعلم.

[فصل الشوق أثر من آثار المحبة]

فصل

والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها. فإنه سفر القلب إلى المحبوب في كل حال.

وقيل: هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب.

وقيل: هو احتراق الأحشاء. ومنها يتهيج ويتولد، ويلهب القلوب ويقطع الأكباد.

والمحبة أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما ألقي في الجب لم يقل توفني، ولما أدخل السجن لم يقل توفني، ولما تم له الأمر والأمن والنعمة، قال: " توفني مسلما ".

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٢

قال ابن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء بالقرب.

وقيل: هو لهب ينشأ بين أثناء الحشا، يسنح عن الفرقة. فإذا وقع اللقاء طفئ.." (١)

"قلت: هذه مسألة نزاع بين المحبين. وهي: أن الشوق هل يزول باللقاء أم لا؟

ولا يختلفون أن المحبة لا تزول باللقاء.

فمنهم من قال: يزول باللقاء. لأن الشوق هو سفر القلب إلى محبوبه. فإذا قدم عليه، ووصل إليه، صار مكان الشوق قرة عينه به. وهذه القرة تجامع المحبة ولا تنافيها.

قال هؤلاء: وإذا كان الغالب على القلب مشاهدة المحبوب، لم يطرقه الشوق.

وقيل لبعضهم: هل تشتاق إليه؟ فقال: لا. إنما الشوق إلى غائب، وهو حاضر.

وقالت طائفة: بل يزيد الشوق بالقرب والوصول، ولا يزول. لأنه كان قبل الوصول على الخبر والعلم، وبعده: قد صار على العيان والشهود. ولهذا قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الخيام من الخيام.

قال الجنيد: سمعت السري يقول: الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه. وإذا تحقق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه، وعلى هذا: فأهل الجنة دائما في شوق إلى الله، مع قربهم منه، ورؤيتهم له.

قالوا: ومن الدليل على أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم: أنا نرى المحب يبكي عند لقاء محبوبه. وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه، ووجده به، ولذلك يجد عند لقائه نوعا من الشوق لم يجده في حال غيبته عنه.

[فصل الشوق يراد به حركة القلب واهتياجه للقاء المحبوب]

فصل

النزاع في هذه المسألة: أن الشوق يراد به: حركة القلب واهتياجه للقاء المحبوب. فهذا يزول باللقاء. ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه، تثيره حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب. فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٣

يزول. والعبارة عن هذا: وجوده. والإشارة إليه: حصوله.

وبعضهم سمى النوع الأول: شوقا. والثاني: اشتياقا.." (١)

"قال القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يفرق بين الشوق والاشتياق. ويقول: الشوق يسكن باللقاء. والاشتياق لا يزول باللقاء. قال: وفي معناه أنشدوا:

ما يرجعالطرف عنه عند رؤيته ... حتى يعود إليهالطرف مشتاقا

وقال النصراباذي: للخلقكلهم مقام الشوق. وليس لهم مقام الاشتياق. ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له فيه أثر ولا قرار.

قال الدقاق – في قول موسى ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤] قال: معناه شوقا إليك. فستره بلفظ الرضا.

وقيل: إن أهل الشوق إلى لقاء الله يتحسون حلاوة القرب عند وروده – لما قد كشف لهم من روح الوصول – أحلى من الشهد. فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة. وقيل: من اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء. كما قال بعضهم: أنا أدخل في الشوق والأشياء تشتاق إلي. وأتأخر عن جميعها. وفي مثل هذا قيل:

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت ... عن الماء فاشتاقت إليها المناهل

وكانت عجوز مغيبة. فقدم غائبها من السفر. ففرح به أهله وأقاربه، وقعدت هي تبكي. فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله عز وجل.

يا من شكا شوقه من طول فرقته ... اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وقيل: خرج داود عليه السلام يوما إلى الصحراء منفردا. فأوحى الله تعالى إليه: ما لي أراك منفردا؟ فقال: إلهي استأثر شوقي إلى لقائك على قلبي. فحال بيني وبين." (٢)

"صحبة الخلق. فقال: ارجع إليهم. فإنك إن أتيتني بعبد آبقأثبتك في اللوح المحفوظ جهبذا.

[فصل الشوق هبوب القلب إلى غائب]

فصل

قال صاحب المنازل رحمه الله:

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٤

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٥

الشوق: هبوب القلب إلى غائب. وفي مذهب هذه الطائفة: علة الشوق عظيمة. فإن الشوق إنما يكون إلى الغائب. ومذهب هذه الطائفة: إنما قام على المشاهدة. ولهذه العلة لم ينطق القرآن باسمه.

قلت: هوصدر الباب بقوله تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت: ٥] فكأنه جعل الرجاء شوقا بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير. أو أن دلالة الرجاء على الشوق باللزوم، لا بالتضمن ولا بالمطابقة.

قوله " هبوب القلب إلى غائب " يعني: سفره إليه، وهويه إليه.

وأما العلة التي ذكرها في الشوق: فقد تقدم أن من الناس من جعل الشوق في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب. فعلى قول هؤلاء: لا علة فيه.

وأما من جعله سفر القلب إلى المحبوب في حال غيبته ءن٥، فعلى قوله: يجيء كلام المصنف. ووجهه مفهوم.

وقوله " فإن مذهب هذه الطائفة " – الذي هو الفناء – يريد: أن الفناء إنما قام على المشاهدة. فإن بدايته – كما قرره هو – المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين. والفناء إنما يكون مع المشاهدة. ومع المشاهدة لا عمل للشوق.

فيقال: هذا باطل من وجوه.

أحدها: أن المشاهدة لا تزيل الشوق بل تزيده، كما تقدم.

الثاني: أنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة. وهم إلى يوم المزيد – وهو يوم الجمعة – أشوق شيء، كما في الحديث. وكذلك هم أشوق شيء إلى رؤية." (١)

"ربهم وسماع كلامه تعالى وهم في الجنة. فإن هذا إنما يحصل لهم في حال دون حال. كما في حديث ابن عمر المسند وغيره «إن أعلى أهل الجنة منزلة: من ينظر إلى وجه ربه كل يوم مرتين» .

ومعلوم قطعا: أن شوق هذا إلى الرؤية قبل حصولها أعظم شوق يقدر، وحصول المشاهدة لأهل الجنة أتم منها لأهل الدنيا.

الثالث: أنه لا سبيل في الدنيا إلى مشاهدة تزيل الشوق ألبتة. ومن ادعى هذا فقد كذب وافترى. فإنه لم يحصل هذا لموسى بن عمران. كليم الرحمن عز وجل، فضلا عمن دونه.

فما هذه المشاهدة التي مبنى مذهب هذه الطائفة عليها. بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمال المشاهدة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٥٦/٣

عيانا وجهرة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

أم نوع من مشاهدة القلب لمعروفه، مع اقترانها بالحجب الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله؟ فهل تمنع هذه المشاهدة الشوق إلى كمالها وتمامها؟ وهل الأمر إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة. لأن من شاهد محبوبه من بعض الوجوه. كان شوقه إلى كمال مشاهدته أشد وأعظم. وتكون تلك المشاهدة الجزئية سببا لاشتياقه إلى كمالها وتمامها. فأين العلة في الشوق؟ وأين المشاهدة المانعة من الشوق؟ وهذا بحمد الله ظاهر. ومن نازع فيه كان مكابرا. والله أعلم.." [1]

"[فصل درجات الشوق]

[الدرجة الأولى شوق العابد إلى الجنة]

فصل

قال: وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف ويفرح الحزين. ويظفر الآمل.

يعني: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل. فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه لا ينبعث صاحبه لعمل ألبتة إن لم يقارنه أمل. فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطا.

الثاني: فرح الحزين. فإن الحزن المجرد أيضا إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه. فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر. فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر مات أمله. والله أعلم.

[فصل الدرجة الثانية شوق إلى الله عز وجل]

فصل

قال: الدرجة الثانية: شوق إلى الله عز وجل زرعه الحب الذي ينبت على حافات المنن فعلق قلبه بصفاته المقدسة فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله. وهذا شوق تغشاه المبار، وتخالجه المسار، ويقاومه الاصطبار.

الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة. فإن أطيب ما في الجنة: قربه تعالى، ورؤيته، وسماع كلامه

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٧

ورضاه. نعم. الشوق إلى مجرد الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جدا، بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى. بل لا نسبة له إليه ألبتة. وهذا الشوق درجتان.

إحداهما: شوق زرعه الحب الذي سببه الإحسان والمنة. وهو الذي قال فيه: ينبت على حافات المنن. فسببه مطالعة منة الله وإحسانه ونعمه.

وقد تقدم بيان ذلك في منزلة المحبة وتبين أن محبة الأسماء والصفات." [1]

"أكمل وأقوى من محبة الإحسان والآلاء.

وفي قوله " تنبت على حافات المنن " أي جوانبه: إشارة إلى عدم تمكنها وقوتها، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن. لا من نبات الأسماء والصفات.

وقوله " فعلق قلبه بصفاته المقدسة " يعني الصفات المختصة بالمنن والإحسان. كالبر والمنان، والمحسن، والجواد، والمعطي، والغفور، ونحوها.

وقوله " المقدسة " يعني المطهرة المنزهة عن تأويل المحرفين وتشبيه الممثلين وتعطل المعطلين. وإنما قلنا: إن مراده هذه الصفات الخاصة لوجهين.

أحدهما: أن تعلق القلب بالصفات العامة: إنما يكون في الدرجة الثالثة.

الثاني: أنه جعل ثمرة هذا التعلق شوق العبد إلى معاينة لطائف كرم الرب ومننه وإحسانه وآيات بره. وهي علامات بره بالعبد وإحسانه إليه، وكذلك (أعلام فضله) وهو ما يفضل عليه به، ويفضله به على غيره.

قوله " وهذا شوق تغشاه المبار " يعني: أنه شوق معلول. ليس خالصا ںذات المحبوب. بل لما ينال منه من المبار " فقد غشيته " أي أدركته المبار.

قوله " وتخالجه المسار " أي تجاذبه. فإن المخالجة هي المجاذبة. فإذا خالط هذا الشوق الفرح: كان ممزوجا بنوع من الحظ.

وقوله " ويقاومه الاصطبار " أي أن صاحبه يقوى على الصبر، فيقاوم صبره شوقه ولا يغلبه، بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة.

[فصل الدرجة الثالثة الشوق الخالص]

فصل

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٨

قال: الدرجة الثالثة: نار أضرمها صفو المحبة، فنغصت العيش. وسلبت السلوة. ولم ينهنهها معزى دون اللقاء.

يريد: أن **الشوق** في هذه المرتبة: شبيه بالنار التي أضرمها صفو المحبة. وهو خالصها. وشبهه بالنار لالتهابه في الأحشاء.

وفي قوله " صفو المحبة " إشارة إلى أنها محبة لم تكن لأجل المنة والنعم. ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات.." [1]

"قوله " فنغصت العيش " أي منعت صاحبها السكون إلى لذيذ العيش. و " التنغيص " قريب من التكدير.

قوله " وسلبت السلوة " أي نهبت السلو وأخذته قهرا.

و " السلوة " هي الخلاص من كرب المحبة وإلقاء حملها عن الظهر. والإعراض عن المحبوب تناسيا.

وقوله " لم ينهنهها معزى دون اللقاء " أي لم يكفها ويردها قرار دون لقاء المحبوب. وهذه لا يقاومها الاصطبار. لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار.

[فصل القلق]

[حقيقة القلق]

فصل القلق

وقد يقوى هذا **الشوق**، ويتجرد عن الصبر. فيسمى قلقا وبذلك سماه صاحب المنازل، واستشهد عليه بقوله تعالى - حاكيا عن كليمه موسى صلى الله عليه وسلم - ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤]

فكأنه فهم: أن عجلته إنما حمله عليها القلق. وهو تجريد **الشوق** للقائه وميعاده.

وظاهر الآية: أن الحامل لموسى على العجلة: هو طلب رضا ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها. ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك. قال: إن رضا الرب في العجلة إلى أوامره. ثم حده صاحب المنازل بأنه تجريد **الشوق** بإسقاط الصبر أي تخلصه من كل شائبة بحيث يسقط معه الصبر، فإن قارنه اصطبار فهو **شوق**.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٥٩

[درجات القلق]

[الدرجة الأولى قلق يضيق الخلق ويبغض الخلق ويلذذ الموت]

ثم قال: وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: قلق يضيق الخلق، ويبغض الخلق. ويلذذ الموت.

يعني: يضيق خلق صاحبه عن احتمال الأغيار. فلا يبقي فيه اتساعا لحملهم، فضلا عن تقييدهم له، وتعوقه بأنفاسهم.

و " يبغض الخلق " يعني: لا شيء أبغض إلى صاحبه من اجتماعه بالخلق. لما." (١)

"[فصل منزلة الوجد]

[حقيقة الوجد]

ومن منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " منزلة الوجد

ثبت في الصحيحين من حديث أنس - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يلقى في النار» .

وقد استشهد صاحب المنازل بقوله تعالى في أهل الكهف ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا﴾ [الكهف: ١٤] وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد. فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر. فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق. وذاقوا حلاوته. وباشر قلوبهم. فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿ربنا رب السماوات والأرض﴾ [الكهف: ١٤] الآية.

والربط على قلوبهم: يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش. وفروا بدينهم إلى الكهف.

والربط على القلب: عكس الخذلان. فالخذلان حله من رباط التوفيق. فيغفل عن ذكر ربه. ويتبع هواه، ويصير أمره فرطا.

والربط على القلب: شده برباط التوفيق. فيتصل بذكر ربه. ويتبع مرضاته. ويجتمع عليه شمله. فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام الوجد.

والشيخ جعل مقام الوجد غير مقام الوجود كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فإن الوجود عند القوم هو الظفر

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٦٠

بحقيقة الشيء. والوجد هو ما يصادف القلب، ويرد عليه من واردات المحبة **والشوق**، والإجلال والتعظيم، وتوابع ذلك. والمواجيد." (١)

"عندهم فوق الوجد. فإن الوجد مصادفة. والمواجيد ثمرات الأوراد. وكلما كثرت الأوراد قويت المواجيد.

و " الوجود " عندهم فوق ذلك. وهو الظفر بحقيقة المطلوب، ولا يكون إلا بعد خمود البشرية. وانسلاخ أحكام النفس انسلاخا كليا.

قال الجنيد: علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مباين لعلمه.

ولا يريد بالمباينة: المخالفة والمناقضة. فإنه يطابقه مطابقة العلم للمعلوم.

وإنما يريد بالمباينة: أن حال الموحد وذوقه للتوحيد، وانصباغ قلبه بحاله: أمر وراء علمه به، ومعرفته به. والمباينة بينهما كالمباينة بين علم **الشوق** والتوكل والخوف ونحوها، وبين حقائقها ومواجيدها.

فالمراتب أربعة. أضعفها التواجد وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء.

واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين.

فطائفة قالت: لا يسلم لصاحبه. وينكر عليه، لما فيه من التكلف والتصنع المباين لطريق الصادقين. وبناء هذا الأمر على الصدق المحض.

وطائفة قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التشبه بأهلها. واحتجوا «بقول عمر - رضي الله عنه - وقد رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر يبكيان في شأن أسارى بدر، وما قبلوا منهم من الفداء: أخبراني ما يبكيكما؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا تباكيت» . ورووا أثرا «ابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا» .

قالوا: والتكلف والتعمل في أوائل السير والسلوك لا بد منه. إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال. ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم. والتواجد يكون بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة " والمواجيد " لمن يتأوله من أحكام باطنة.

المرتبة الثانية: المواجيد، وهي نتائج الأوراد وثمرتها.." (٢)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٦٨/٣

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٦٩/٣

"بتحصيله. وصاحب الكشف: في حضور مع مطلوبه. فكشفه صائل على همته، كما قال بعضهم: إذا برقت بارقة من بوارق الحقيقة لم يبق معها حال ولا همة.

وهذا أيضا عارض مطلوب الزوال. والبقاء معه انقطاع كلي. فإن السالك في همة، ما دامت روحه في جسده. فإذا فارقته الهمة انقطع واستحسر.

[فصل الدرجة الثانية دهشة السالك عند صولة الجمع على رسمه]

فصل

قال: الدرجة الثانية: دهشة السالك عند صولة الجمع على رسمه، والسبق على وقته، والمشاهدة على روحه الجمع عند القوم: ما أسقط التفرقة. وقطع الإشارة. وباين الكائنات. و " رسم " العبد عندهم: هو صورته الظاهرة والباطنة. فشهود الجمع: يقتضي أن يستولي على فناء تلك الرسوم فيه. فللجمع صولة على رسم السالك، يغشاه عندهم بهتة، هي الدهشة المشار إليها.

وأما صولة السبق على وقته فالسبق: هو الأزل. وهو سابق على وقت السالك. وإنما صال الأزل على وقته: لأن وقته حادث فان. فهو يرى فناءه في بقاء الأزل وسبقه، فيغلبه شهود السبق، ويقهره على شهود وقته، فلا يتسع له.

وأما صولة المشاهدة على روحه فلما كانت المشاهدة تعلق إدراك الروح بشهود الحق تعالى، فهي شهود الحق بالحق - كما قال تعالى في الحديث القدسي «فبي يسمع، وبي يبصر» - اقتضى هذا الشهود صولة على الروح. فحيث صار الحكم له دونها: انطوى حكم الشاهد في شهوده. وقد عرفت ما في ذلك فيما تقدم.

[الدرجة الثالثة دهشة المحب عند صولة الاتصال على لطف العطية]

قال: الدرجة الثالثة: دهشة المحب عند صولة الاتصال على لطف العطية، وصولة نور القرب على نور العطف، وصولة شوق العيان على شوق الخبر.

الاتصال عنده على ثلاثة مراتب: اتصال الاعتصام، واتصال الشهود، واتصال الوجود، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله. وبيان ما فيه من حق وباطل، يجل عنه جناب الحق تعالى.." (١)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٧٧

"و " العطية " هاهنا: هي الواردات التي ترد في لطف وخفاء على قلب العبد من قبل الحق تعالى. وهي ألطاف يعامل المحبوب بها محبه، وتوجب قربا خالصا هو المسمى بالاتصال. فيصول ذلك القرب على لطف العطية. فيغيب العبد عنها وعن شهودها. وينسيه إياها. لما أوجبه له ذلك القرب من الدهش. وقد يكون سبب ذلك: تواتر أنواع العطايا عليه، حتى يدهشه كثرتها وتنوعها. فتوجب له كثرتها دهشة، تمنعه من مطالعتها، مع انضمام ذلك إلى صولة القرب. وهي واردات وأنوار يتصل بعضها ببعض. تمحو ظلم نفسه ورسمه.

وأما صولة نور القرب على نور العطف فهو قريب من هذا. أو هو بعينه وإنما كرر المعنى بلفظ آخر. فإن لطف العطية كله نور عطف، والاتصال هو القرب نفسه. تعالى الله عن غير ذلك من اتصال يتوهمه ملاحدة الطريق وزنادقتهم.

وأما صولة شوق العيان على شوق الخبر.

فمراده بها: أن المريد في أول الأمر سالك على شوق الخبر في مقام الإيمان. فإذا ترقى عنه إلى مقام الإحسان، وتمكن منه: بقي شوقه بشوق العيان. فصال هذا الشوق على الشوق الأول. فإن كان هذا مراده، وإلا فالعيان في الدنيا لا سبيل للبشر إليه ألبتة.

ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله: أن يكون ملبوسا عليه وليس فوق الإحسان للصديقين مرتبة إلا بقاؤهم فيه. فإن سمي ذلك عيانا فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها أولى وأحرى.

وأكثر آفات الناس من الألفاظ. ولا سيما في هذه المواضع التي يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه، والتعبير المطابق، فيتولد من ضعف التصور، وقصور التعبير: نوع تخبيط. ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم، بحسب قصورهم، وبعدهم من العلم. فتفاقم الخطب، وعظم الأمر. والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة الملحدين. وعز المفرق بينهما. فدخل على الدين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله. وأشير إلى أعظم الخلق كفرا بالله عز وجل وإلحادا في دينه: بأنه من شيوخ التحقيق والمعرفة والسلوك.

ولولا ضمان الله بحفظ دينه، وتكفله بأن يقيم له من يجدد أعلامه، ويحيي منه ما أماته المبطلون. وينعش ما أخمله الجاهلون: لهدمت أركانه، وتداعى بنيانه، ولكن الله ذو فضل على العالمين.." (١)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٧٨/٣

"قوله: " وتفيد مطالعة البدايات " يحتمل كلامه أمرين.

أحدهما: أن ملاحظة عين الجمع: تفيد صاحبها مطالعة السوابق التي ابتدأه الله بها. فتفيده ملاحظة عين الجمع نظرة إلى أولية الرب تعالى في كل شيء.

ويحتمل أن يريد بالبدايات: بدايات سلوكه، وحدة طلبه. فإنه في حال سلوكه لا يلتفت إلى ما وراءه، لشدة شغله بما بين يديه. وغلبة أحكام الهمة عليه. فلا يتفرغ لمطالعة بداياته. فإذا لاحظ عين الجمع: قطع السلوك الأول. وبقي له سلوك ثان. فتفرغ حينئذ إلى مطالعة بداياته. ووجد اشتياقا منه إليها، كما قال الجنيد: **واشوقاه** إلى أوقات البداية.

يعني: لذة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطلب، والسير إلى الله. فإنه كان مجموع الهمة على السير والطلب. فلما لاحظ عين الجمع فنيت رسومه، وهو لا يمكنه الفناء عن بشريته، وأحكام طبيعته. فتقاضت طباعه ما فيها. فلزمته الكلف. فارتاح إلى أوقات البدايات، لما كان فيها من لذة الإعراض عن الخلق، واجتماع الهمة.

ومر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه على رجل، وهو يبكي من خشية الله. فقال: هكذا كنا حتى قست قلوبنا.

وقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – «إن لكل عامل شرة. ولكل شرة فترة» .

فالطالب الجاد: لا بد أن تعرض له فترة. فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

«ولما فتر الوحي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يغدو إلى شواهق الجبال ليلقي نفسه. فيبدو له جبريل عليه السلام، فيقول له: إنك رسول الله. فيسكن لذلك جأشه، وتطمئن نفسه» .." [١]

"صدق خوف. أو لتلهب **شوق** جذبه اشتعال محبة.

وجه استشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه. فإن العرب تقول: جاء فلان على قدر. إذا جاء وقت الحاجة إليه. قال جرير:

نال الخلافة إذ كانت على قدر ... كما أتى ربه موسى على قدر

وقال مجاهد: على موعد. وهذا فيه نظر. لأنه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء، حتى يقال: إنه أتى على ذلك الموعد.

ولكن وجه هذا: أن المعنى: جئت على الموعد الذي وعدنا أن ننجزه، والقدر الذي قدرنا أن يكون في

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/١٢١

وقته، وهذا كقوله تعالى ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا - ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨] لأن الله سبحانه وتعالى وعد بإرسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورا وهدى. فلما سمعوا القرآن: علموا أن الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به. واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم. لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الأوقات بوقوعه فيه: كان أحسن وأنفع وأجدى. كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه. وكما إذا وقع الفرج في الوقت الذي يليق به.

ومن تأمل أقدار الرب تعالى، وجريانها في الخلق: علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها.

فبعث الله سبحانه موسى: أحوج ما كان الناس إلى بعثته. وبعث عيسى كذلك. وبعث محمدا صلى الله عليه وعليهم أجمعين: أحوج ما كان أهل الأرض إلى إرساله. فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء له: أحوج ما كان إلى عمارته.

قوله " الوقت: ظرف الكون " الوقت: عبارة عن مقاربة حادث لحادث عند." (١)

"إن للعاشقين عن قصر اللي

ل، وعن طوله من العشق شغلا

قال الجنيد: دخلت على السري يوما. فقلت له: كيف أصبحت؟ فأنشأ يقول:

ما في النهار ولا في الليل لي فرج ... فلا أبالي أطال الليل أم قصرا

ثم قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار.

يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات. بل هو مع الذي قدر الليل والنهار.

[فصل معاني الوقت]

[المعنى الأول وقت وجد صادق]

فصل

قال صاحب المنازل:

الوقت: اسم في هذا الباب لثلاث معان. المعنى الأول: حين وجد صادق. أي وقت وجد صادق، أي زمن من وجد يقوم بقلبه، وهو صادق فيه، غير متكلف له، ولا متعمل في تحصيله.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/١٢٣

" يكون متعلقه إيناس ضياء فضل " أي رؤية ذلك، والإيناس الرؤية. قال الله تعالى ﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا﴾ [القصص: ٢٩] وليس هو مجرد الرؤية. بل رؤية ما يأنس به القلب، ويسكن إليه. ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفا آنسه.

ومقصوده: أن هذا الوقت وقت وجد، صاحبه صادق فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومنته عليه. والفضل هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه. فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه: أثار ذلك فيه وجدا آخر، باعثا على محبة صاحب الفضل والشوق إلى لقائه، فإن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

ودخلت يوما على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجد أبكاه. فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما من الله به علي من السنة ومعرفتها، والتخلص من شبه القوم وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفطرة السليمة، لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. فسرني ذلك حتى أبكاني.

فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومنته.

قوله " جذبه صفاء رجاء " أي جذب ذلك الوجد – أو الإيناس، أو الفضل – رجاء." [(١)]

"صاف غير مكدر. والرجاء الصافي هو الذي لا يشوبه كدر توهم معاوضة منك، وأن عملك هو الذي بعثك على الرجاء. فصفاء الرجاء يخرجه عن ذلك. بل يكون رجاء محضا لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك. والفضل كله له ومنه، وفي يده – أسبابه وغاياته، ووسائله، وشروطه، وصرف موانعه – كلها بيد الله. لا يستطيع العبد أن ينال منه شيئا بدون توفيقه، وإذنه ومشيئته.

وملخص ذلك: أن الوقت في هذه الدرجة الأولى: عبارة عن وجد صادق، سببه رؤية فضل الله على عبده. لأن رجاءه كان صافيا من الأكدار.

قوله " أو لعصمة جذبها صدق خوف " اللام في قوله " أو لعصمة " معطوف على اللام في قوله " أو لإيناس ضياء فضل " أي وجد لعصمة جذبها صدق خوف. فاللام ليست للتعليل. بل هي على حدها في قولك: ذوق لكذا، ورؤية لكذا. فمتعلق الوجد عصمة وهي منعة وحفظ ظاهر وباطن. جذبها صدق خوف من الرب سبحانه.

والفرق بين الوجد في هذه الدرجة والتي قبلها: أن الوجد في الأولى: جذبه صدق الرجاء. وفي الثانية: جذبه صدق الخوف. وفي الثالثة – التي ستذكر – جذبه صدق الحب. فهو معنى قوله: أو لتلهب شوق

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/١٢٧

جذبه اشتعال محبة.

وخدمته التورية في اللهيب والاشتعال. والمحبة متى قويت اشتعلت نارها في القلب. فحدث عنها لهيب الاشتياق إلى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة، التي تضمنتها هذه الدرجة – وهي: الحب والخوف والرجاء – هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السلوك، والسير إلى الله. وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية. وعليها دارت رحى الأعمال. والله أعلم.

[فصل المعنى الثاني اسم لطريق سالك]

فصل

قال: والمعنى الثاني: اسم لطريق سالك. يسير بين تمكن وتلون، لكنه إلى التمكن ما هو. يسلك الحال، ويلتفت إلى العلم. فالعلم يشغله في حين، والحال." (١)

"فكان حال اشتغال حب وشوق، ولذة مناجاة، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم. وحظه من أثره.

فإن الودود – وإن كان بمعنى المودود، كما قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب – واستغراق العبد في مطالعة صفات الكمال التي تدعو العبد إلى حب الموصوف بها: أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها: ما ذكره الشيخ من هذه الأمور الثلاثة وغيرها.

وكذلك إن كان اسم فاعل بمعنى الواد وهو المحب: أثمرت له مطالعة ذلك حالا تناسبه.

فإنه إذا شاهد بقلبه غنيا كريما جوادا، عزيزا قادرا، كل أحد محتاج إليه بالذات. وهو غني بالذات عن كل ما سواه. وهو – مع ذلك – يود عباده ويحبهم، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم وتفضله عليهم –: كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات. فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها وخلوصها من دم التعطيل وفرث التمثيل. فتخرج المعرفة من بين ذلك فطرة خالصة سائغة للعارفين. كما يخرج اللبن من بين فرث ودم لبنا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٢٨/٣

خالصا سائغا للشاربين.
والأمر الثالث: قوله " وينسى به الكون " أي ينسى الكون بما يغلب على قلبه من اشتغاله بهذه الحال المذكورة. والمراد بالكون: المخلوقات. أي يشتغل بالحق عن الخلق.

[فصل الدرجة الثالثة صفاء اتصال]

فصل

قال: الدرجة الثالثة: صفاء اتصال. يدرج حظ العبودية في حق الربوبية. ويغرق نهايات الخبر في بدايات العيان، ويطوي خسة التكاليف في عين الأزل.
في هذا اللفظ قلق وسوء تعبير. يجبره حسن حال صاحبه وصدقه، وتعظيمه لله ورسوله. ولكن أبى الله أن يكون الكمال إلا له. ولا ريب أن بين أرباب الأحوال وبين أصحاب التمكن تفاوتا عظيما. وانظر إلى غلبة الحال على الكليم عليه السلام، لما شاهد آثار التجلي الإلهي على الجبل، كيف خر صعقا؟ وصاحب التمكن - صلوات." (١)

"وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ [المائدة: ١٥] .
وقال تعالى: ﴿ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [النساء: ١٧٤] وقال تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢] . فجعله روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. ونورا لما يحصل به من الهدى والرشاد.
ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿كمشكاة فيها مصباح - المصباح في زجاجة - الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار - نور على نور - يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور: ٣٥] ومثل حال من فقد هذا النور: بمن هو في ﴿ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ [النور: ٤٠] .

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٤٢/٣

الحزن الثالث: حزن بعثته وحشة التفرق. وهو تفرق الهم والقلب عن الله عز وجل. ولهذا التفرق حزن ممض على فوات جمعية القلب على الله ولذاتها ونعيمها، فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، **وشوقه** إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك. ولله در القائل:

أيا صاحبي أما ترى نارهم ... فقال: تريني ما لا أرى

سقاك الغرام ولم يسقني ... فأبصرت ما لم أكن مبصرا

فلو لم يكن في التفرق المذكور إلا ألم الوحشة، ونكد التشتت، وغبار الشعث." (١)

"وأيضا ليتزايد طلبه، ويقوى **شوقه**، فإنه لو دامت له تلك الحال لألفها واعتادها، ولم يقع منه موقع الماء من ذي الغلة الصادي، ولا موقع الأمن من الخائف، ولا موقع الوصال من المهجور، فالرب سبحانه واراها عنه ليكمل فرحه ولذته وسروره بها.

وأيضا فليعرفه سبحانه قدر نعمته بما أعطاه وخلع عليه، فإنه لما ذاق مرارة الفقد عرف حلاوة الوجود، فإن الأشياء تتبين بأضدادها.

وأيضا فليعرفه فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، وأنه غير مستغن عن فضله وبره طرفة عين، وأنه إن انقطع عنه إمداده فسد بالكلية.

وأيضا فليعرفه أن ذلك الفضل والعطاء ليس لسبب من العبد، وأنه عاجز عن تحصيلها بكسب واختيار، وأنها مجرد موهبة وصدقة تصدق الله بها عليه لا يبلغها عمله ولا ينالها سعيه.

وأيضا فليعرفه عزه في منعه، وبره في عطائه، وكرمه وجوده في عوده عليه بما حجب عنه، فينفتح على قلبه من معرفة الأسماء والصفات بسبب هذا الاستتار والكشف بعده أمور غريبة عجيبة، يعرفها الذائق لها، وينكرها من ليس من أهلها.

وأيضا فإن الطبيعة والنفس لم يموتا، ولم يعدما بالكلية، ولولا ذلك لما قام سوق الامتحان والتكليف في هذا العالم، بل قهرا بسلطان العلم والمعرفة والإيمان والمحبة، والمقهور المغلوب لا بد أن يتحرك أحيانا وإن قلت ولكن حركة أسير مقهور بعد أن كانت حركته حركة أمير مسلط.

فمن تمام إحسان الرب إلى عبده، وتعريفه قدر نعمته أن أراه في الأعيان ما كان حاكما عليه قاهرا له، وقد تقاضى ما كان يتقاضاه منه أولا، فحينئذ يستغيث العبد بربه ووليه ومالك أمره كله: يا مقلب القلوب ثبت

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/١٥٥

قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك.
وأيضا فإنه يزيل من قلبه آفة الركون إلى نفسه، أو عمله أو حاله، كما قيل: إن ركنت إلى العلم أنسيناكه، وإن ركنت إلى الحال: سلبناك إياه، وإن ركنت إلى المعرفة: حجبناها عنك، وإن ركنت إلى قلبك: أفسدناه عليك، فلا يركن العبد إلى شيء سوى الله ألبتة، ومتى وجد قلبه ركونا إلى غيره: فليعلم أنه قد أحيل على مفلس، بل معدم، وأنه قد فتح له الباب مكرا، فليحذر ولوجه، والله المستعان.." (١)

"كذب ونفاق، فإن صفات هؤلاء وأحوالهم تنافي صفات من هم بين أظهرهم، فمثل هؤلاء بين أولئك كمثل الطير الغريب بين الطيور، والكلب الغريب بين الكلاب.
والصديق هو الذي صدق في قوله وفعله، وصدق الحق بقوله وعمله، فقد انجذبت قواه كلها للانقياد لله ولرسوله، عكس المنافق الذي ظاهره خلاف باطنه وقوله خلاف عمله.

[فصل الدرجة الثالثة غربة الهمة]

فصل

قال: الدرجة الثالثة: غربة الهمة، وهي غربة طلب الحق، وهي غربة العارف؛ لأن العارف في شاهده غريب، ومصحوبه في شاهده غريب، وموجوده لا يحمله علم أو يظهره وجد، أو يقوم به رسم، أو تطيقه إشارة، أو يشمله اسم غريب، فغربة العارف غربة الغربة؛ لأنه غريب الدنيا والآخرة.
إنما كانت هذه الدرجة أعلى مما قبلها؛ لأن الغربة الأولى غربة بالأبدان. والثانية: غربة بالأفعال والأحوال. وهذه الثالثة: غربة بالهمم. فإن همة العارف حائمة حول معروفه، فهو غريب في أبناء الآخرة، فضلا عن أبناء الدنيا، كما أن طالب الآخرة غريب في أبناء الدنيا.
قوله: " لأن العارف في شاهده غريب " شاهد العارف: هو الذي يشهد عنده وله بصحة ما وجد وأنه كما وجد، وبثبوت ما عرف وأنه كما عرف.
وهذا الشاهد: أمر يجده من قلبه، وهو قربه من الله، وأنسه به، وشدة شوقه إلى لقائه وفرحه به، فهذا شاهده في سره وقلبه.
وله شاهد في حاله وعمله، يصدق هذا الشاهد الذي في قلبه.
وله شاهد في قلوب الصادقين، يصدق هذين الشاهدين، فإن قلوب الصادقين لا تشهد بالزور ألبتة، فإذا

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٧٩/٣

أخفي عليك شأنك وحالك، فاسأل عنك قلوب الصادقين؛ فإنها تخبرك عن حالك.

قوله: " ومصحوبه في شاهده غريب " مصحوبه في شاهده؛ هو الذي يصحبه فيه من العلم والعمل والحال، وهو غريب بالنسبة إلى غيره ممن لم يطق طعم هذا الشأن، بل هو في واد وأهله في واد.." (١)

"أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها، وهذه العزة مستلزمة للوحدانية، إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيره له في شيء منها.

فالروح تعاين بقوة معرفتها وإيمانها بهاء العزة وجلالها وعظمتها، وهذه المعاينة هي نتيجة العقيدة الصحيحة المطابقة للحق في نفس الأمر، المتلقاة من مشكاة الوحي، فلا يطمع فيها واقف مع أقيسة المتفلسفين، وجدل المتكلمين، وخيالات المتصوفين.

قوله: وتجذب القلوب إلى فناء الحضرة، هو بكسر الفاء؛ أي: جانب الحضرة، يعني: أن الأرواح لقوة طلبها، وشدة شوقها تسوق القلوب وتجذبها إلى هناك، فإن طلب الروح وسيرها أقوى من طلب القلب وسيره، كما كانت معاينتها أتم من معاينته.

وبالجملة: فأحكام الروح عندهم فوق أحكام القلب، وأخص منها.

والمقصود: أن الروح متى عايںت الحق جذبت القوى كلها والقلب إلى حضرته، فينقاد معها انقيادا بلا استعصاء، بخلاف جذب القلب، فإن الجوارح قد تستعصي عليه بعض الاستعصاء، وتأبى شيئا من الإباء، وأما جذب الروح: فلا استعصاء معه ولا إباء، وبالله التوفيق.

[فصل الحياة]

[حقيقة الحياة]

فصل الحياة

قال صاحب المنازل:

(باب الحياة) قال الله تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدا، فإن المراد بها: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ١٩٣/٣

وعبادته وحده لا شريك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، وقال تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ [النمل: ٨٠]." (١)

"على حياتك، وأنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، وتهتدي إليه طريقا يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها، فيفدى من أسرها، ويصير طليقا، فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليا

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه، وطلبه **والشوق** إليه.

فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديا إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها، وحظه المختص به منها من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، وشاهد حظه من الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك انفتح في قلبه عين أخرى، يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئي لعينه، فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعود الأمور إليه،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٤٢/٣

وعرضها عليه.

فيشاهد قلبه ربا قاهرا فوق عباده، آمرا ناهيا، باعثا لرسله، منزلا لكتبه، معبودا." (١)

"الحب، وبذل الجهد في امتثال الأمر، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته، وآثار صفاته وأسمائه، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانا، ويبدو أحيانا، يبدو من عين الجود، ويتوارى بحكم الفترة، والفترات أمر لازم للعبد، فكل عامل له شرة، ولكل شرة فترة، فأعلاها فترة الوحي؛ وهي للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين، وفترة العمل للعابدين، وفي هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة، وتجديد **الشوق** إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له، بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحا وتنفيسا عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفا على مزيد محبته، وأسباب قوتها، فهو يعمل على هذا، ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له، فيعمل على حصول ذلك، ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه ألبتة، بل يندرج في هذا الطلب الثاني، فتتعلق همته بالأمرين جميعا، فإنه إنما يحصل له منزلة "كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به " بهذا الأمر الثاني، وهو كونه محبوبا لحبيبه، كما قال في الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره» إلخ، فهو يتقرب إلى ربه حفظا لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يشد مئزر الجد في طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه، فقلبه؛ للمحبة والإنابة والتوكل والخوف والرجاء، ولسانه؛ للذكر وتلاوة كلام حبيبه، وجوارحه: للطاعات، فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضي إلى هذه الغاية التي لا تنال إلا به، ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب، وهذه الطريق، وحينئذ تجمع له في سيره جميع متفرقات السلوك من الحضور والهيبة والمراقبة ونفي الخواطر وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع أولا في التقربات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب؛ من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٥١

والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح والجود في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالا لا تكلفا، فإذا وجد المحب." (١)

"الفاني المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص، رغبة عن هذه الحياة، وشوقا إلى ذلك الملكوت، ووجدا بهذا السرور، وطربا على هذا الحد، واشتياقا لهذا النسيم الوارد من محل النعيم المقيم.

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخصب والأمن والسرور صبر في طريقه على كل مشقة وإعواز وجدب، وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذا نادى به حي على الفلاح، وبذل نفسه في الوصول بذل المحب بالرضا والسماح، وواصل السير بالغدو والرواح، فحمد عند الوصول مسراه، وإنما يحمد المسافر السرى عند الصباح.

عند الصباح يحمد القوم السرى ... وفي الممات يحمد القوم اللقا

وما هذا والله بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾ [يونس: ٤٥] ، ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات: ٤٦] ، ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ [الروم: ٥٥] ، ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين - قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين - قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] فلو أن أحدنا يجر على وجهه يتقي به الشوك والحجارة إلى هذه الحياة لم يكن ذلك كثيرا ولا غبنا في جنب ما يوقاه.

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ما هما عليه، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى، وما ذاك إلا بتوفيق من أزمة الأمور بيديه، ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار، وجذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى، وأقامهم في الطريق، وسهل عليهم ركوب الأخطار، فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعقدت الغبرة وثار العجاج، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون.." (٢)

"ولن يجمع الله بين الموحدين له الطالبين لمرضاته، الساعين في طاعته، الدائبين في خدمته، المجاهدين في سبيله وبين الملحدين - الساعين في مساخطه، الدائبين في معصيته، المستفرغين جهدهم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٥٣/٣

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٥٨/٣

في أهوائهم وشهواتهم – في دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور، كما جمع بينهما في هذه الدنيا، ويجمع بينهم في موقف القيامة، فحاشاه من هذا الظن السيئ الذي لا يليق بكماله وحكمته.

فصل

وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة، فليس العمل على الطلل إنما الشأن في الساكن، قال الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩] ، وقال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ [البقرة: ١٥٤] وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل:

فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال ساري

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها، والله المستعان.

فصل

المرتبة العاشرة من مراتب الحياة

الحياة الدائمة الباقية بعد طي هذا العالم، وذهاب الدنيا وأهلها في دار الحيوان، وهي الحياة التي شمر إليها المشمرون، وسابق إليها المتسابقون، ونافس فيها المتنافسون، وهي التي أجرينا الكلام إليها، ونادت الكتب السماوية ورسل الله." (١)

"وبالجملة: فإذا قوي الإيمان قوي الشوق إلى هذه الحياة، واشتد طلب صاحبه لها.

السبب الثاني: جثوم الغفلة على القلب، فإن الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيرا من الأيقاظ في الحس نياما في الواقع، فتحسبهم أيقاظا وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم، فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن، وكمال هذه الحياة كان لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٦٤

فالغفلة واليقظة يكونان في الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه، وكما أن يقظة الحس على نوعين، فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأول من يقظة الحس: أن صاحبها ينفذ في الأمور الحسية، ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه.

والنوع الثاني: أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته، فيعتني بتحصيل كماله، فيلحظ عوالي الأمور وسفسافها، فيؤثر الأعلى على الأدنى، ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما، ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما، ويتحلى بمكارم الأخلاق ومعالي الشيم، فيكون ظاهره جميلا، وباطنه أجمل من ظاهره، وسريرته خيرا من علانيته، فيزاحم أصحاب المعالي عليها كما يتزاحم أهل الدينار والدرهم عليهما، فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.

أحدهما: يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية التي لا خطر لها من هذه الحياة الزائلة الفانية، التي لا قيمة لها.

فإن قلت: مثل لي كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية؟ وكيف يكون هذا؟ فإني لا أفهمه.

قلت: وهذا أيضا من نوم القلب بل من موته، وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على." [١]

"المتضمنة للإعراض عن التوجه إليه، واجتماع القلب عليه هي مرضه إن لم يمت منها.

قال: ولهذه الحياة ثلاثة أنفاس، نفس الاضطرار؛ وذلك لانقطاع أمله مما سوى الله، فيضطر حينئذ بقلبه وروحه ونفسه وبدنه إلى ربه ضرورة تامة، بحيث يجد في كل منبت شعرة منه فاقة تامة إلى ربه ومعبوده، فهذا النفس نفس مضطر إلى ما لا غنى له عنه طرفة عين، وضرورته إليه من جهة كونه ربه، وخالقه وفاطره وناصره، وحافظه ومعينه ورازقه، وهاديه ومعافيه، والقائم بجميع مصالحه، ومن جهة كونه معبوده وإلهه، وحبيبه الذي لا تكمل حياته ولا تنفع إلا بأن يكون هو وحده أحب شيء إليه، **وأشوق** شيء إليه، وهذا الاضطرار هو اضطرار " إياك نعبد " والاضطرار الأول: اضطرار " إياك نستعين ".

ولعمر الله إن نفس الافتقار هو هذا النفس، أو من نوعه، ولكن الشيخ جعلهما نفسين، فجعل نفس الاضطرار بداية، ونفس الافتقار توسطا، ونفس الافتخار نهاية، وكأن نفس الاضطرار يقطع الخلق من قلبه، ونفس الافتقار يعلق قلبه بربه.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٦٦

والتحقيق: أنه نفس واحد ممتد، أوله انقطاع، وآخره اتصال.
وأما نفس الافتخار فهو نتيجة هذين النفسين؛ لأنهما إذا صحا للعبد حصل له القرب من ربه، والأنس به، والفرح به، وبالخلع التي خلعها ربه على قلبه وروحه مما لا يقوم لبعضه ممالك الدنيا بحذافيرها، فحينئذ يتنفس نفسا آخر، يجد به من التفريج والترويح والراحة والانشراح ما يشبه من بعض الوجوه بنفس من جعل في عنقه حبل ليخنق به حتى يموت، ثم كشف عنه وقد حبس نفسه، فتنفس نفس من أعيدت عليه حياته، وتخلص من أسباب الموت.
فإن قلت: ما للعبد والافتخار؟ وأين العبودية من نفس الافتخار؟
قلت: لا يريد بذلك أن العبد يفتخر بذلك، ويختال على بني جنسه، بل هو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن نفسه بما فتح عليه ربه، ومنحه إياه، وخصه به، وأولى ما فرح به العبد فضل ربه عليه؛ فإنه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويحب الفرح بذلك؛ لأنه من الشكر، ومن لا يفرح بنعمة المنعم لا يعد شكورا، فهو افتخار بما هو محض منة الله ونعمته على عبده، لا افتخار بما من العبد، فهذا هو الذي ينافي العبودية لا ذاك.." (١)

"عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب، وهي سعة الصدر، ودوام البشر، وحسن الخلق، والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه، والمزاح بالحق مع الصغير والكبير أحيانا، وإجابة الدعوة، ولين الجانب حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه، وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجبا، أو مستحبا، أو مباحا يعين عليهما.
قوله: فطائفة بسطت رحمة للخلق، يباسطونهم ويلابسونهم، فيستضيئون بنورهم، والحقائق مجموعة، والسرائر مصونة.
جعل الله انبساطهم مع الخلق رحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالرب سبحانه بسط هؤلاء مع خلقه؛ ليقتدي بهم السالك، ويهتدي بهم الحيران، ويشفى بهم العليل، ويستضاء بنور هدايتهم ونصحهم ومعرفتهم في ظلمات دياجي الطبع والهوى، فالسالكون يقتدون بهم إذا سكتوا، وينتفعون بكلماتهم إذا نطقوا، فإن حركاتهم وسكونهم لما كانت بالله ولله وعلى أمر الله جذبت قلوب الصادقين إليهم، وهذا النور الذي أضاء على الناس منهم هو نور العلم والمعرفة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٧٠/٣

والعلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل وورثة الأنبياء، وعالم استنار بنوره، ولم يستتر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرا على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما، وعالم لم يستتر بنوره ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم.

قوله: " والحقائق مجموعة، والسرائر مصونة " أي: انبسطوا والحقائق التي في سرائرهم مجموعة في بواطنهم، فالانبساط لم يشتت قلوبهم، ولم يفرق هممهم، ولم يحل عقد عزائمهم.

قوله: " وسرائرهم مصونة " مستورة لم يكشفوها لمن انبسطوا إليه، وإن كان البسط يقتضي الإلف، واطلاع كل من المتباسطين على سر صاحبه، فإياك ثم إياك أن تطلع من باسطته على سرك مع الله، ولكن اجذبه وشوقه، واحفظ وديعة الله عندك، لا تعرضها للاسترجاع.." [١]

"[فصل أسباب السكر]

فصل

ومن أسباب السكر: حب الصور وغيرها، سواء كانت مباحة أو محرمة، فإن الحب إذا استحكم وقوي أسكر صاحبه، وهذا مشهور في أشعارهم وكلامهم، كما قال الشاعر:

سكران: سكر هوى وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران

وقال آخر من أبيات:

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها ... خمرا فما لك من سكرين من بد

لي سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وفي المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم «حبك الشيء يعمي ويصم» أي: يعمي عن رؤية مساوئ المحبوب، ويصم عن سماع العذل واللوم فيه، وإذا تمكن واستمكن أعمى قلبه وأصمه بالكلية، وهذا أبلغ من السكر، فإذا انضم إلى سكر المحبة فرحة الوصال قوي السكر وتضاعف، فيخرج صاحبه عن حكم العقل وهو لا يشعر، وأكثر ما نرى من عربدة العاشق وتخليطه هو من هذا السكر، ولكن لما ألف الناس ذلك، واشتركوا فيه لم ينكروه، وإنما ينكره من كان خارجا عنه، فإذا أفاقوا بين الأموات علموا أنهم حينئذ كانوا في سكرتهم يعمهون.

فصل

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٨٢

ومن أقوى أسباب السكر، الموجبة له سماع الأصوات المطربة، لا سيما إن كانت من صورة مستحسنة، وصادفت محلا قابلا، فلا تسأل عن سكر السامع، وهذا السكر يحدث عندها من جهتين:

إحداهما: أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل.

الثانية: أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته، كائنا من كان، فيحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التخيل للمحبوب، وإحضاره في النفس، وإدناء صورته إلى القلب، واستيلائها على الفكر لذة عظيمة تقهر العقل، فتجتمع لذة الألحان." (١)

"والحاصل: أن الفناء استغراق محض، والسكر معه لذة وطرب لا يتمالك صاحبها، ولا يقدر أن يفنى عنها.

والمقصود: أن السكر ليس من أعلى مقامات العارفين الواصلين؛ لأن أعلى مقاماتهم هو الفناء عنده، فمقامهم لا يقبل السكر.

قوله: " ومنازل العلم لا تبلغه " صحيح، فإن علم المحبة والشوق والعشق شيء وحال المحبة شيء آخر، والسكر لا ينشأ عن علم المحبة، وإنما ينشأ عن حالها، فكأنه يقول: السكر صفة وحالة نقص لمن مقامه فوق مقام العلم، ودون مقام الشهود والفناء، وهو مختص بالمحبة؛ لأن المحبة هي آخر منزلة يلتقي فيها مقدمة العامة وهم أهل طور العلم وساقة الخاصة وهم أهل طور الشهود والفناء فالبرزخ الحاصل بين المقامين: هو مقام المحبة، فاختص به السكر.

[فصل علامات السكر]

فصل

قال: وللسكر ثلاث علامات: الضيق عن الاشتغال بالخبر، والتعظيم قائم. واقتحام لجة الشوق، والتمكن دائم. والغرق في بحر السرور، وار صبر هائم.

يريد: أن المحب تشغله شدة وجده بالمحبوب، وحضور قلبه معه، وذوبان جوارحه من شدة الحب عن سماع الخبر عنه، وهذا الكلام ليس على إطلاقه، فإن المحب الصادق أحب شيء إليه الخبر عن محبوبه وذكره، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله، وقال بعض العارفين: كيف يشبعون من كلام محبوبهم، وهو غاية مطلوبهم؟

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٨٩

والذي يريده الشيخ وأمثاله بهذا: أن المحب الصادق يمتلئ قلبه بالمحبة، فتكون هي الغالبة عليه، فتحمله غلبتها وتمكنها على أن لا يغفل عن محبوبه، ولا يشتغل قلبه بغيره ألبتة، فيسمع من الفارغين ما ورد في حق المحبين، ويسمع منهم أوصاف حبيبه والخبر عنه، فلا يكاد يصبر على أن يسمع ذلك أبدا، لضيق قلبه عن سماعه من قلب غافل، وإلا فلو سمع هذا الخبر ممن هو شريكه في شجوه وأنيسه في طريقه، وصاحبه في سفره لما ضاق عنه، بل لاتسع له غاية الاتساع فهذا وجه.

ووجه ثان وهو: أن السكران بالمحبة قد امتلأ قلبه بمشاهدة المحبوب،." [1]

"فاجتمعت قوى قلبه وهمه وإرادته عليه، ومعاني الخبر فيها كثرة، وانتقال من معنى إلى معنى، فقلبه يضيق في هذه الحال عنها حتى إذا صحا اتسع قلبه لها.

قوله: " والتعظيم قائم " أي: ضيق قلبه عن اشتغاله بالخبر ليس اطراحا له ورغبة عنه، وكيف؟ وهو خبر عن محبوبه واردا منه؟ بل لضيقه في تلك الحال عن الاشتغال به، وتعظيمه قائم في قلبه، فهو مشغول بوجده وحاله عما يفرقه عنه، وهذا يحسن إذا كان المشتغل به أحب إلى حبيبه من المشتغل عنه، فأما إذا كان ما أعرض عنه أحب إلى الحبيب مما اشتغل به فشرع المحبة يوجب عليه إيثار أعظم المحبوبين إلى حبيبه، وإلا كان مع نفسه ووجده ولذته.

قوله: " واقتحام لجة الشوق والتمكن دائم " اقتحام لجة الشوق: هو ركوب بحره، وتوسطه، لا الدخول في حاشيته وطرفه، والتمكن المشار إليه: هو لزوم أحكام العلم من العمل به، ولزوم أحكام الورع، والقيام بالأوراد الشرعية، فلزوم ذلك ودوامه علامة صحة الشوق.

قوله: " والغرق في بحر السرور، والصبر هائم " أي: يكون المحب غريقا في بحر السرور، ولا يفارقه السرور، حتى كأنه بحر قد غرق فيه، فكما أن الغريق لا يفارقه الماء، كذلك المحب لا يفارقه السرور، ومن ذاق مقام المحبة عرف صحة ما يقوله الشيخ، فإن نعيم المحبة في الدنيا رقيقه ولطيفه من نعيم الجنة في الآخرة، بل هو جنة الدنيا، فما طابت الدنيا إلا بمعرفة الله ومحبته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته، فنعيم المحب دائم، وإن مزج بالآلام أحيانا، فلو عرف المشغولون بغير الحق سبحانه ما فيه أهل محبته، وذكره ومعرفته من النعيم لتقطعت قلوبهم حسرات، ولعلموا أن الذي حصلوه لا نسبة له إلى ما ضيعوه وحرموه.

كما قيل:

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها ... وأنت وحيد مفرد غير عاشق

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٩١

وقال الآخر:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال الآخر:

هل العيش إلا أن تروح وتغتدي ... وأنت بكأس العشق في الناس نشوان." [(١)]

"والممد، وبيده الأسباب وسببيتها وقواها وموانعها ومعارضها، فالأمر كله له وبه، ومصيره إليه، فهذا معنى صحيح في نفسه، ولكن صاحب هذا المقام لا يستغني عن الطلب.

قوله: " طاهر من الحرج " أي: خال منه، لا حرج عليه؛ لأنه قائم بوظائف العبودية في سكره وصحوه.

قوله: " فإن السكر إنما هو في الحق، والصحو إنما هو بالحق ".

يريد: أن السكر إنما هو في محبته **والشوق** إليه، فقلبه مستغرق في الحب، والصحو إنما هو بالحق؛ أي: بوجوده، وهذا كلام يحتاج إلى شرح وبيان وعبارة وافية، فنقول والله المستعان:

المحب له حالتان: حالة استغراق في محبة محبوبه، كاستغراق صاحب السكر في سكره، وذلك عند استغراقه في شهود جماله وكماله، فلا يبقى فيه متسع لسواه، ولا فضل لغيره، فإذا رآه من لم يعرف حاله: ظنه سكرا، فهذا استغراق في محبوبه وصفاته ونعوته.

الحالة الثانية: حالة صحو، يفيق فيها على عبوديته والقيام بمرضاته، كالمسارعة إلى محابه، فهو في هذا الحال به؛ أي: متصرف في أوامره ومحابه به، ليس غائبا عنه بأوامره، ولا غائبا به عن أوامره، فلا يشغله واجب أو أمر وحقوقه عن واجب محبته، والإنابة إليه، والرضا به، ولا يشغله واجب حبه عن أوامره، بل هو مقتد بإمام الحنفاء إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فإنه كان في أعلى مقامات المحبة وهي الخلة ولم يشغله ذلك عن القيام بخصال الفطرة من الختان، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، فضلا عما هو فوق ذلك، فوفى المقامين حقهما، ولهذا أثنى الله عليه بذلك، فقال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٧] .

قوله: وكلما كان في عين الحق لم يخل من حيرة.

يريد بذلك: تفضيل مقام الصحو على مقام السكر، ورفعه عليه، وأن السكر لما كان في عين الحق كان مستلزما لنوع من الحيرة، ثم استدرك فقال: " لا حيرة الشبهة " فإنها تنافي أصل عقد الإيمان، " ولكن حيرة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٢٩٢

مشاهدة أنوار العزة " وهي دهشة تعتري الشاهد لأمر عظيم جدا، لا عهد له بمثله، بخلاف مقام " الصحو " فإنه لقوته." (١)

"قوله: إلا اسم معار ولمح إليه مشار. لما كان الاسم لا يبلغ الحقيقة ولا يطابقها، فكأنه لغيرها، وأعير إطلاقه عليها عارية، وكذلك اللمح المشار هو الذي يشار به إشارة إلى الحقيقة،

وبعد، فالشيخ يدندن حول بحر الفناء، وكأنه يقول: صاحب هذا الاتصال قد فني في الوجود، بحيث صار نقطة انحل تعينها، واضمحل تكونها، ورجح عودها على بدئها، ففني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فهنالك طاحت الإشارات، وذهبت العبارات، وفنيت الرسوم ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ [طه: ١١١] .

[فصل الانفصال]

[حقيقة الانفصال]

فصل الانفصال

قال صاحب المنازل: (باب الانفصال) قال الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [آل عمران: ٢٨] ليس في المقامات شيء فيه من التفاوت ما في الانفصال.

وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه المقرب المبعد، فليحذر القريب من الإبعاد والمتصل من الانفصال، فإن الحق جل جلاله غيور لا يرضى ممن عرفه ووجد حلاوة معرفته، واتصل قلبه بمحبته والأنس به، وتعلقت روحه بإرادة وجهه الأعلى أن يكون له التفات إلى غيره ألبتة.

ومن غيرته سبحانه: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده: أن يلتفت إلى سواه، فإذا أذاقه حلاوة محبته، ولذة الشوق إليه، وأنس معرفته، ثم ساكن غيره باعده من قربه، وقطعه من وصله، وأوحش سره، وشتت قلبه، ونغص عيشه، وألبسه رداء الذل والصغار والهوان، فنادى عليه حاله، إن لم يصرح به قاله: هذا جزاء من تعوض عن وليه وإلهه وفاطره، ومن لا حياة له إلا به بغيره وآثر غيره عليه، فاتخذ سواه له حبيبا، ورضي بغيره أنيسا، واتخذ سواه وليا، قال الله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ [الكهف: ٥٠] .." (٢)

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٢٩٨/٣

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣٠٧/٣

"القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الأولى، فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستواءه على عرشه: تشبيها وتجسيما وحشوا، فنفروا عنه صبيان العقول، وسموا نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث، وسموا وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاء، مكرا منهم كبارا بالناس، كمن يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة، أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فعل الماكر المخادع، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول ترتب عليه الإعراض عن الله، وعن ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه.

وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة: فقعدوا على رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها، وما كان عليه هو وأصحابه، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولى به منه، كما قيل: رمتني بدائها وانسلت.

وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها - كيف كان - هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد، والاستعداد للجنة ولقاء الله، وقالوا: اليوم خمر، وغدا أمر، اليوم لك، ولا تدري: غدا لك، أو عليك؟ وقالوا: لا نبيع ذرة منقودة، بدرة موعودة.

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وقالوا للناس: خلوا لنا الدنيا، ونحن قد خلينا لكم الآخرة، فإن طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة.." (١)

"أناس ينقدون عيش النعيم ... ونحن نحال على الآخره

فإن لم تكن مثلما يزعمو ... ن فتلك إذا كرة خاسره

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٢٦

وغايته، وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصروا، فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له، وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم، وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: من رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد رآه غاديا رائحا، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه، ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله عز وجل له – بفضله ومنه – علما يشاهده بقلبه، فيشمر إليه، ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر: أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه؛ لأن القلوب إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه، وتلتذ بقربه، وتطمئن إلى ذكره، بحسب معرفتها بصفاته، فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها – بعد ذلك – ما هو مشروط بالمعرفة، وملزوم لها، إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه، ممتنع.

فحقيقة المحبة، والإنابة، والتوكل، ومقام الإحسان ممتنع على المعطل امتناع حصول المغل من معطل البذر، بل أعظم امتناعا.

كيف تصمد القلوب إلى من ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه، ولا مباينا له ولا محايثا؟ بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد، والأماكن التي يرغب عن ذكرها؟ وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها، ولا يرى مكانها، ولا يحب ولا يحب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟ .

فكيف يتصور على ذلك، ومحبته والإنابة إليه **والشوق** إلى لقائه، ورؤية وجهه." (١)

"الكريم في جنات النعيم، وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، **والشوق** إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلا لذلك لمن عليها به،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣٢٧/٣

وأكرمها به، إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده، والله أعلم حيث يجعل كرامته، ويضع نعمته ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين - وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته - أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ [الزخرف: ٥٣ - ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيها، وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيها، كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها، وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

عدنا إلى شرح كلامه.

قوله: وقد وردت أساميها بالرسالة. . . إلى آخره.

ذكر أن إثبات الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله، والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة؛ فاستدل بها على صفات صانعها، والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر، والقلب الذي حيي بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار.

فأما الرسالة: فإنها جاءت بإثبات الصفات إثباتا مفصلا على وجه أزال الشبهة، وكشف الغطاء، وحصل العلم اليقيني، ورفع الشك والريب؛ فثلجت له الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر به الإيمان في نصابه، ففصلت الرسالة الصفات والنعوت والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ، وأبعده من الإجمال والاحتمال، وأمنعه من قبول التأويل، وكذلك كان تأويل آيات." (١)

"بحيث يذهل لبه عن شعوره بطلبه وإرادته ومحبته.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا أقبل على ربه، وتفقد أحواله، وتمكن من شهود قيام ربه عليه، فإنه يكون في أول أمره: مكابدا وصابرا ومرابطا، فإذا صبر وصابر ورابط - صبر في نفسه وصابر عدوه، ورابط على ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وليه الحق - ظهر حينئذ في قلبه نور من إقباله على ربه، فإذا قوي ذلك النور غيبه عن وجوده الذهني، وسرى به في مطاوي الغيب، فحينئذ يصفو له إقباله على ربه، فإذا صفا له ذلك غاب عن وجوده العيني والذهني، فغاب بنور إقباله على ربه بوصول خالص الذكر وصافيه إلى قلبه، حيث خلا من كل شاغل من الوجود العيني والذهني، وصار واحدا لواحد، فيستولي نور المراقبة على أجزاء باطنه، فيمتلئ قلبه من نور التوجه، بحيث يغمر قلبه، ويستره عما سواه، ثم يسري ذلك النور من باطنه فيعم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣٢٨/٣

أجزاء ظاهره، فيتشابه الظاهر والباطن فيه، وحينئذ يفنى العبد عما سواه، ويبقى بالمشهد الروحي الذاتي الموجب للمحبة الخاصة الملهبة للروح.

فمنهم من يضعف لقلة الوارد، فلا يمكنه أن يتسع لغير ما باشر سره وقلبه من آثار الحب الخاص، ومنهم من يقوى ويتسع نظره، فيجد آثار الجلال والجمال المقدس في قلبه وروحه، ويجد العبودية والمحبة، والدعاء والافتقار، والتوكل والخوف والرجاء، وسائر الأعمال القلبية قائمة بقلبه، لا تشغله عن مشهد الروح، ولا تستغرق مشهد الروح عنه، ويجد ملاحظته للأوامر والنواهي حاضرا في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة، فلا يشغله مشهد الروح المستغرق، ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضي الرب تعالى ومحابه وحقه على عبده، ويجد ترك التدبير والاختيار وصحة التفويض موجودا في محل نفسه، فيعامل الله سبحانه بذلك، بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه، ويقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره، ولا يحجبه ذلك كله عن ملاحظة عبوديته، فيبقى مغمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجمالها، قد استغرقته محبته والشوق إليه، معمور القلب بعبادات القلوب معمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب، طاهر القلب عن سفساف الأخلاق، مع الله تعالى ومع الخلق، قد صار عبدا محضا لربه بروحه وقلبه وعقله، ونفسه وبدنه وجوارحه، قد قام كل بما عليه من العبودية، بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر، قد فني عن نفسه وبقي بربه، كما قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق ساعة، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن." (١)

"الأمر الأول: الفناء في شهود الربوبية والقيومية، فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير، والخلق والرزق، والعطاء والمنع، والضر والنفع، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة، وما له منها فعل فهو منفعل في فعله، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه، لا يملك شيئا منها لنفسه ولا لغيره، فلا يملك ضرا ولا نفعا، فإذا تحقق العبد بهذا المشهد؛ خمدت منه الخواطر والإرادات، نظرا إلى القيوم الذي بيده تدبير الأمور، وشخوصا منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه، فان بشهوده عن شهود ما سواه، ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه، قائما بالواجبات والنوافل.

الأمر الثاني: الفناء في مشهد الإلهية، وحقيقته " الفناء " عن إرادة ما سوى الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجائه، فيفنى بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٤٩

وحقيقة هذا الفناء إفراد الرب سبحانه بالمحبة، والخوف والرجاء، والتعظيم والإجلال، ونحن نشير إلى مبادئ ذلك وتوسطه وغايته، فنقول:

اعلم أن القلب إذا خلا من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال، أو رياسة أو صورة، وتعلق بالآخرة، والاهتمام بها من تحصيل العدة، والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه، وتباشير فجره، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه، وما يسخطه منه، فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته، فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين - يسأل عنهم الأولون والآخرون - ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لابد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه، فإذا تمكن في ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء **أشوق** إليه من ذلك، فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشت قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو، واللعب، ونيل الشهوات، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة، ود أن لا يخرج منها، ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له، ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته وحكمته، ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه، ويحس بقلبه وقد دخل." (١)

"التلبيس في هذه الدرجة راجع إلى فعل العبد، وفي الأولى إلى فعل الرب، ولهذا لما كان تسمية الدرجة الأولى تلبيسا شنيعا جدا، وطأ له بذكر قوله تعالى ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: ٩] أي لا تستوحش من إطلاق ذلك على الله، فإنه قد أطلقه على نفسه، وقد عرفت ما فيه.

والمقصود: أن العبد يقوى إخلاصه لله، وصدقه ومعاملته، حتى لا يحب أن يطلع أحد من الخلق على حاله مع الله ومقامه معه، فهو يخفي أحواله غيرة عليها من أن تشوبها شائبة الأغيار، ويخفي أنفاسه خوفا عليها من المداخلة، وكان بعضهم إذا غلبه البكاء، وعجز عن دفعه قال: لا إله إلا الله، ما أمر الزكام! فالصادق إذا غلب عليه الوجد والحال، وهاج من قلبه لواعج **الشوق**؛ أخلد إلى السكون ما أمكنه، فإن غلب؛ أظهر ألما ووجعا؛ يستر به حاله مع الله، كما أظهر إبراهيم الخليل - صلى الله عليه وسلم - لقومه أنه سقيم، حين أراد أن يفارقهم، ويرجع بذلك الوارد وتلك الحال إلى الآلهة الباطلة، فيجعلها جذاذا.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٥٢

فالصادقون يعملون في كتمان المعاني، واجتناب الدعاوي، فظواهرهم ظواهر الناس، وقلوبهم مع الحق تعالى، لا تلتفت عنه يمنة ولا يسرة، فهم في واد، والناس في واد.

فقوله: " تلبيس أهل الغيرة على الأوقات بإخفائها "، يعني: أنهم يغارون على الأوقات التي عمرت لهم بالله، وصفت لهم أن يظهروها للناس، وإن اطلع غيرهم عليها من غير قصدهم لكشفها وإظهارها؛ لم يقدح ذلك في طريقهم فلا يفزعون إلى الجحد والإنكار، وشكاية الحال، بل يسعهم الإمساك عن الإظهار والجحد.

قوله: " وعلى الكرامات بكتمانها "، يعني: أنهم يغارون على كراماتهم أن يعلم بها الناس، فهم يخفونها أبدا غيرة عليها، إلا إذا كان في إظهارها مصلحة راجحة؛ من حجة أو حاجة، فلا يظهرونها إلا لحجة على مبطل، أو حاجة تقتضي إظهارها.

قوله: " والتلبيس بالمكاسب والأسباب معناه، وتعليق الظواهر بالشواهد والمكاسب تلبيس على العيون الكليلة والعقول العليلة "، يعني: أن التلبيس المذكور إنما يكون على العيون الكليلة، أي أهل الإحساس الضعيف، و " العقول العليلة " هي المنحرفة التي لا تدرك الحق لمرض بها.." (١)

"فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان: البر الرحيم الودود دون الرفيق١ والشفوق٢ ونحوهما، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع٣ الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق الباريء المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه.

فتأمل ذلك فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل

---

١ كذا في جميع النسخ الخطية التي بين يدي، والصواب "الرقيق"- بالقاف-، فإن اسم "الرفيق"- بالفاء- نابت في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله رفيق يحب الرفق". وقد عده ابن القيم في كتاب مدارج السالكين (٢/٢٩٤) من أسماء الله عز وجل، ثم تبين لي بعد ذلك وجوده في بعض النسخ الخطية الأخرى، بلفظ "الرقيق".

٢ في (ب) و (خ) "والمشوق"وفي (ص) "والمعشوق".

٣ ورد هذا الاسم مضافا كما في قوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ [غافر: ١٥] ، قال ابن سعدي

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ابن القيم ٣/٣٧٤

في تفسيره (٦/ ٥١٥) : (أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به وارتفعت درجاته ارتفاعا باين به مخلوقاته وارتفع به قدره وجلت أوصافه ... ".." [١]

"المعية حقها من التوفية كما قال تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أى وفي ما أمر به بصبره مع الله على أوامره.

وأما قوله:"والصبر عن الله جفاء" فلا جفاء أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذى لا مولى له سواه ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته والقرب منه وايثار مرضاته على كل شيء فأي جفاء أعظم من الصبر عنه وهذا معنى قول من قال الصبر على ضد بين صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظا وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضا كما قيل:

يبين يوم البين ان اعتزامه ... على الصبر من احدى الظنون الكواذب

وقال الآخر:

ولما دعوت الصبر بعدك والبكا ... أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر

قالوا: ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه قال فصبر جميل ورسول الله اذا وعد وفى ثم حمله الوجد على يوسف والشوق اليه أن قال ﴿يا أسفا على يوسف﴾ فلم يكن عدم صبره عنه منافيا لقوله ﴿فصبر جميل﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه ولا تنافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى فإنه قد قال ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل وقد امتثل ما أمر به وقال "اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي" الحديث وأما قول بعضهم إن الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو فهذا من الصبر الجميل لأن من فقده فقد الصبر الجميل فإن ظهور اثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة وبالله التوفيق

وزاد بعضهم في الصبر قسما آخر وسماه الصبر على الصبر وقال هو ان يستغرق في الصبر حتى يعجزالصبر عن الصبر كما قيل:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر ... فصاح المحب بالصبر صبرا." [٢]

"وأعمال يعمل بها وأحوال ترتب له على علومه وأعماله وأفضل العلم والعمل والحال العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء فهذا أشرف ما في الدنيا

---

(١) فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى ابن القيم ص/٤٣

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/٥١

وجزاؤه أشرف ما في الاخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه **والشوق** إلى لقائه والتنعم بذكره وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها وانما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة اذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الاخرة والا فهو في الدنيا وان شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه والمحن التى امتحن بها والا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم في فضلها بحسب افضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب افضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له فهو أشرف مما دونه وكذلك الاعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب افضائها إلى المقصود وهكذا يجب أن يكون فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها فالعمل المعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك واذا أشتركت عدة أعمال في هذا الافضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصى في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيا عنها وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها

وها هنا أمر ينبغى التفطن له وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شئ منه فصدقته وايثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله." (١)

"من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء النساء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم فى طلبهم وهربهم والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ثم **شوق** عباده الى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/١١٤

خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾
ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن ہم أهله الذين هم أولى به فقال ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان ثواب يتمتعون به وأكبر منه وهو رضوانه عليهم قال تعالى ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما﴾ فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدا لأولى البصائر وانها لعب ولهب تلهو بها النفوس وتلعب بها الابدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون فيذهب ضائعا فى غير شئ ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون." (١)

"مالا وولدا وأن يقال فيه ذلك وهذا من أعظم ما يلهى النفوس عن الله والدار الاخرة كما قال تعالى ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ والتكاثر فى كل شئ فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الامور عن الله والدار الاخرة فهو داخل فى حكم هذه الاية فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم فيجمعه تكاثرا وتفاخرا وهذا أسوأ حالا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه فإنه جعل أسباب الاخرة للدنيا وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها

فصل: ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته والصحيح ان شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت فى كل موضع ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذى يعرفون به كما ذكرهم به فى قوله يعجب الزراع وانما خص الكفار به لأنهم أشد اعجابا بالدنيا فإنها دارهم التى لها يعملون ويكدحون فهم أشد اعجابا بزينتها وما فيها من المؤمنين

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره وييسه وهذا آخر الدنيا ومصيرها ولو ملكها العبد من أولها الى آخرها فنهايتها ذلك فإذا كانت الاخرة انقلبت الدنيا واستحالت الى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه كما قال على بن أبى طالب الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عفها ومطلب نجح لمن سالم فيها مساجد انبياء الله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ومتجر أوليائه فيها اكتسبوا الرحمة وربحوا فيها العافية فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ونعت نفسها وأهلها فتمثلت ببلائها **وشوقت**

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/١٦٨

بسرورها الى السرور تخويفا وتحذيرا وترغيبا فذمها قوم غداة الندامة وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت اليك بل متى غرتك أبمنازل آبائك فى الثرى أم بمضاجع أمهاتك فى البلاء كم رأيت." (١)

"قال ابن أبي الدنيا وحدثنى ابراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا سفيان بن عيينة قال قال لى أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوها شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون فلما كانت بحذائى أقبلت على فقالت لو ظفرت بك صنعت بك ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر قال وحدثنا محمد بن على حدثنا ابراهيم بن الاشعث قال سمعت الفضيل قال بلغنى أن رجلا عرج بروحه قال فاذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى والثياب واذا هى لا يمر بها أحد إلا جرحته وإذا هى أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس واذا أقبلت أقبح شئ عجوز شمطاء زرقاء عمشاء فقلت أعوذ بالله قالت لا والله لا يعيذك الله حتى تبغض الدرهم قال قلت من أنت قالت أنا الدنيا

ووصف على رضى الله عنه الدنيا فقال دار من صح فيها هرم ومن سقم فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن فى حلالها الحساب وفى حرامها النار وقال ابن مسعود رضى الله عنه الدنيا دارت من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له

وذكر ابن أبى الدنيا أن الحسن كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما أنزل آدم اليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغناء فيها فقرها لها فى كل حال قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كمداو جرحاته يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها **وشوقت** لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهه والنفوس لها عاشقة وهى لأزواجها كلهم قاتله فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر والعارف بالله حين أخبره عنها مذكر." (٢)

"والقسطة، ووزن الأنهار ونقوش الحيطان، ووضع الآلات العجيبة، وصناعة الكيمياء، وعلم الفلاحة، وعلم الهيئة وتسيير الكواكب، وعلم الموسيقى والألحان، وغير ذلك من العلوم التي هي بين علم لا ينفع، وبين ظنون كاذبة، وبين علم نفعه في العاجلة وليس من زاد المعاد، فإن أردتم أن الصحابة كانوا عواما في

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/١٧١

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ابن القيم ص/٢٢٧

هذه العلوم فنعم إذا، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها.

وإن أردتم أن الصحابة كانوا عواما في العلم بالله وأسمائه وصفاته، وأفعاله وأحكامه، ودينه وشرعه وتفاصيله، واليوم الآخر وتفاصيله، وتفاصيل ما بعد الموت، وعلم سعادة النفوس وشقاوتها، وعلم صلاح القلوب وأمراضها، فمن بهت نبيهم بما بهته به وجحد نبوته ورسالته التي هي للبصائر أظهر من الشمس للأبصار، لم ينكر له أن يبهت أصحابه، ويجحد فضلهم ومعرفتهم، وينكر ما خصهم الله به وميزهم على من قبلهم، ومن هو كائن من بعدهم إلى يوم القيامة، وقد كان الحواريون الذين نقلوا لأتباع المسيح معالم دينه، وسيرة المسيح لا يعلمون شيئا من ذلك، حتى من الله بالمسيح وشاهدوا ما خصه الله به من الآيات وأظهره على يده من المعجزات، وكمل نفوسهم بالعلوم الإلهية والفضائل النفسانية، فصاروا يفعلون ما نقله الجم الغفير إلينا عنهم من العجائب، ويدونون العلوم، كل ذلك ببركته، وكذلك هؤلاء، أعني الصحابة رضي الله عنهم، وكيف يكونون عواما في ذلك وهم أذكى الناس فطرة، وأزكاهم نفوسا، هم يتلقونه غضا طريا، ومحضا لم يشب عن نبيهم، وهم أحرص الناس عليه، وأشوقهم إليه، وخبر السماء يأتيهم على لسانه في ساعات الليل والنهار، والحضر والسفر، وكتابهم قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين،." (١)

"الباب التاسع عشر: في ذكر مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة

قال الجبري: القول بالجبر لازم لصحة التوحيد ولا يستقيم التوحيد إلا به لأنا إن لم نقل بالجبر أثبتنا فاعلا للحوادث مع الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وهذا شرك ظاهر لا يخلص منه إلا القول بالجبر قال السني: بل القول بالجبر مناف للتوحيد ومع منافاته للتوحيد فهو مناف للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب فلو صح الجبر لبطلت الشرائع وبطل الأمر والنهي ويلزم من بطلان ذلك بطلان الثواب والعقاب قال الجبري: ليس من العجب دعواك منافاة الجبر للأمر والنهي والثواب والعقاب فإن هذا لم يزل يقال وإنما العجب دعواك منافاته للتوحيد وهو من أقوى أدلة التوحيد فكيف يكون المصور للشيء المقوي له منافيا له قال السني: منافاته للتوحيد من أظهر الأمور ولعلها أظهر من منافاته الأمر والنهي وبيان ذلك أن أصل عقد التوحيد وإثباته هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والجبر ينافي الكلمتين فإن الإله هو المستحق لصفات الكمال المنعوت بنعوت الجلال وهو الذي تألهه القلوب وتصمد إليه بالحب والخوف والرجاء فالتوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الرب بالتأله الذي هو كمال الذل والخضوع والانقياد له مع كمال المحبة والإثابة وبذل الجهد في طاعته ومرضاته وإيثار محابه ومراده الديني على محبة العبد ومراده

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ابن القيم ٢/٤٤٣

فهذا أصل دعوة الرسل وإليه دعوا الأمم وهو التوحيد الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه لا من الأولين ولا من الآخرين وهو الذي أمر به رسله وأنزل به كتبه ودعا إليه عباده ووضع لهم دار الثواب والعقاب لأجله وشرع الشرائع لتكميله وتحصيله وكان من قولك أيها الجبري أن العبد لا قدرة له على هذا البتة ولا أثر له فيه ولا هو فعله وأمره بهذا أمر له بما لا يطيق بل أمر له بإيجاد فعل الرب وأن الرب سبحانه أمره بذلك وأجبره على ضده وحال بينه وبين ما أمره به ومنعه منه وصده عنه ولم يجعل له إليه سبيلا بوجه من الوجوه مع قولك أنه لا يحب ولا يحب فلا تتألهه القلوب بالمحبة والود **والشوق** والطلب وإرادة وجهه والتوحيد معنى ينتظم من إثبات الإلهية واثبات العبودية فرفعت معنى الإلهية بإنكار كونه محبوبا مودودا تتنافس القلوب في محبته وإرادة وجهه **والشوق** إلى لقائه ورفعت حقيقة العبودية بإنكار كون العبد فاعلا وعابدا ومحبا فإن هذا كله مجاز لا حقيقة له عندك فضاع التوحيد بين الجبر وإنكار محبته وإرادة وجهه لا سيما والوصف الذي وصفته به منفر للقلوب عنه حائل بينها وبين محبته فإنك وصفته بأنه يأمر عبده بما لا قدرة له على فعله وينهاه عما لا يقدر على تركه بل يأمره بفعله هو سبحانه وينهاه عن فعله هو سبحانه ثم يعاقبه أشد العقوبة على ما لم يفعله البتة بل يعاقبه على أفعاله هو سبحانه وصرحت بأن عقوبته على ترك ما أمره وفعل ما نهاه بمنزلة عقوبته على ترك طيرانه إلى السماء وترك تحويله للجبال عن أماكنها ونقله مياه البحار عن مواضعها وبمنزلة عقوبته له على ما لا صنع له فيه من لونه وطوله وقصره وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب لمن لم يعصه طرفة عين وأن حكمته ورحمته." (١)

"وكانت له خمسة أرماح، يقال لأحدهم: المثوي، والآخر: المثني، وحربة يقال لها: النبعة، وأخرى كبيرة تدعى: البيضاء، وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها: العنزة يمشي بها بين يديه في الأعياد، تركز أمامه، فيتخذها سترة يصلي إليها، وكان يمشي بها أحيانا.

وكان له مغفر من حديد يقال له: الموشح، وشح بشبه، ومغفر آخر يقال له: السبوغ، أو ذو السبوغ.

وكان له ثلاث جباب يلبسها في الحرب. قيل فيها: جبة سندس أخضر، والمعروف أن عروة بن الزبير كان له يلمق من ديباج بطانته سندس أخضر، يلبسه في الحرب، والإمام أحمد في إحدى روايتيه يجوز لبس الحرير في الحرب.

وكانت له راية سوداء يقال لها: العقاب. وفي "سنن أبي داود " عن رجل من الصحابة قال («رأيت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم صفراء، وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود») .

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ابن القيم ص/١٣٩

وكان له فسطاط يسمى: الكن، ومحجن قدر ذراع أو أطول يمشي به ويركب به، ويعلقه بين يديه على بعيره، ومخصرة تسمى: العرجون، وقضيب من الشوحط يسمى: **الممشوق**. قيل: وهو الذي كان يتداوله الخلفاء.

وكان له قدح يسمى: الريان، ويسمى مغنيا، وقدح آخر مضبب بسلسلة من فضة.

وكان له قدح من قوارير، وقدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيه بالليل، وركوة تسمى: الصادر، قيل: وتور من حجارة يتوضأ منه، ومخضب من شبه، وقعب يسمى: السعة، ومغتسل من صفر، ومدهن، وربعة يجعل فيها." (١)

"وهم يستغفرون ونحن نستغفرك») وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحيانا في صلاة الليل.

والبكاء أنواع.

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة **والشوق**.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع في المستقبل من ذلك، والفرق بين بكاء السرور والفرح وبكاء الحزن، أن دمعة السرور باردة والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة والقلب حزين، ولهذا يقال لما يفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.." (٢)

"الأمر بهذه الصلاة، وإيجاب السعي إليها وترك العلم العائق عنها، والأمر بإكثار ذكر الله ليحصل لهم الفلاح في الدارين، فإن في نسيان ذكره تعالى العطب والهلاك في الدارين، ويقرأ في الثانية بسورة ﴿إذا

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٢٧/١

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٧٧/١

جاءك المنافقون﴾ [المنافقون: ١] تحذيرا للأمة من النفاق المردي، وتحذيرا لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة، وعن ذكر الله، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بد، وحضا لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم، وتحذيرا لهم من هجوم الموت وهم على حالة يطلبون الإقالة، ويتمنون الرجعة ولا يجابون إليها، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يفعل عند قدوم وفد يريد أن يسمعهم القرآن.
وكان يطيل قراءة الصلاة الجهرية لذلك كما صلى المغرب ب (الأعراف) وب (الطور) و (ق) . وكان يصلي الفجر بنحو مائة آية.
وكذلك كانت خطبته صلى الله عليه وسلم، إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانا وتوحيدا، ومعرفة بالله وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة، والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيمانا بالله، ولا توحيدا له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيرا بأيامه، ولا بعثا للنفوس على محبته **والشوق** إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون، وتقسم أموالهم، ويبلي التراب أجسامهم، فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا؟ ! وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به؟ .
ومن تأمل خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي." (١)

"نهاية إقدام الفريقين، ومنتهى احتجاج الطائفتين.
وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني على وجهين، أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه، واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين كما قال أبو موسى الأشعري للنبي صلى الله عليه وسلم («لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا») والحزين ومن هاجه الطرب والحب **والشوق** لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤٠٩/١

والتصنع فيه فهو مطبوع لا متطبع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرءوا بها ويسوغوها ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرءون بالتحزين والتطريب ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرءونه بشجى تارة، وبطرب تارة، **وبشوق** تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: («ليس م نا من لم يتغن بالقرآن») وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله." [1]

"رمضان») يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف.

[النهي عن الوصال]

وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانا ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل، فيقول: («لست كهيئتكم إني أبيت - وفي رواية: إني أظل - عند ربي يطعمني ويسقيني») .

وقد اختلف الناس في هذا الطعام والشراب المذكورين على قولين.

أحدهما: أنه طعام وشراب حسي للفم، قالوا: وهذه حقيقة اللفظ، ولا موجب للعدول عنها.

الثاني: أن المراد به ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته، وقرة عينه بقربه، وتنعمه بحبه، **والشوق** إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب، ونعيم الأرواح، وقرة العين، وبهجة النفوس والروح والقلب بما هو أعظم غذاء وأجوده وأنفعه، وقد يقوي هذا الغذاء ح تى يغني عن غذاء

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١/ ٤٧٤

الأجسام مدة من الزمان كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به ... ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا شكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد." (١)

"بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه الشوق إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: («اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين») .

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه،." (٢)

"عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق، فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجل الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاءه منه.

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣١/٢

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ١٥/٣

وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن **الشوق** يكفيك حاملا

وخذ منهم زادا إليهم وسر على ... طريق الهدى والحب تصبح واصلا

وأحي بذكراهم شراك إذا دنت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغي المناهلا

وخذ قبسا من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا

وحي على وادي الأراك فقل به ... عساك تراهم ثم إن كنت قائلا

وإلا ففي نعمان عندي معرف الـ ... أحبة فاطلبهم إذا كنت سائلا

وإلا ففي جمع بليلته فإن ... تفت فمنى يا ويح من كان غافلا

وحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى بها كنت نازلا

ولكن سباك الكاشحون لأجل ذا ... وقفت على الأطلال تبكي المنازلا

وحي على يوم المزيد بجنة الـ ... خلود فجد بالنفس إن كنت باذلا

فدعها رسوما دارسات فما بها ... مقيل وجاوزها فليست منازلا

رسوما عفت ينتابها الخلق كم بها ... قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا

وخذ يمنة عنها على المنهج الذي ... عليه سرى وفد الأحبة آهلا

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة ... فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ... ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

لقد حرك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبية، والهمم العالية." (١)

"الحركة كثير المواد فهذا لا يكاد يفلت من العطب.

وأصح الفصول فيه فصل الربيع. قال أبقراط: إن في الخريف أشد ما تكون من الأمراض، وأقتل، وأما الربيع فأصح الأوقات كلها وأقلها موتا، وقد جرت عادة الصيادلة ومجهزي الموتى أنهم يستدينون ويتسلفون في الربيع والصيف على فصل الخريف، فهو ربيعهم، وهم **أشوق** شيء إليه، وأفرح بقدومه، وقد روي في حديث: («إذا طلع النجم ارتفعت العاهة عن كل بلد») . وفسر بطلوع الثريا، وفسر بطلوع النبات زمن الربيع ومنه:

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٦٧/٣

﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ [الرحمن: ٦] [الرحمن: ٧] ، فإن كمال طلوعه وتمامه يكون في فصل الربيع، وهو الفصل الذي ترتفع فيه الآفات.

وأما الثريا، فالأمراض تكثر وقت طلوعها مع الفجر وسقوطها.

قال التميمي في كتاب " مادة البقاء ": أشد أوقات السنة فسادا، وأعظمها بلية على الأجساد وقتان: أحدهما: وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر.." (١)

"من ربه إذا انكسر قلبه، ورحمة ربه عندئذ قريبة منه، فإن كان وليا له حصل له من الأغذية القلبية ما تقوى به قوى طبيعته، وتنتعش به قواه أعظم من قوتها، وانتعاشها بالأغذية البدنية، وكلما قوي إيمانه وحبه لربه وأنسه به وفرحه به وقوي يقينه بربه، واشتد **شوقه** إليه ورضاه به وعنه، وجد في نفسه من هذه القوة ما لا يعبر عنه، ولا يدركه وصف طبيب، ولا يناله علمه.

ومن غلظ طبعه وكثفت نفسه عن فهم هذا والتصديق به، فلينظر حال كثير من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من صورة، أو جاه أو مال أو علم، وقد شاهد الناس من هذا عجائب في أنفسهم وفي غيرهم.

وقد ثبت في " الصحيح ": «عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يواصل في الصيام الأيام ذوات العدد، وينهى أصحابه عن الوصال ويقول: (لست كهيئتكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني»)

ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله الإنس١ن بفمه، وإلا لم يكن مواصلا ولم يتحقق الفرق، بل لم يكن صائما، فإنه قال: («أظل يطعمني ربي ويسقيني»)

وأيضا فإنه فرق بينه وبينهم في نفس الوصال، وأنه يقدر منه على ما لا يقدرون عليه، فلو كان يأكل ويشرب بفمه لم يقل لست كهيئتكم، وإنما فهم هذا من الحديث من قل نصيبه من غذاء الأرواح والقلوب، وتأثيره في القوة وإنعاشها، واغتذائها به فوق تأثير الغذاء الجسماني، والله الموفق.." (٢)

"[النساء: ٢٣] .

وقال في هذه السورة: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: ٤٠] [الأحزاب: ٤٠] ، وقال في أولها: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ [الأحزاب: ٤] [الأحزاب: ٤] ، فتأمل هذا الذب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣٨/٤

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٨٦/٤

نعم كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة – رضي الله عنها، ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد سوى ربه نهاية الحب، بل صح أنه قال: («لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا») وفي لفظ: («وإن صاحبكم خليل الرحمن») .

[فصل الإخلاص سبب لدفع العشق]

فصل

وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله **والشوق** إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال تعالى في حق يوسف ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ [يوسف: ٢٤] [يوسف: ٢٤] ، فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه، ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني فارغا مما سوى **معشوقه**. قال تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به﴾ [القصص: ١٠] [القصص: ١١] أي فارغا من كل شيء إلا من موسى لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.." [١]

"[علة العشق]

والعشق مركب من أمرين: استحسان **للمعشوق**، وطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق، وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن ذكره إلى الصواب.

فنقول: قد استقرت حكمة الله – عز وجل – في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع، فسر التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي، إنما هو التناسب والتشاكل، والتوافق، وسر التباين والانفصال إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل، وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر، وقد قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩] [الأعراف: ١٨٩] ، فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره، فعلة السكون المذكور – وهو الحب – كونها منه، فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة، ولا الموافقة في القصد والإرادة، ولا في الخلق والهدي، وإن كانت هذه أيضا من أسباب السكون والمحبة.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤/٢٤٦

وقد ثبت في " الصحيح " عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: («الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف») ، وفي " مسند الإمام أحمد "، وغيره في سبب هذا الحديث: أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس، فجاءت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم: («الأرواح جنود مجندة») الحديث.." [1]

"الثالث: مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب في محبته، ولولا ذلك المانع، لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر، فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية، فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبر والحسد، والرياسة والمعاداة في الكفار، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال.

[فصل علاج العشق بالزواج **بالمعشوق**]

فصل

والمقصود: أن العشق لما كان مرضا من الأمراض، كان قابلا للعلاج، وله أنواع من العلاج، فإن كان مما للعاشق سبيل إلى وصل محبوبه شرعا وقدرا، فهو علاجه، كما ثبت في " الصحيحين " من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: («يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء») . فدل المحب على علاجين: أصلي، وبدلي. وأمره بالأصلي، وهو العلاج الذي وضع لهذا الداء، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وجد إليه سبيلا.

وروى ابن ماجه في " سننه " عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: («لم نر للمتحابين مثل النكاح») ، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن عند الحاجة بقوله: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾ [النساء: ٢٨] [النساء: ٢٨] . فذكر تخفيفه في هذا الموضع، وإخباره عن ضعف الإنسان يدل على ضعفه عن احتمال هذه

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤/٢٤٧

الشهوة، وأنه – سبحانه – خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مثنى وثلاث ورباع، وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء إن احتاج." (١)

"إلى ذلك علاجا لهذه الشهوة وتخفيفا عن هذا الخلق الضعيف ورحمة به.

[فصل من علاجه إشعار النفس اليأس منه إن كان الوصال متعذرا قدرا وشرعا]

فصل

وإن كان لا سبيل للعاشق إلى وصال **معشوقه** قدرا أو شرعا، أو هو ممتنع عليه من الجهتين، وهو الداء العضال، فمن علاجه إشعار نفسه اليأس منه، فإن النفس متى يئست من الشيء، استراحت منه، ولم تلتفت إليه، فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس، فقد انحرف الطبع انحرافا شديدا، فينتقل إلى علاج آخر، وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بما لا مطمع في حصوله نوع من الجنون، وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس، وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران معها في فلكها، وهذا معدود عند جميع العقلاء في زمرة المجانين.

[إن كان الوصال متعذرا شرعا فعلاجه إنزاله منزلة المتعذر قدرا وذكر علاجات أخرى]

وإن كان الوصال متعذرا شرعا لا قدرا، فعلاجه بأن ينزله منزلة المتعذر قدرا، إذ ما لم يأذن فيه الله، فعلاج العبد ونجاته موقوف على اجتنابه، فليشعر نفسه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه، وأنه بمنزلة سائر المحالات، فإن لم تجبه النفس الأمارة، فليتركه لأحد أمرين: إما خشية، وإما فوات محبوب هو أحب إليه، وأنفع له، وخير له منه، وأدوم لذة وسرورا، فإن العاقل متى وازن بين نيل محبوب سريع الزوال بفوات محبوب أعظم منه، وأدوم، وأنفع وألذ، أو بالعكس، ظهر له التفاوت، فلا تبع لذة الأبد التي لا خطر لها بلذة ساعة تنقلب آلاما، وحقيقتها أنها أحلام نائم، أو خيال لا ثبات له، فتذهب اللذة، وتبقى التبعة، وتزول الشهوة، وتبقى الشقوة.

الثاني: حصول مكروه أشق عليه من فوات هذا المحبوب، بل يجتمع له الأمران، أعني: فوات ما هو أحب إليه من هذا المحبوب، وحصول ما هو أكره إليه من فوات هذا المحبوب، فإذا تيقن أن في إعطاء النفس

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤/٢٥٠

حظها من هذا المحبوب هذين الأمرين، هان عليه تركه، ورأى أن صبره على فوته أسهل من صبره عليهما بكثير، فعقله ودينه، ومروءته وإنسانيته، تأمره باحتمال الضرر." (١)

"وكيف يكون العشق الذي هو شرك في المحبة، وفراغ القلب عن الله، وتمليك القلب والروح، والحب لغيره تنال به درجة الشهادة، هذا من المحال، فإن إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد، بل هو خمر الروح الذي يسكرها، ويصدها عن ذكر الله وحبه، والتلذذ بمناجاته، والأنس به، ويوجب عبودية القلب لغيره، فإن قلب العاشق متعبد لمعشوقه، بل العشق لب العبودية، فإنها كمال الذل والحب والخضوع والتعظيم، فكيف يكون تعبد القلب لغير الله مما تنال به درجة أفاضل الموحدين وساداتهم، وخواص الأولياء، فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس، كان غلطا ووهما، ولا يحفظ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لفظ العشق في حديث صحيح البتة.

ثم إن العشق منه حلال، ومنه حرام، فكيف يظن بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد، فترى من يعشق امرأة غيره، أو يعشق المردان والبغايا، ينال بعشقه درجة ال شهداء، وهل هذا إلا خلاف المعلوم من دينه – صلى الله عليه وسلم – بالضرورة؟ كيف والعشق مرض من الأمراض التي جعل الله سبحانه لها الأدوية شرعا وقدرا، والتداوي منه إما واجب إن كان عشقا حراما، وإما مستحب.

وأنت إذا تأملت الأمراض والآفات التي حكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأصحابها بالشهادة، وجدتها من الأمراض التي لا علاج لها، كالمطعون والمبطون، والمجنوب والغريق، وموت المرأة يقتلها ولدها في بطنها، فإن هذه." (٢)

"وإمساكه في الفم يزيل البخر، ومن كان به مرض يحتاج إلى الكي، وكوي به، لم يتنفط موضعه، ويبرأ سريعا، وإن اتخذ منه ميلا واكتحل به، قوى العين وجلاها، وإذا اتخذ منه خاتم فصه منه وأحمي، وكوي به قوادم أجنحة الحمام، ألفت أبراجها، ولم تنتقل عنها.

وله خاصية عجيبة في تقوية النفوس، لأجلها أبيح في الحرب والسلاح منه ما أبيح، وقد روى الترمذي من حديث مزيدة العصري رضي الله عنه، قال: («دخل رسول الله يوم الفتح وعلى سيفه ذهب وفضة») .

وهو معشوق النفوس التي متى ظفرت به، سلاها عن غيره من محبوبات الدنيا، قال تعالى: ﴿زين للناس

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤/٢٥١

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٤/٢٥٤

حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ [آل عمران: ١٤] [آل عمران: ١٤] .

وفي " الصحيحين ": عن النبي صلى الله عليه وسلم: («لو كان لابن آدم واد من ذهب لابتغى إليه ثانيا، ولو كان له ثان، لابتغى إليه ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب») .

هذا وإنه أعظم حائل بين الخليقة وبين فوزها الأكبر يوم معادها، وأعظم شيء عصي الله به، وبه قطعت الأرحام، وأريقت الدماء، واستحلت المحارم، ومنعت الحقوق، وتظالم العباد، وهو المرغب في الدنيا وعاجلها، والمزهد في." [1]

"الآخرة وما أعده الله لأوليائه فيها، فكم أميت به من حق، وأحيي به من باطل، ونصر به ظالم، وقهر به مظلوم، وما أحسن ما قال فيه الحريري:

تبا له من خادع مماذق ... أصفر ذي وجهين كالمنافق

يبدو بوصفين لعين الرامق ... زينة معشوق ولون عاشق

وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق

لولاه لم تقطع يمين السارق ... ولا بدت مظلمة من فاسق

ولا اشمأز باخل من طارق ... ولا اشتكى الممطول مطل العائق

ولا استعيذ من حسود راشق ... وشر ما فيه من الخلائق

أن ليس يغني عنك في المضايق ... إلا إذا فر فرار الآبق

[حرف الراء]

[رطب]

حرف الراء

رطب: قال الله تعالى لمريم: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا﴾ [مريم: ٢٥] [مريم: ٢٥] .

وفي " الصحيحين " عن عبد الله بن جعفر، قال: («رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل القثاء بالرطب») .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٢٨٥/٤

وفي " سنن أبي داود " عن أنس قال: («كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من ماء») .." [١]

"والحشايا وغيرها، ثم آخر شيء نواها علف للإبل، ويدخل في الأدوية والأكحال، ثم جمال ثمرتها ونباتها وحسن هيئتها، وبهجة منظرها وحسن نضد ثمرها وصنعته وبهجته ومسرة النفوس عند رؤيته فرؤيتها مذكرة لفاطرها وخالقها وبديع صنعته وكمال قدرته وتمام حكمته ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن إذ هو خير كله ونفع ظاهر وباطن.

وهي الشجرة التي حن جذعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فارقه **شوقا** إلى قربه وسماع كلامه وهي التي نزلت تحتها مريم لما ولدت عيسى عليه السلام. وقد ورد في حديث في إسناده نظر («أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم») .

وقد اختلف الناس في تفضيلها على الحبلة أو بالعكس على قولين، وقد قرن الله بينهما في كتابه في غير موضع، وما أقرب أحدهما من صاحبه، وإن كان كل واحد منهما في محل سلطانه ومنبته، والأرض التي توافقه أفضل وأنفع.

[نرجس]

: فيه حديث لا يصح («عليكم بشم النرجس فإن في القلب حبة الجنون والجذام والبرص، لا يقطعها إلا شم النرجس») .

وهو حار يابس في الثانية، وأصله يدمل القروح الغائرة إلى العصب، وله قوة غسالة جالية جابذة، وإذا طبخ وشرب ماؤه، أو أكل مسلوقا، هيج القيء، وجذب الرطوبة من قعر المعدة، وإذا طبخ مع الكرسنة والعسل، نقى أوساخ القروح، وفجر الدبيلات العسرة النضج.." [٢]

"الباب الأول: في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا المسمى أشد وهو بقلوبهم أعلق كانت أسماؤه لديهم أكثر وهذا عادتهم في كل ما اشتد الفهم له أو كثر خطوره على قلوبهم تعظيما له أو اهتماما به أو محبة له فالأول كالأسد والسيف والثاني كالداهية والثالث كالخمر وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب فوضعوا له قريبا من ستين

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٢٨٦/٤

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ابن القيم ٣٦٦/٤

اسما وهي المحبة والعلاقة والهوى والصبوة والصبابة والشغف والمقة والوجد والكلف والتتيم والعشق والجوى والدنف والشجو **والشوق** والخلابة والبلابل والتباريح والسدم والغمرات والوهل والشجن واللاعج والاكتئاب والوصب والحزن والكمد واللذع والحرق والسهد والأرق واللهف والحنين والاستكانة والتبالة واللوعة والفتون والجنون واللمم والخبل والرسيس والداء المخامر والود والخلة والخلم والغرام والهيام والتدليه والوله والتعبد وقد ذكر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه وإنما هي من موجباته وأحكامه فتركنا ذكرها." (١)

"فهذا من أفعل وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب قال الشاعر

وما زرت ليلى أن تكون حبيبة ... إلي ولا دين لها أنا طالبه

وقد استعملوه بمعنى المحب قال الشاعر

وما هجرتك النفس أنك عندها ... قليل ولا أن قل منك نصيبها

ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا ... بقول إذا ما جئت هذا حبيبها

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المحب وأما الحب بكسر الحاء فلغة في الحب وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال في الصحاح الحب المحبة وكذلك الحب بالكسر والحب أيضا الحبيب مثل خدن وخدين قلت وهذا نظير ذبح بمعنى مذبوح ونهب بمعنى منهوب ورشق بمعنى **مرشوق** ومنه السب ويشترك فيه الفاعل والمفعول قال أبو عبيد السب بالكسر الكثير السباب قال الجوهري وسبك الذي يسابك قال حسان

لا تسبنني فلست بسبي ... إن سبي من الرجال الكريم

والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو رزق وفي إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سر لطيف فإن الكسرة أخف من الضمة والمحبوب أخف على قلوبهم من نفس الحب فأعطوا الحركة الخفيفة للأخف والثقيلة للأثقل ويقال أحبه حبا ومحبة والمحبة أم باب هذه الأسماء

فصل وأما كلام الناس في حدها فكثير فقيل هي الميل الدائم بالقلب الهائم وقيل إيثار المحبوب على جميع المصحوب وقيل موافقة الحبيب." (٢)

"ومالك ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه وقيل هي بذلك المجهود فيما يرضى الحبيب وقيل هي سكون بلا اضطراب واضطراب بلا سكون فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٦

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٩

فيضطرب شوقا إليه ويسكن عنده وهذا معنى قول بعضهم هي حركة القلب على الدوام إلى المحبوب وسكونه عنده وقيل هي مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقيل هي أن يكون المحبوب أقرب إلى المحب من روحه كما قيل

يا مقيما في خاطري وجناني ... وبعيدا عن ناظري وعياني

أنت روحي إن كنت لست أراها ... فهي أدنى إلي من كل داني

وقيل هي حضور المحبوب عند المحب دائما كما قيل

خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقيل هي أن يستوي قرب دار المحبوب وبعدها عند المحب كما قيل

يا ثاويا بين الجوانح والحشى ... مني وإن بعدت علي دياره

عطفا على صب يحبك هائم ... إن لم تصله تصدعت أعشاره

لا يستفيق من الغرام وكلما ... حجبوك عنه تهتكت أستاره." (١)

"فصل: وأما الصبوة والصبا فمن أسمائها أيضا قال في الصحاح والصبا من الشوق يقال منه تصابا وصبا يصبو صبوة وصبوا أي مال إلى الجهل وأصبته الجارية وصبي صباء مثل سمع سماعا أي لعب مع الصبيان قلت أصل الكلمة من الميل يقال صبا إلى كذا أي مال إليه وسميت الصبوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبية والجمع صبايا مثل مطية ومطايا والتصابي هو تعاطي الصبوة مثل التمايل وبابه والفرق بين الصبا والصبوة والتصابي أن التصابي هي تعاطي الصبا وأن تفعل فعل ذي الصبوة وأما الصبا فهو نفس الميل وأما الصبوة فالمرة من ذلك مثل الغشوة والكبوة وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القسوة وقد قال يوسف الصديق عليه السلام ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾

فصل وأما الصبابة فقال في الصحاح هي رقة الشوق وحرارته يقال رجل صب عاشق مشتاق وقد صببت يا رجل بالكسر قال الشاعر

ولست تصب إلىالظاعنين ... إذا ما صديقك لم يصبب

قلت والصبابة من المضاعف من صب يصب والصبا والصبوة من المعتل وهم كثيرا ما يعاقبون بينهما فبينهما

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢١

تناسب لفظي ومعنوي قال الشاعر

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي." (١)

"والعشق المصدر وقيل هو مأخوذ من شجرة يقال لها عاشقة تخضر ثم تدق وتصفر قال الزجاج واشتقاق العاشق من ذلك وقال الفراء عشق عشقا وعشقا إذا أفرط في الحب والعاشق الفاعل والمعشوق المفعول والعشيق يقال لهذا ولهذا وامرأة عاشق وعاشقة قال

ولذ كطعم الصرخدي طرحته ... عشية خمس القوم والعين عاشقه

وقال الفراء العشق نبت لزج وسمي العشق الذي يكون من الإنسان للصوقه بالقلب وقال ابن الأعرابي العشقة اللبلابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الأشجار فاشتق من ذلك العاشق وقد اختلف الناس هل يطلق هذا الاسم في حق الله تعالى فقالت طائفة من الصوفية لا بأس بإطلاقه وذكروا فيه أثرا لا يثبت وفيه فإذا فعل ذلك عشقني وعشقته وقال جمهور الناس لا يطلق ذلك في حقه سبحانه وتعالى فلا يقال إنه يعشق ولا يقال عشقه عبده ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال أحدها عدم التوقيف بخلاف المحبة الثاني أن العشق إفراط المحبة ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالى فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلا أن يقال أفرط في حبه الثالث أنه مأخوذ من التغير." (٢)

"إذا أغصه تقول منها جميعا شجي بالكسر يشجى شجى قال الشاعر

لا تنكروا القتل وقد سبينا ... في حلقكم عظم وقد شجينا

أراد حلوقكم واشجى ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره ورجل شج أي حزين وامرأة شجية على فعلة فأطلق هذا الاسم على الحب للزومه كالشجى الذي يعلق بالحلق وينشب فيه

فصل وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب وقد وقع هذا الاسم في السنة ففي المسند من حديث عمار بن ياسر أنه صلى صلاة فأوجز فيها فقيل له أوجزت يا أبا اليقظان فقال لقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهن اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٤

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٨

لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وجاء في أثر إسرائيلي طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق وقد قال الله تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ قال بعض العارفين." (١)

"لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعدا للقاء تسكن به قلوبهم وبعد فهذه اللفظة من أسماء الحب قال في الصحاح الشوق والاشتياق نزاع النفس إلى الشيء يقال شاقني الشيء يشوقني فهو شائق وأنا مشوق وشوقني فتشوقت إذا هيج شوقك قال الراجز

يا دار مية بالدكاديك البرق ... سقيا لقد هيجت شوق المشتأق

يريد المشتاق قال سيبويه همز ما ليس بمهموز ضرورة

فصل واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيهما أقوى فقالت طائفة الشوق أقوى فإنه صفة لازمة والاشتياق فيه نوع افتعال كما يدل عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه وقالت فرقة الاشتياق أقوى لكثرة حروفه وكلما قوي المعنى وزاد زادوا حروفه وحكمت فرقة ثالثة بين القولين وقالت الاشتياق يكون إلى غائب وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب والصواب أن يقال الشوق مصدر شاقه يشوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه فالشوق داعية الاشتياق ومبداه والاشتياق موجبه وغايته فإنه يقال شاقني فاشتقت فالاشتياق فعل مطاوع لشاقني واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد فقالت طائفة يزول فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب فإذا وصل إليه انتهى السفر

وألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر." (٢)

"قالوا ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور ولهذا إنما يقال للغائب أنا إليك مشتاق وأما من لم يزل حاضرا مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه وقالت طائفة بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر

وأعظم ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الخيام من الخيام

قالوا ولأن الشوق هو حرقة المحبة والتهاب نارها في قلب المحب وذلك مما يزيده القرب والمواصلة والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غير النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب قال ابن الرومي

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٠

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣١

أعانقها والنفس بعد **مشوقة** ... إليها وهل بعد العناق تداني

وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيشتد ما ألقى من الهيمان

ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ... ليشفيه ما ترشف الشفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله ... سوى أن يرى الروحين تمتزجان

فصل وأما الخلابة فهي الحب الخادع وهو الحب الذي وصل إلى الخلب وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن وسمى الحب خلابة لأنه يخدع ألباب أربابه والخلابة الخديعة باللسان يقال خلبه يخلبه بالضم واختلبه مثله وفي المثل إذا لم تغلب فاخلب أي فاخدع والخلبة الخداعة من النساء قال الشاعر

أودى الشباب وحب الخالة الخلبة ... وقد برئت فما بالقلب من قلبه." (١)

"قال ابن السكيت رجل خلاب أي خداع كذاب ومنه البرق الخلب الذي لا غيث فيه كأنه خادع ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز إنما أنت برق خلب والخلب أيضا السحاب الذي لا مطر فيه ومنه الحديث إذا بايعت فقل لا خلابة أي لا خديعة والحب أحق ما يسمى بهذا الاسم لأنه يعمي ويصم ويخدع لب المحب وقلبه

فصل وأما البلابل فجمع بلبلة يقال بلابل الحب وبلابل **الشوق** وهي وساوسه وهمه قال في الصحاح البلبلة والبلبال الهم ووسواس الصدر

فصل وأما التباريح فيقال تباريح الحب وتباريح **الشوق** وتباريح الجوى وبرح به الحب **والشوق** إذا اصابه منه البرح وهو الشدة قال في الصحاح لقيت منه برحا بارحا أي شدة وأذى قال الشاعر

أجد هذا عمرك الله كلما ... دعاك الهوى برح لعينيك بارح

ولقيت منه بنات برح وبني برح ولقيت منه البرحين والبرحين بكسر الباء وضمها أي الشدائد والدواهي

فصل وأما السدم بالتحريك فهو الحب الذي يتبعه ندم وحزن قال في الصحاح السدم بالتحريك الندم والحزن وقد سدم بالكسر ورجل نادم سادم وندمان سدمان وهو إتباع وما له هم ولا سدم إلا ذاك." (٢)

"لهفا أي حزن وتحسر وكذلك التلهف على الشيء وقولهم يا لهف فلان كلمة يتحسر بها على ما فات واللهفان المتحسر واللهيف المضطر

فصل

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٢

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٣

وأما الحنين فقال في الصحاح الحنين **الشوق** وتوقان النفس تقول منه حن إليه يحن حنينا فهو حان والحنان الرحمة تقول منه حن عليه يحن حنانا ومنه قوله تعالى ﴿وحنانا من لدنا﴾ وتحنن عيه ترحم والعرب تقول حنانك يا رب وحنانيك بمعنى واحد أي رحمتك قال امرؤ القيس

ويمنحها بنو شمجى بن جرم ... معيزهم حنانك ذا الحنان

وقال طرفة

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وفي الحقيقة الحنين من آثار الحب وموجباته وحنين الناقة صوتها في نزاعها إلى ولدها وحنة الرجل امرأته قال

وليلة ذات دجى سريت ... ولم تضرني حنة وبيت

قلت سميت حنة لأن الرجل يحن إليها أين كان

فصل

وأما الاستكانة فهي أيضا من لوازم الحب وأحكامه لا من أسمائه المختصة." (١)

"فصل

وأما اللوعة فقال في الصحاح لوعة الحب حرقته وقد لاعه الحب يلوعه والتاع فؤاده أي احترق من **الشوق** ومنه قولهم أتان لاعة الفؤاد إلى جحشها قال الأصمعي أي لائعة الفؤاد وهي التي كأنها ولهى من الفزع

فصل

وأما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونا قال الله تعالى وفتناك فتونا أي امتحناك واختبرناك والفتنة يقال على ثلاثة معان أحدها الامتحان والاختبار ومنه قوله تعالى ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي امتحانك واختبارك والثاني الافتتان نفسه يقال هذه فتنة فلان أي افتتانه ومنه قوله تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يقال أصابته الفتنة وفتنته الدنيا وفتنته المرأة وأفتنته قال الأعشى

لئن فتنتني ولهى بالأمس أفتنت ... سعيدا فأضحى قد قلى كل مسلم

وأنكر الأصمعي أفتنته والثالث المفتون به نفسه يسمى فتنة قال الله تعالى ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٠

وأما قوله تعالى ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه وأما قوله تعالى ﴿يوم هم على النار." (١)

"البلوغ وفي الحديث إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم أي يقرب من ذلك وبالجملة فلا يستبين كون اللمم من أسماء الحب وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال إن المحبوب قد ألم بقلب المحب أي نزل به ومنه ألمم بنا أي انزل بنا ومنه قوله

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فصل

وأما الخبل فمن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذكر من أسمائه فإن أصله الفساد وجمعه خبول والخبل بالتحريك الجن يقال به خبل أي شيء من أهل الأرض وقد خبله وخبله واختبله إذا أفسد عقله أو عضوه ورجل مخبل وهو نوع من الجنون والفساد

فصل

وأما الرسيس فقد كثر في كلامهم رسيس الهوى **والشوق** ورسيس الحب فظن من أدخله في أماء الحب أنه منها وليس كذلك بل الرسيس الشيء الثابت فرسيس الحب ثباته ودوامه ويمكن أن يكون من رس الحمى ورسيسها وهو أول مسها فشبهوا رسيس الحب بحرارته وحرقته برسيس الحمى وكان ا لواجب على هؤلاء أن يجعلوا الأوار من أسماء الحب لأنه يضاف إليه قال الشاعر." (٢)

"وقد يكون الجمال موفرا لكنه ناقص الشعور به فتضعف محبته لذلك فلو كشف له عن حقيقته لأسر قلبه ولهذا أمر النساء بستر وجوههن عن الرجال فإن ظهور الوجه يسفر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان ولهذا شرع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة فإنه إذا شاهد حسنها وجمالها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والألفة بينهما كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله إذا أراد أحدكم خطبة امرأة فلينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما أي يلأم ويوافق ويصلح ومنه الأدام الذي يصلح به الخبز وإذا وجد ذلك كله وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة وربما لم تقع البتة فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة فكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه

وهذه المناسبة نوعان أصلية من أصل الخلقة وعارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمر من الأمور فإن

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٢

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٥

من ناسب قصدك قصده حصل التوافق بين روحك وروحه فإذا اختلف القصد زال التوافق فأما التناسب الأصلي فهو اتفاق أخلاق وتشاكل أرواح وشوق كل نفس إلى مشاكلها فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة فتنجذب إليه بالطبع فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع وقد يقع الانجذاب والميل." (١)

"والجمال ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية تعشق صفات الكمال بالذات فأحب شيء إليها العلم والشجاعة والعفة والجود والإحسان والصبر والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها بخلاف النفوس اللئيمة الدنية فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات وكثير من الناس يحمله على الجود والإحسان فرط عشقه ومحبته له واللذة التي يجدها في بذله كما قال المأمون لقد حبب إلي العفو حتى خشيت أن لا أؤجر عليه وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى تعلمت هذا العلم لله فقال أما لله فعزيز ولكن شيء حبب إلي ففعلته وقال آخر إني لأفرح بالعطاء وألتذ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات

وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز عند البارح الغصن الرطب

وقال شاعر الحماسة

تراه إذا ماجئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظم عشق فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به ولا يقبل فيه عذل عاذل ولا تأخذه فيه لومة لائم وأما عشاق العلم فأعظم شغفا به وعشقا له من كل عاشق بمعشوقه وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره هنيئا لك إذ ليست لك ضرة فقالت والله لهذه الكتب أضر علي من عدة ضرائر." (٢)

"وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال كان الجد إذا دخل الخلاء يقول لي اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى اسمع وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقة قرأ فيه فإذا غلب وضعه فدخل عليه الطبيب يوما وهو كذلك فقال إن هذا لا يحل لك فإنك تعين على نفسك وتكون سببا لفوات مطلوبك وحدثني شيخنا قال ابتدأني مرض فقال لي الطبيب إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض فقلت له لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك أليست

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٦٧

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٦٩

النفس إذا فرحت وسرت قويت الطبيعة فدفعت المرض فقال بلى فقلت له فإن نفسي تسر بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجد راحة فقال هذا خارج عن علاجنا أو كما قال

فعشق صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها **معشوقا** كما قيل

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكنت ولم يزلها إلا مانع أقوى من السبب وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل فمن أحبك لأمر ولى عند انقضائه فداعى المحبة وباعثها إن كان غرضا للمحب لم يكن لمحبته بقاء وإن كان أمرا قائما بالمحبوب سريع الزوال والانتقال زالت محبته بزواله وإن كان صفة لازمة فمحبته باقية ببقاء داعيها مالم يارضه يعارضه يوجب زوالها وهو إما تغير حال في المحب أو أذى من المحبوب فإن الأذى إما أن يضعف المحبة أو يزيلها." (١)

"..

للامتزاج والاختلاط بين البدنين كما هو بين الروحين ولهذا يسمى جماعا وخلاطا ونكاحا وإفضاء لأن كل واحد منهما يفضي إلى صاحبه فيزول الفضاء بينهما

فإن قيل فهذا يوجب تأكد الحب بالجماع وقوته به والواقع خلافه فإن الجماع يطفيء نار المحبة ويبرد حرارتها ويسكن نفس المحب قيل الناس مختلفون في هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبة وأمكن وأثبت مما قبله ويكون بمنزلة من وصف له شيء ملائم فأحبه فلما ذاقه كان له اشد محبة وإليه أشد اشتياقا وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده وهو أعلم بهم فيقولون إنهم يسبحونك ويحمدونك ويقدسونك فيقول وهل رأوني فيقولون لا فيقول فكيف لو رأوني تقول الملائكة لو رأوك لكانوا أشد تسبيحا وتقديسا وتمجيدا ثم يقولون ويسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا فيقول فكيف لو رأوها فتقول الملائكة لو رأوها لكانوا أشد لها طالبا وذكر الحديث ومعلوم أن محبة من ذاق الشيء الملائم وعدم صبره عنه أقوى من محبة من لم يذقه بل نفسه مفطومة عنه والمودة التي بين الزوجين والمحبة بعد الجماع أعظم من التي كانت قبله والسبب الطبيعي أن شهوة القلب ممتزجة بلذة العين فإذا رأت العين اشتهى القلب فإذا باشر الجسم الجسم اجتمع شهوة

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٧٠

القلب ولذة العين ولذة المباشرة فإذا فارق هذه الحال كان نزاع نفسه إليها أشد **وشوقه** إليها أعظم كما قيل

وأكثر ما يكون **الشوق** يوما ... إذا دنت الديار من الديار." (١)

"فقالت مرحبا بفتى كريم ... ولا أهلا بذي الخنع اليراع

إذا ما البعل لم يك ذا جماع ... يرى في البيت من سقط المتاع

وقال آخر

ولما شكوت الحب قالت كذبتني ... فكم زورة مني قصدتك خاليا

فما حل فيها من إزار للذة ... قعدت وحاجات الفؤاد كما هيا

وهل راحة للمرء في ورد منهل ... ويرجع بعد الورد ظمآن صاديا

وقال العباس بن الأحنف

لم يصف وصل **لمعشوقين** لم يذقا ... وصلا يجل على كل اللذاذات

وقال هدبة بن الخشرم

والله ما يشفي الفؤاد الهائما ... نفث الرقى وعقدك التمائما

ولا الحديث دون أن تلازما ... ولا اللزام دون أن تفاعما

ولا الفعام دون أن تفاقما ... وتعلو القوائم القوائما

وقال آخر

قولا لعاتكة التي ... في نظرة قضت الوطر." (٢)

"وصف له فكثير من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبة وما رآه لكن وصف له ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المرأة أن تنعت المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها والحديث في الصحيح الثاني الاستحسان فإن لم يورث نظره استحسانا لم تقع المحبة الثالث الفكر في المنظور وحديث النفس به فإن شغل عنه بغيره مما هو أهم عنده منه لم يعلق حبه بقلبه وإن كان لا يعدم خطرات وسوانح ولهذا قيل العشق حركة قلب فارغ ومتى صادف هذا النظر والاستحسان والفكر قلبا خاليا تمكن منه كما قيل

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٧٩

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٨١

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فإن قيل فهل يتوقف على الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا قيل الناس في هذا على أقسام منهم من يعشق الجمال المطلق فقلبه معلق به إن استقلت ركائبه وإن حلت مضاربه وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمعت نفسه في وصاله أم لم تطمع ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في وصاله فإن يئس منه لم يعلق حبه بقلبه والأقسام الثلاثة واقعة في الناس فإذا وجد النظر والاستحسان والفكر والطمع هاجت بلابله وأمكن من **معشوقه** مقاتله واستحكم داؤه وعجز عن الأطباء دواؤه

تالله ما أسر الهوى من عاشق ... إلا وعز على النفوس فكاكه

وإذا كان النظر مبدأ العشق فحقيق بالمطلق أن لا يعرض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه وإذ قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حكمه وغائلته." (١)

"فعيني وقلبي قد تقاسمتا دمي ... فيا رب كن عونا على العين والقلب

قالت هذه ولما سقيت القلب ماء المحبة بكؤوسك أوقدت عليه نار **الشوق** فارتفع إليك البخار فتقاطر منك فشرقت بشربه أولا وشرقت بحر ناره ثانيا قال

خذي بيدي ثم اكشفي الثوب فانظري ... ضنى جسدي لكنني أتستر

وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنها روح تذوب فتقطر

قالت والحاكم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن في الأثر المشهور لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق حتى تختصم الروح والجسد فيقول الجسد للروح أنت الذي حركتني وأمرتني وصرفتني وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك فتقول الروح له وأنت ألذي أكلت وشربت وباشرت وتنعمت فأنت الذي تستحق العقوبة فيرسل الله سبحانه إليهما ملكا يحكم بينهما فيقول مثلكما مثل مقعد بصير وأعمى يمشي دخلا بستانا فقال المقعد للأعمى أنا أرى ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيع القيام وقال الأعمى أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئا فقال له المقعد تعال فاحملني فأنت تمشي وأنا أتناول فعلى من تكون العقوبة فيقول عليهما قال فكذلك أنتما وبالله التوفيق." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٩١

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١١١

"وليس مباحا عندنا قتل مسلم ... بلا ترة بل قاتل النفس يقتل

ولكنه إن مات في الحب لم يكن ... له قود فيه ولا عنه يعقل

وصالك من تهوى وإن صد واجب ... عليك كذا حكم المتيم يفعل

فهذا جواب فيه عندي قناعة ... لما جئت عنه أيها الصب تسأل

ويكفي أن المعتزلة من أشد الناس تعظيما للذنوب وهم يخلدون أصحاب الكبائر ولا يرون تحريم ذلك كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه المشهور لبعض المعتزلة

سألنا أبا عثمان عمرا وواصلا ... عن الضم والتقبيل للخد والجيد

فقالا جميعا والذي هو عادل ... يجوز بلا إثم فدع قول تفنيد

وقال إسحاق بن شبيب

سألنا شيوخ الواسطيين كلهم ... عن الرشف والتقبيل هل فيهما إثم

فقالوا جميعا ليس إثما لزوجة ... ولا خلة والضم من هذه غنم

وأنشد أبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير في كتابه شرح الكامل

فلما أن أبيح لنا التلاقي ... تعانقنا كما اعتنق الصديق

وهل حرجا تراه أو حراما ... مشوق ضمه صب مشوق

وقال الخطيب في تاريخ بغداد حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسن إملاء حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حيويه وابن شاذان قالوا حدثنا." (١)

"أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه بقرطبة قال دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه فقلت له كيف تجدك قال حب من تعلم أورثني ما ترى فقلت له ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه قال الاستمتاع على وجهين أحدهما النظر المباح والثاني اللذة المحظورة فأما النظر المباح فأورثني ما ترى وذكر القصة وستأتي في باب عفاف العشاق والمقصود أنه لم ير النظر إلى معشوقه ولا عشقه حراما وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حزم في كتاب طوق الحمامة له قالوا ونحن نحاكمكم إلى واحد يعد بآلاف مؤلفة وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل

ما تقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم في رجل عاشق في صورة وهي مصرة على هجره منذ زمن طويل لا تزيده إلا بعدا ولا يزداد لها إلا حبا وعشقه لهذه الصورة من غير فسق ولا خنى ولا هو ممن يدنس عشقه

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١١٧

بزني وقد أفضى به الحال إلى الهلاك لا محالة إن بقي مع م حبوبه على هذه الحالة فهل يحل لمن هذه حاله أن يهجر وهل يجب وصاله علىالمحبوب المذكور وهل يأثم ببقائه على هجره وما يجب من تفاصيل أمرهما وما لكل واحد منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف
فأجاب بخطه بجواب طويل قال في أثنائه فالعاشق له ثلاث مقامات ابتداء وتوسط ونهاية أما ابتداؤه فواجب عليه فيه كتمان ذلك وعدم إفشائه للخلق مراعيا في ذلك شرائط الفتوة من العفة مع القدرة فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه فيخف بإعلامه وشكواه إليه ما يجد منه ويحذر من اطلاع الناس على ذلك فإن زاد به الأمر حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوسين فانقسم العشاق." (١)

"والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يباح له وصاله وسنذكر ذلك في باب مساعدة العشاق بالمباح من التلاق إن شاء الله تعالى
وأما ما ذكروا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيين فأما أبو عثمان المذكور وهو عمرو بن عبيد وواصل وهو واصل بن عطاء وهما شيخا القوم ولو أفتيا بذلك لكانت فتيا من مبتدعين مذمومين عند السلف والخلف فكيف والمخبر بذلك رجل مجهول من المعتزلة كذب على من يعظمهما المعتزلة لينفق فسقه
وأما قصة محمد بن داود الأصبهاني فغايتها أن تكون من سعيه المعفو المغفور لا من عمله المشكور وسلط الناس بذلك على عرضه والله يغفر لنا وله فإنه تعرض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحب فراش وهذا لو كان ممن يباح له لكان نقصا وعيبا فكيف من صبي أجنبي وأرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصلته إذا لم يطمع في ذلك منه فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه وجعله قدوة لمن يأتم به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره وكيد الشيطان أدق من هذا
وأما أبو محمد فإنه على قدر يبسه وقسوته في التمسك بالظاهر وإلغائه للمعاني والمناسبات والحكم والعلل الشرعية انماع في باب العشق والنظر وسماع الملاهي المحرمة فوسع هذا الباب جدا وضيق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية جدا وهو من انحرافه في الطرفين حين رد الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه في تحريم آلات اللهو بأنه معلق غير مسند وخفي عليه أن البخاري لقي من علقه عنه وسمع منه وهو هشام

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١١٨

بن عمار وخفي عليه أن الحديث قد أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار فأبطل سنة صحيحة." (١)

"الباب العاشر: في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس

فيه فالذي عليه الأطباء قاطبة أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل وسببه النفساني الاستحسان والفكر وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مني محتقن ولذلك أكثر ما يعتري العزاب وكثرة الجماع تزيله بسرعة

وقال بعض الفلاسفة العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينمي ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع والحرص على الطلب حتى يؤديه ذلك إلى الغم والقلق ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إليها ومن غلبة السوداء يحصل له فسادالفكر ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون وتمني مالا يتم حتى يؤدي إلى الجنون فحينئذ ربما قتل العاشق نفسه وربما مات غما وربما نظر إلى **معشوقه** فمات فرحا وربما شهق شهقة فتختنق روحه فيبقى أربعة وعشرين ساعة فيظن أنه قد مات فيدفن وهو حي وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تامور قلبه وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت وتراه إذا ذكر له من يهواه هرب دمه واستحال لونه وقال أفلاطون العشق حركة النفس الفارغة وقال أرسطاطاليس العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب ومن هذا أخذ جرير قوله." (٢)

"فلست براء عيب ذي الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

وقال أرسطو العشق جهل عارض صادف قلبا فارغا لا شغل له من تجارة ولا صناعة وقال غيره هو سوء اختيار صادف نفسا فارغة

قال قيس بن الملوح

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وقال بعضهم لم أر حقا أشبه بباطل ولا باطلا أشبه بحق من العشق هزله جد وجده هزل وأوله لعب وآخره عطب وقال الجاحظ العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود والبخل اسم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٣٠

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٣٧

لما جاوز الاقتصاد فكل عشق يسمى حبا وليس كل حب يسمى عشقا والمحبة جنس والعشق نوع منها ألا ترى أن كل محبة **شوق** وليس كل **شوق** محبة وقالت فرقة أخرى العشق هو الاستهيام والتضرع واللوذان **بالمعشوق** والوجد هو الحب الساكن والهوى أن يهوى الشيء فيتبعه غيا كان أو رشدا والحب حرف ينتظم هذه الثلاثة وقال المأمون ليحيى بن أكثم ما العشق فقال سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثرها نفسه فقال له ثمامة بن أشرس اسكت يا يحيى إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو محرم صاد ظبيا فأما هذه فمن مسائلنا نحن فقال له المأمون قل يا ثمامة قال العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جارية ملك الأبدان وأرواحها." (١)

"والقلوب وخواطرها والعقول وآراءها قد أعطي عنان طاعتها وقوة تصرفها توارى عن الأبصار مدخله وعمي في القلوب مسلكه فقال له المأمون أحسنت يا ثمامة وأمر له بألف دينار

وقال بعضهم قلت لمجنون قد أذهب عقله العشق أجز هذاالبيت

وما الحب إلا شعلة قدحت بها ... عيون المها باللحظ بين الجوانح

فقال بديها

ونار الهوى تخفى وفي القلب فعلها ... كفعل الذي جاءت به كف قادح

وقال الأصمعي سألت أعرابيا عن العشق فقال جل والله عن أن يرى وخفي عن أبصار الورى فهو في الصدور كامن ككمون النار في الحجر إن قدح أوري وإن ترك توارى وقال بعضهم العشق نوع من الجنون والجنون فنون فالعشق فن من فنونه واحتج بقول قيس

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... ألعشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

وقال آخر إذا امتزجت جواهر النفوس بوصف المشاكلة أنتجت لمح نور ساطع تستضيء به النفس في معرفة محاسن **المعشوق** فتسلك طريق الوصول إليه وقال أعرابي العشق أعظم مسلكا في القلب من الروح في الجسم وأملك بالنفس من ذاتها بطن وظهر فامتنع وصفه عن اللسان وخفي نعته عن البيان فهو بين السحر والجنون لطيف المسلك والكمون وقيل العشق ملك غشوم مسلط ظلوم دانت له القلوب وانقادت له الألباب وخضعت." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٣٨

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٣٩

.."

له النفوس العقل أسيره والنظر رسوله واللحظ لفظه دقيق المسلك عسير المخرج وقيل لآخر ما تقول في العشق فقال إن لم يكن طرفا من الجنون فهو نوع من السحر

وأما الفلاسفة المشاؤون فقالوا هو اتفاق أخلاق وتشاكل محبات وتجانسها **وشوق** كل نفس إلى مشاكلها ومجانسها في الخلقة القديمة قبل إهباطها إلى الأجساد قلت هذا مبني على قولهم الفاسد بتقدم النفوس على الأبدان وعليه بنى ابن سينا قصيدته المشهورة

هبطت إليك من المحل الأرفع

وسمعت شيخنا يحكي عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشريشي شارح المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له قال وهي مخالفة لما قرره في كتبه من أن حدوث النفس الناطقة مع البدن

وقال آخرون في وصفه دق عن الأفهام مسلكه وخفي عن الأبصار موضعه وحارت العقول في كيفية تمكنه غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يتغشى سائر الأعضاء فيبدي الرعدة في الأطراف والصفرة في الألوان والضعف في الرأي واللجلجة في الكلام والزلل والعثار حتى ينسب صاحبه إلى الجنون وقيل لأبي زهير المديني ما العشق قال الجنون والذل وهو داء أهل الظرف ونظر عاشق إلى **معشوقه** فارتعدت فرائصه وغشي عليه فقيل لحكيم ما الذي أصابه فقال نظر إلى من يحبه فانفرج له قلبه فتحرك الجسم بانفراج القلب فقيل له نحن نحب أولادنا وأهلنا ولا." (١)

"محنة الظراف العشاق معذورون على الأحوال إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار بل اعتراهم عن جبر واضطرار والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور لا على المقضي عليه والمقدور فقد قيل إن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حملها فكيف ترى هذه وضعته أباختيار كان ذلك أم باضطرار قال غيره وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام وما تمكن حبه من قلوبهن فكيف لو شغفن حبا وكان مصعب بن الزبير إذا رأته المرأة حاضت لحسنه وجماله قال فيه الشاعر

إنما مصعب شهاب من الل ... ه تجلت عن وجهه الظلماء

ومن هاهنا أخذ أحمد بن الحسين الكندي المتنبي قوله

تق الله واستر ذا الجمال ببرقع ... فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٤٠

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالمحبة التي لا تملك وقال هشام ابن عروة عن أبيه مات بالمدينة عاشق فصلى عليه زيد بن ثابت فقيل له في ذلك فقال إني رحمته ورؤي أبو السائب المخزومي وكان من العلم والدين بمكان متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول اللهم ارحم العاشقين وقو قلوبهم واعطف عليهم قلوب **المعشوقين** فقيل له في ذلك فقال والله للدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة ثم أنشد

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى ... للعاشقين يطيب يا هجر

ماذا تريد من الذين جفونهم ... قرحى وحشو قلوبهم جمر." (١)

"عبدي وأنا ربك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أخطأ من شدة الفرح " ولم يكن بذلك كافرا لعدم قصده وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحقيقا لشدة الفرح الذي أفضى به إلى ذلك وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل وسبب اللذة إدراك المحبوب فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويا والعقل ضعيفا حدث السكر لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة وتارة من قوة السبب الوارد ولهذا يحصل السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر مالا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه

فصل

ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين من جهة أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل ومن جهة أنها تحرم النفس إلى نحو محبوبها كائنا ما كان فيحصل بتلك الحركة **الشوق** والطلب مع التخيل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيرا ليكمل لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المطرب فيجدون من لذة الوصال وسكره في هذه الحال مالا يجدونه بدونها

فالخمر شراب النفوس والألحان شراب الأرواح ولا سيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال المحب على مقتضالحال التي." (٢)

"النظر إلى سواها ونفسه عن التطلع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذته ولذة صاحب الصورة المحرمة وهذا أطيب نعيم ينال من الدنيا وجعله النبي صلى الله عليه وسلم ثالث ثلاثة بها ينال خير الدنيا والآخرة

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٤٤

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٥٣

وهي قلب شاكر ولسان ذاكر وزوجة حسناء إن نظر إليها سرته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله فالله المستعان

وقال القاسم بن عبد الرحمن كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال أين العزاب فيقول ادنوا مني ثم قولوا اللهم ارزقني امرأة إذا نظرت إليها! سرتني وإذا أمرتها أطاعتني وإذا غبت عنها حفظت غيبتي في نفسها ومالي

والألم والحزن والهم والغم ينشأ من عدم العلم بالمحبوب النافع أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته وهذا من أعظم الألم ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ وفي دار الحيوان بفوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدنيا من ثلاثة أوجه أحدها معرفته هناك بكمال ما فاته ومقداره الثاني شدة حاجته إليه وشوق نفسه إليه مع أنه قد حيل بينه وبينه كما قال الله تعالى ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ الثالث حصول ضده المؤلم له فليتأمل العاقل هذا الموضع ولينزل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه وهو أفقر شيىء وأحوجه إليه فواتا لا يرجى تداركه وحصل على ضده فيا لها من مصيبة ما أوجعها وحالة ما أفظعها." (١)

"فأين هذه الحال من حالة من يلتذ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ بقهر العدو وجهاد في سبيله فضلا عما يلتذ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر فكيف إذا تجردت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتصلت بالرفيق الأعلى ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ فإذا أفضى إلى دار النعيم فهنا لك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فبؤسا وتعسا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزها الشوق إلى ذلك طربا ولا تتقد نار إرادتها لذلك رغبا ولا تعبد عما يصد عن ذلك رهبا فبصائرها كما قيل

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل مظلم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٥٩

تجول حول الحش إذا جالت النفوس العلوية حول العرش وتندس في الأحجار إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار." (١)

"وهذه اللذة وإن كان طلابها أشرف نفوسا من طلاب اللذة الأولى فإن آلامها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها فإن صاحبها منتصب لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه ولهذا شروط وحقوق تفوت على صاحبها كثيرا من لذاته الحسية ولا يتم إلا بتحمل مشاق وآلام أعظم منها فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسرت بحصولها وقد قيل إنه لا حقيقة للذة في الدنيا وإنما غايتها دفع آلام كما يدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرئاسة والجاه والتحقيق أن اللذة أمر وجودي يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضاد

فصل

وأما اللذة العقلية الروحانية فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات وهو لذة النفس الفاضلة العلوية الشريفة فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضا عن كل شيء ولا يتعوض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة نسبتها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا فإنه ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به والأنس بقربه **والشوق** إلى لقائه ورؤيته وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا ولذلك كان مثقال ذرة من إيمان بالله ورسوله يخلص من الخلود في دار الآلام." (٢)

"فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها قال بعض العارفين من قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها ويفر منه فرارهم من المؤلم وهذا موضع الحاكم فيه الذوق لا مجرد لسان العلم وكان بعض العارفين يقول مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها فيقال له وما هو فيقول محبة الله والأنس به **والشوق** إلى لقائه ومعرفة

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٦٠

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٦٥

أسمائه وصفاته وقال آخر أطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته وألذ ما في الآخرة رؤيته وسماع كلامه بلا واسطة

وقال آخر والله إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال إنهم لفي عيش طيب وأنت ترى محبة من في محبته عذاب القلب والروح كيف توجب لصاحبها لذة يتمنى أنه لا يفارقه حبه كما قال شاعر الحماسة

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

قالت رابعة شغلوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد وقال سلم الخواص تركتموه وأقبل بعضكم على بعض ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب وقالت امرأة من." (١)

"العابدات لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذخر لها في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لها في الدنيا عيش ولم تقر لها في الدنيا عين وقال بعض المحبين إن حبه عز وجل شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذة تداني محبته ولا يؤملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم وقال بعض السلف ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم مالا خطر له مما وعد به من لا أصدق منه حديثا وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ ﴿أم على قلوب أقفالها﴾ ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرض عن ذكره العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خلق له لكفى بذلك عقوبة

وقد روى عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فما جلاؤها قال تلاوة القرآن" وقال بعض العارفين إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه وقال رجل للحسن يا أبا سعيد

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٦٦

أشكو إليك قسوة قلبي قال أذبه بالذكر وأبعد القلوب من الله القلب القاسي ولا يذهب قساوته إلا حب مقلق أو خوف مزعج فإن قيل ما السبب الذي لأجله يلتذ المحب بحبه وإن لم." (١)

"وقال صالح عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن مسعود رضي الله عنه قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في قريب من ثمانين رجلا ليس فيهم إلا قرشي والله ما رأيت صفحة وجوه قط أحسن من وجوههم يومئذ قال فذكروا النساء فتحدثوا فيهن وتحدثت معهم حتى أحببت أن نسكت قالوا ولولا لطافة الحب ولذته ما تمناه المتمنون وقال شاعر الحماسة

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

قالوا والعشق المباح مما يؤجر عليه العاشق كما قال شريك بن عبد الله وقد سئل عن العشاق فقال أشدهم حبا أعظمهم أجرا وصدق والله إذا كان **المعشوق** ممن يحب الله للعاشق قربه ووصله وقالت امرأة

لن يقبل الله من **معشوقه** عملا ... يوما وعاشقها لهفان مهجور

ليست بمأجورة في قتل عاشقها ... لكن عاشقها في ذاك مأجور

ونحن نقول متى باتت مهاجرة لفراش عاشقها الذي هو بعلها لعنتها الملائكة حتى تصبح قالوا والعشق يصفي العقل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلي الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان وهو خلق الكرام كما قيل

وما أحببتها فحشا ولكن ... رأيت الحب أخلاق الكرام

قالوا وأرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة ضعيفة وأزواجهم." (٢)

"الباب الخامس عشر فيمن ذم العشق وتبرم به وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخبارا عن المؤمنين ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٦٧

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٧٣

الذي سألوه فيه أن لا يحملهم مالا طاقة لهم به وقد فسر ذلك بالعشق وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به وقال مكحول هو شدة الغلمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه قال الإمام أحمد تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق وهذا مطابق لحال العاشق فإنه أذل الناس **لمعشوقه** ولما يحصل به رضاه والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب كما قيل

اخضع وذل لمن تحب فليس في ... شرع الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر

مساكين أهل العشق حتى قبورهم ... عليها تراب الذل بين المقابر." (١)

"قالوا وكيف يمدح أمر يمنع القرار ويسلب المنام ويوله العقل ويحدث الجنون بل هو نفسه جنون كما قال بعض الحكماء الجنون فنون والعشق فن من فنونه كما قال بعض العشاق

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... ألعشق أعظم مما بالمجانين

ألعشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون في الحين

قالوا وكم من عاشق أتلف في **معشوقه** ماله وعرضه ونفسه وضيع أهله ومصالح دينه ودنياه قال الزبير بن بكار جاءت بدوية إلى أخت لها فقالت كيف بك من حب فلان قالت حرك والله حبه الساكن وسكن المتحرك ثم أنشأت تقول

فلو أن ما بي بالحصى فلق الحصى ... وبالريح لم يسمع لهن هبوب

ولو أنني أستغفر الله كلما ... ذكرتك لم تكتب علي ذنوب

فقلت والله لأسألنه كيف هو من حبك فجاءته فسألته فقال إنما الهوى هوان ولكنه خولف باسمه وإنما يعرف ذلك من استبكته المعالم والطلول

وأنشد أبو الفضل الربعي

قد أمطرت عيني دما فدماؤها ... بعد الدموع من الجفون هوامل

كيف العزاء ولا يزال من الضنى ... في الجسم مني والجوانح نازل

لهفي على زمن مضى تجتازني ... فيه صروف الدهر وهي عواقل

قالوا والعشق هو الداء الدوي الذي تذوب معه الأرواح ولا يقع معه." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٨٢

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٨٤

"وقال ابن المعتز

الحب داء عضال لا دواء له ... يحار فيه الأطباء النحارير

قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا ... في وصفه فإذا بالقوم تقصير

وقال أعرابي

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا ... يذل به طوع اللسان فيوصف

ولكنه شيء قضى الله أن ... هو الموت أو شيء من الموت أعنف

فأوله سقم وآخره ضنى ... وأوسطه شوق يشف ويتلف

وروع وتسهيد وهم وحسرة ... ووجد على وجد يزيد ويضعف

وقال عبد المحسن الصوري

ما الحب إلا مسلك خطر ... عسر النجاة وموطىء زلق

وقال آخر

وكان ابتداء الذي بي مجونا ... فلما تمكن أمسى جنونا

وكنت أظن الهوى هينا ... فلاقيت منه عذابا مهينا

وقالت امرأة

رأيت الهوى حلوا إذا اجتمع الشمل ... ومرا على الهجران لا بل هو القتل

فمن لم يذق للهجر طعما فإنه ... إذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل

وقد ذقت طعميه على القرب والنوى ... فأبعده قتل وأقربه خبل." (١)

"بقي هاهنا قسم آخر وهو عشق محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق كمن يعشق امرأته أو أمته فيفارقها بموت أو غيره فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو فهذا نوع من الابتلاء إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين وإن سخط وجزع فاته معشوقه وثوابه وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم فدرجته فوق درجة الصبر وأعلى من ذلك أن يقابلها بالشكر نظرا إلى حسن اختيار لله له فإنه ما يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له فإذا علم أن هذا القضاء خير له اقتضى ذلك شكره لله على ذلك الخير الذي قضاه له وإن لم يعلم كونه خير له فليسلم للصادق المصدوق في خبره المؤكد باليمين حيث يقول: "والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/١٨٦

أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن" وإيمان العبد يأمره بأن يعتقد بأن ذلك القضاء خير له وذلك يقتضي شكر من قضاه وقدره وبالله التوفيق." (١)

"هذا فوجه عبد الملك إلى الزبير يخطب رملة على خالد فذكروا لها ذلك فقالت لا والله أو يطلق نساءه فطلق امرأتين كانتا عنده وظعن بها إلى الشام وكان يقول

أليس يزيد **الشوق** في كل ليلة ... وفي كل يوم من حبيبتنا قربا

خليلي ما من ساعة تذكرانها ... من الدهر إلا فرجت عني الكربا

أحب بني العوام طرا لحبها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

وذكر الخرائطي أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث على أحد من جنده ثم وجده قد أخل بمركزه أقامه على كرسي ثم سمر يديه في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه فلا يزال يتشحط حتى يموت وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهد بعرس ابنة عمه فلما صار في مركزه كتب إلى ابنة عمه كتابا ثم كتب في أسفله

لولا مخافة بشر أو عقوبته ... وأن يرى بعد ذا في الكف مسمار

إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم ... إن المحب إذا ما اشتاق زوار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه ثم كتبت في أسفله." (٢)

"ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو ... كانت عقوبته في فجوة النار

بل المحب الذي لا شيء يفزعه ... أو يستقر ومن يهواه في الدار

فلما قرأ الكتاب قال لا خير في الحياة بعد هذا وأقبل حتى دخل المدينة فأتى بشر بن مروان في وقت غدائه فلما فرغ من غدائه أدخل عليه فقال ما الذي دعاك إلى تعطيل ثغرك أما سمعت النداء فقال اسمع عذري فإما عفوت وإما عاقبت فقال ويلك وهل لك من عذر فقص عليه قصته وقصة ابنة عمه فقال أولى لكما يا غلام خط على اسمه من البعث وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك

سهرت ومن أهدى لي **الشوق** نائم ... وعذب قلبي بالهوى وهو سالم

فواحسرتا حتى متى أنا قائل ... لمن لامني في حبكم أنت ظالم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٠٢

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٠٧

وحتى متى أخفي الهوى وأسره ... وأدفن **شوقي** في الحشا وأكاتم

أريد الذي قد سركم بمساءتي ... ليغفل واش أو ليعذر لائم

وقال آخر

بي لا بها ما أقاسي من تجنيا ... ومن جوى الحب في الأحشاء أفديها

والله يعلم أني لا أسر بأن ... تلقى من الوجد ما لاقيته فيها

خوف البكاء كما أبكي فتتركني ... أبكي على كبدي طورا وأبكيها

وقال العباس بن هشام الكلبي ضرب عبد الملك بن مروان بعثا إلى اليمن فأقاموا سنين حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال والله لأعسن الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناس ماذا يقولون في البعث الذي أغزيت فيه." (١)

"وقال آخر

لو أبصر الوجه منها وهو منهزم ... ليلا وأعداؤه من خلفه وقفا

وقال آخر

يا طيب مرعى مقلة لم تخف ... بوجنتيها زجر حراس

حلت بوجه لم يغض ماؤه ... ولم تخضه أعين الناس

وقال آخر

فلم يزل خدها ركنا ألوذ به ... والخال في خدها يغني عن الحجر

وقول الآخر وأنشده المبرد

وأحسن من ربع ومن وصف دمنة ... ومن جبلى طي ومن وصفكم سلعا

تلاحظ عيني عاشقين كلاهما ... له مقلة في خد **معشوقه** ترعى

وأنشد ثعلب

خزاعية الأطراف مرية الحشا ... فزارية العينين طائية الفم

ومكية في الطيب والعطر دائما ... تبدت لنا بين الحطيم وزمزم

ثم قال وصفها بما يستحسن من كل قبيلة

وقال صالح بن حسان يوما لأصحابه هل تعرفون بيتا من الغزل في امرأة خفرة قلنا نعم بيت لحاتم في زوجته

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٠٨

ماوية

يضيء لها البيت الظليل خصاصه ... إذا هي يوما حاولت أن تبسما." (١)

"ولي من أبيات

يدمي الحرير أديمها من مسه ... فأديمها منه أرق وأنعم

فصل فيا أيها العاشق سمعه قبل طرفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانا وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر والمؤمنون يشتاقون إلى الجنة وما رأوها ولو رأوها لكانوا أشد لها شوقا والصرورة يكاد قلبه يذوب شوقا إلى رؤية البيت الحرام فإن شاقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن

فاسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح

وحدث النفس بعشق الألى ... في عشقهن المتجر الرابح

واعمل على الوصل فقد أمكنت ... أسبابه ووقتها رائح

فصل وقد وصف الله سبحانه حور الجنة بأحسن الصفات وحلاهن بأحسن الحلي وشوق الخطاب إليهن حتى كأنهم يرونهن رؤية العين قال الطبراني حدثنا بكر بن سهل الدمياطي حدثنا عمرو بن هشام البيروني حدثنا سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿حور عين﴾ قال: "حور بيض عين ضخام العيون شعر الحوراء بمنزلة." (٢)

"ووصائف من خلفها وأمامها ... وعلى شمائلها وعن أيمان

كالبدر ليلة تمه قد حف في ... غسق الدجى بكواكب الميزان

فلسانه وفؤاده والطرف في ... دهش وإعجاب وفي سبحان

تستنطق الأفواه بالتسبيح إذ ... تبدو فسبحان العظيم الشان

والقلب قبل زفافها في عرسه ... والعرس إثر العرس متصلان

حتى إذا واجهته تقابلا ... أرأيت إذ يتقابل القمران

فسل المتيم هل يحل الصبر عن ... ضم وتقبيل وعن فلتان

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٣٩

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٤١

وسل المتيم أين خلف صبره ... في أي واد أم بأي مكان

وسل المتيم كيف حالته وقد ... ملئت له الأذنان والعينان

من منطق رقت حواشيه ووج ... هـ كم به للشمس من جريان

وسل المتيم كيف عيشته إذا ... وهما على فرشيهما خلوان

يتساقطان لآلئا منثورة ... من بين منظوم كنظم جمان

وسل المتيم كيف مجلسه مع ال ... محبوب في روح وفي ريحان

وتدور كاسات الرحيق عليهما ... بأكف أقمار من الولدان

يتنازعان الكأس هذا مرة ... والخود أخرى ثم يتكئان

فيضمها وتضمه أرأيت مع ... شوقين بعد البعد يلتقيان

غاب الرقيب وغاب كل منكد ... وهما بثوب الوصل مشتملان

أتراهما ضجرين من ذا العيش ل ... وحياة ربك ما هما ضجران

يا عاشقا هانت عليه نفسه ... إذ باعها غبنا بكل هوان

أترى يليق بعاقل بيع الذي ... يبقى وهذا وصفه بالفاني." (١)

"أحب بني العوام طرا لحبها ... ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

وقال آخر

يشتاق واديها ولولا حبكم ... ما شاقه واد زهت أزهاره

وقال الآخر

فيا ساكني أكناف طيبة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

وفي أخبار العشاق أن عاشقا عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه فوجد في تركته اثنا عشر حملا وفردة من السراويلات ذكره البصري وعشق آخر الهاوونات من أجل صوت هاون محبوبته فوجد في تركته عدة آلافمنها وعند الناس من هذا عجائب كثيرة وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يحب الدباء كثيرا لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يتتبعها من جوانب القصعة

فصل ومنها قصر الطريق حين يزوره ويوافي إليه كأنها تطوى له وطولها إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٥٨

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها." (١)

"خود تزف إلى ضرير مقعد

وكان أبو علي إذا وقع شيء في خلال مجلسه من تشويش الوقت يقول هذا من غيرة الحق يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت قال الشاعر

همت بإتياننا حتى إذا نظرت ... إلى المراة نهاها وجهها الحسن

ما كان هذا جزائي من محاسنها ... عذبت بالهجر حتى شفني الحزن

قال القشيري وقيل لبعضهم أتحب أن تراهم قال لا قيل ولم قال أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي وفي معناه أنشدوا

إني لأحد ناظري عليكا ... حتى أغض إذا نظرت إليكا

وأراك تخطر في شمائلك التي ... هي فتنتي فأغار منك عليكا

قلت وهذه غيرة فاسدة وغاية صاحبها أن يعفى عنه وأن يعد ذلك في شطحاته المذمومة وأما أن تعد في مناقبه وفضائله أن يقال أتحب أن ترى الله فيقول لا ورؤيته أعلى نعيم أهل الجنة وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأله النظر إليه وقبد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان من دعائه اللهم "إني أسألك لذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك" وقول هذا القائل أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس وهو يشبه ما يحكى عن بعضهم أنه قيل له ألا تذكره فقال أنزهه أن يجري ذكره على لساني وطرد هذا التنزيه الفاسد أن ينزهه أن يجري كلامه على لسانه أو يخطر هو أيضا على قلبه وقد وقع بعضهم في شيء من هذا فلاموه فأنشد." (٢)

"تمنيت أن تبلى بغيري لعلها ... تذوق حرارات الهوى فترق لي

فأنشده علي

ربما سرني صدودك عني ... في طلابيك وامتناعك مني

حذرا أن أكون مفتاح غيري ... فإذا ما خلوت كنت التمني

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه وذكر محاسنه خشية تعريضه لحب غيره له كما قال علي بن عبسى

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٢٧١

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٠٧

الرافقي

ولست بواصف أبدا خليلا ... أعرضه لأهواء الرجال

وما بالي أشوق قلب غيري ... ودون وصاله ستر الحجال

وكثير من الجهال وصف امرأته ومحاسنها لغيره فكان ذلك سبب فراقها له واتصالها به

فصل ومنها أن يحمله فرط الغيرة على أن ينزل نفسه منزلة الأجنبي فيغار على المحبوب من نفسه ولا ينكر هذا فإن في المحبة عجائب وقد قال أبو تمام الطأبي

بنفسي من أغار عليه مني ... وأحسد أهله نظري إليه

ولو أني قدرت طمست عنه ... عيون الناس من حذري عليه

حبيب بث في جسمي هواه ... وأمسك مهجتي رهنا لديه

فروحي عنده والجسم خال ... لا روح وقلبي في يديه." (١)

"لا يعصي الله ذو الكفل أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه غفر الله لذي الكفل" وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجب ربك من الشاب ليست له صبوة"

وذكر المبرد عن أبي كامل عن إسحاق بن إبراهيم عن رجاء بن عمرو النخعي قال كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النخع فنظر إلى جارية منهن جميلة فهويها وهام بها عقله ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي فقال للرسول ولا واحدة من هاتين الخلتين ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أخاف نارا لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها فلما أبلغها الرسول قوله قالت وأراه مع هذا يخاف الله والله ما أحد أحق بهذا من أحد وإن العباد فيه لمشتركون ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها وجعلت تتعبد وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وشوقا إليه حتى ماتت من ذلك فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ويدعو لها فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر فقال كيف أنت وما لقيت بعدي قالت:." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣١٣

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٢٤

"وقال مسلم بن الوليد

ألا ريب يوم صادق العيش نلته ... بها ونداماي العفافة والنهى

وقال آخر

إن تريني زاني العينين ... فالفرج عفيف

ليس إلا النظر الفا ... تر والشعر الظريف

وقال الموسوي

بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى ... يلفنا الشوق من فرق إلى قدم

يشي بنا الطيب أحيانا وآونة ... يضيئنا البرق مجتازا على إضم

ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا ... وفي بواطننا بعد عن التهم

وقال نفطويه

كم قد خلوت بمن أهوى فيمنعني ... منه الحياء وخوف الله والحذر

وكم ظفرت بمن أهوى فيقنعني ... منه الفكاهة والتجميش والنظر

أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم ... وليس لي في حرام منهم وطر

كذلك الحب لا إتيان معصية ... لا خير في لذة من بعدها سقر

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء الحلبي." [١]

"والمفعول به والساكت الراضي والدال المحصن منهم وغير المحصن العاشق والمعشوق وأخذهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال إن الملائكة حين دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم وحرص على كرامتهم وخالفته امرأته إلى فساق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطا أحسن الناس وجها وأنضرهم جمالا وأطيبهم ريحا فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله عز وجل في كتابه وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فخانتاهما﴾ قال والله ما زنتا ولا بغت امرأة نبي قط فقيل له فما كانت خيانة امرأة نوح وامرأة لوط فقال أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وأما امرأة لوط فإنها كانت

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٤٥

تدل على الضيف

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده حثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الوارث حدثنا القاسم بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول قال رسول ا الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي عمل قوم لوط" وقال هشام بن عمار حدثنا عبد العزيز الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لعن الله من وقع على بهيمة ولعن الله من عمل عمل قوم لوط" رواه الإمام أحمد وقال القعنبي حدثنا عبد العزيز هو الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي عن عكرمة عن." (١)

"إلى امرأة ذات جمال تطوف وإذا رجل يتلوها كلما رفعت رجلها وضع رجله موضع رجلها فجعل ينظر إلى ذلك من أمرهما فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هنية ثم رجع فلما رآه عمر وثب إليه وقال لتخبرني عن أمرك قال نعم هذه المرأة التي رأيت ابنة عمي وأنا لها عاشق وليس لي مال فخطبتها إلى عمي فرغب عني وسألني المهر مالا أقدر عليه والذي رأيت هو حظي منها ومالي من الدنيا أمنية غيرها وإنما ألقاها عند الطواف وحظي ما رأيت من فعلي فقال له عمر ومن عمك قال فلان بن فلان قال انطلق معي إليه فانطلقا فاستخرجه عمر فخرج مبادرا فقال ما حاجتك يا أبا الخطاب قال تزوج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان وهذا المهر الذي تسأله يساق إليك من مالي قال فإني قد فعلت قال عمر إني أحب أن لا أبرح حتى يجتمعا قال وذلك ايضا قال فلم يبرح حتى جمعهما جميعا وأتى منزله فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه وجعل جوفه يجيش بالشعر فأنكرت جاريته ذلك فجعلت تسأله عن أمره وتقول ويحك ما الذي قد دهاك فلما أكثرت عليه جلس وأنشد

تقول وليدتي لما رأتني ... طربت وكنت قد أقصرت حينا

أراك اليوم قد أحدثت شوقا ... وهاج لك البكا داء دفينا

بربك هل أتاك لها رسول ... فشاقك أم رأيت لها خدينا

فقلت شكا إلي أخ محب ... كبعض زماننا إذ تعلمينا

فعد علي ما يلقى بهند ... فوافق بعض ما كنا لقينا." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٦٩

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٨٥

"وذو القلب المصاب وإن تعزى ... يهيج حين يلقى العاشقينا

وكم من خلة أعرضت عنها ... لغير قلى وكنت بها ضنينا

رأيت صدودها فصددت عنها ... ولو هام الفؤاد بها جنونا

وعرض خالد بن عبد الله القسري سجنه يوما وكان فيه يزيد بن فلان البجلي فقال له خالد في أي شيء حبست يا يزيد قال في تهمة أصلح الله الأمير قال أفتعود إن أطلقتك قال نعم وكره أن يعرض بقصته لئلا يفضح **معشوقته** فقال خالد أحضروا رجال الحي حتى نقطع يده بحضرتهم وكان ليزيد أخ فكتب شعرا ووجه به إلى خالد

أخالد قد أعطيت في الخلق رتبة ... وما العاشق المسكين فينا بسارق

أقر بما لم يأته المرء إنه ... رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه ... لألفيت في شأن الهوى غير ناطق

إذا بدت الرايات للسبق في العلى ... فأنت ابن عبد الله أول سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله فأحضر أولياء الجارية فقال زوجوا يزيد فتاتكم فقالوا أما وقد ظهر عليه ما ظهر فلا فقال لئن لم تزوجوه طائعين لتزوجنه كارهين فزوجوه ونقد خالد المهر من عنده

وذكر أبو العباس المبرد قال كان رجل بالكوفة يدعى ليث بن زياد قد ربى جارية وأدبها فخرجت بارعة في كل فن مع جمال وافر فلم يزل معها مدة حتى تبينت منه الحاجة فقالت يا مولاي لو بعتني كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أني لا أصبر عنك فقصد رجلا من الأغنياء يعرفها." (١)

"ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم فلما قبض المال وجه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعا شديدا فلما صارت الجارية إلى سيدها نزل بها من الوحشة للأول مالم تستطع دفعه ولا كتمه فباحت به وقالت

أتاني البلا حقا فما أنا صانع ... أمصطبر للبين أم أنا جازع

كفى حزنا أني على مثل جمرة ... أقاسي نجوم الليل والقلب نازع

فإن يمنعوني أن أبوح بحبه ... فإني قتيل والعيون دوامع

سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له يا سيدي إنك لا تنتفع بي قال ولم ذاك قالت إني لما بي قال وما بك صفيه لي قالت أجد في أحشائي نيرانا تتوقد لا يقدر على إطفائها أحد ولا تسأل عما وراء ذلك فرحمها ورق لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره فوجد عنده مثل الذي عندها فأحضره فرد

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٨٦

الجارية عليه ووهب له من ثمنها خمسين ألفا فلم تزل عنده مدة طويلة وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر فلم يجد سيدها بدا من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول

بديع حسن رشيق قد ... جعلت مني له ملاذا

فأجابته الجارية

فعاتبوه فزاد عشقا ... فمات شوقا فكان ماذا

فعلم أنها تصلح له فاشتراها بمائتي ألف درهم فجهزها وحملها إلى عبد الله بن." (١)

"إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعة ... فلا خير في ود يكون بشافع

وكان أبو السائب المخزومي أحد القراء والفقهاء فرؤي متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول اللهم ارحم العاشقين واعطف عليهم قلوب المعشوقين فقيل له في ذلك فقال الدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاما وجارية كانا في كتاب فهويها الغلام فلما كان في بعض أيامه في غفلة من الغلمان كتب في لوح الجارية

ماذا تقولين فيمن شفه سقم ... من طول حبك حتى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدموع رحمة له وكتبت تحته

إذا رأينا محبا قد أضر به ... طول الصبابة أوليناه إحسانا

وذكر الهيثم بن عدي عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدي خرج زائرا لعلقمة بن حزم الطائي وكان حليفا له فنظر إلى ابنة له تدعى الرباب وكانت من أجمل النساء فأعجب بها وعشقها عشقا حال بينه وبين الانصراف إلى أهله فقال لعلقمة إني أتيتك خاطبا وقد ينكح الخاطب ويدرك الطالب ويمنح الراغب قال كفو كريم فأقم ننظر في أمرك ثم انكفأ إلى أم لجارية فقال لها إن الحارث سيد قومه حسبا ومنصبا وبيتا فلا ينصرفن من عندنا إلا بحاجته فشاوري ابنتك وأديريها عما في نفسها فقالت لها أي." (٢)

"أبي نضرة قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى يا أبا موسى شوقنا إلى ربنا قال فقرأ فقالوا الصلاة فقال عمر أولسنا في الصلاة

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٨٧

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٣٩١

فصل وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل **والشوق** إلى الوصول إليه وإلى لقائه فإن لم يكن للعبد همة إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه فهذه فصول أربعة هن ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه وهن منازله في سيره إلى الله عز وجل وليس له منزلة غيرها فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقا غير مخالفته ولم يجعل للنار طريقا غير متابعته قال الله تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى." [1]

"داؤها دواها أن داءها هو الهوى فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته وقيل إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسف السافلين والهوى ثلاثة أرباع الهوان وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم وقال أبو دلف العجلي

واسوأتا لفتى له أدب ... يضحى هواه قاهرا أدبه

يأتي الدنية وهو يعرفها ... فيشين عرضا صائنا أربه

فإذا ارعوى عادت بصيرته ... فبكى على الحين الذي سلبه

وقال ابن المرتفق الهذلي

أين لي ما ترى والمرء يأتي ... عزيمته ويغلبه هواه

فيعمى ما يرى فيه عليه ... ويحسب من يراه لا يراه

فصل وأما الرغبة في الله وإرادة وجهه **والشوق** إلى لقائه فهي رأس مال العبد وملاك أمره وقوام حياته الطيبة وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه ولذلك خلق وبه أمر وبذلك أرسلت الرسل وأنزلت الكتب ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده كما قال الله تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾ وقال تعالى ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم." [2]

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٠١

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٠٥

"إن ها هنا أقواما يقولون إنهم يصلون إلى البر بترك الحركات فقال هؤلاء تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم والذي يزني ويسرق أحسن حالا من الذي يقول هذا فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإلى الله رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر شيئا

وقال لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر وكالمطر يسقى ما يحب ومالا يحب

وقال يحيى بن معاذ يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين بكاؤه على نفسه **وشوقه** إلى ربه

وقال بعضهم لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين وقيل العارف أنس بالله فاستوحش من غيره وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه وذل لله فأعزه في خلقه

وقال أبو سليمان الداراني يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلي

وقال ذو النون لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله

وبالجملة فحياة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبدا ومتى واطأ اللسان القلب في ذكره وواطأ القلب مراد حبيبه منه واستقل له الكثير من قوله وعمله واستكثر له القليل من بره ولطفه وعانق الطاعة وفارق المخالفة وخرج عن كله لمحبوبه فلم يبق منه شيء وامتلأ قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه وعز عليه الصبر عنه وعدم القرار دون ذكره والرغبة إليه." (١)

"لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك" وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وقول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه نور السموات والأرض من نور وجهه تفسير لقوله تعالى الله نور السموات والأرض

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل: "اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن" وفي سنن ابن ماجة وحرب السكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فيقول السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظر إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم لفظ حديث حرب فما ظن المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٠٧

وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "أسألك لذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك" ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبائه عند لقائه ثم اختر لنفسك." (١)

"والصبر يحمد في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

وقف رجل على الشبلي فقال أي الصبر أشد على الصابرين قال الصبر في الله فقال السائل لا فقال الصبر لله قال لا قال فالصبر مع الله قال لا قال فما هو قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تزهق قال الشاعر

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته والرجاء يخرجك إلى طاعته والحب يسوقك إليه سوقا لما علم الله سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأإلا بلقائه ضرب لهم أجلا للقاء تسكينا لقلوبهم فقال الله تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾

يامن شكى **شوقه** من طول فرقته ... إصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وسر إليه بنار **الشوق** مجتهدا ... عساك تلقى على نار الغرام هدى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد **شوقا** إليه

وأعظم ما يكون **الشوق** يوما ... إذا دنت الخيام من الخيام

كلما وقع بصر المحب على محبوبه أحدثت له رؤيته **شوقا** على **شوقه**

ما يرجع الطرف عنه حين يبصره ... حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

المحب الصادق إذا سافر طرفه في الكون لم يجد له طريقا إلا على محبوبه." (٢)

"فإذا انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئا وهو حسير

ويسرح طرفي في الأنام وينثني ... وإنسان عيني بالدموع غريق

فيرجع مردودا إليك وماله ... على أحد إلا عليك طريق

أقر شيء لعيون المحب خلوته بسره مع محبوبه حدثني من رأى شيخنا في عنفوان أمره خرج إلى البرية بكرة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم تمثل بقول الشاعر

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٢١

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٣٦

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك القلب بالسر خاليا

الشوق يحمل المحب على العجلة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفور ولو كان فيها تلفه ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ قال بعضهم أراد شوقا إليك فستره بلفظ الرضا

ولو قلت طأ في النار أعلم أنه ... رضا لك أو مدن لنا من وصالك

لقدمت رجلي نحوها فوطئتها ... هدى منك لي أو ضلة من ضلالك

ليهنك إمساكي بكفي على الحشا ... ورقراق عيني خشية من زيالك." (١)

"وإن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يتم له سرور إلا بمحبوبه وما دام غائبا عنه فعيشه كله منغص

نحن في أكمل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غيب ونحن حضور

وقال آخر

من سره العيد الجديد ... فقد عدمت به السرورا

كان السرور يتم لي ... لو كان أحبابي حضورا

لو قيل للمحب على الدوام ما تتمنى لقال لقاء المحبوب

ولما نزلنا منزلا طله الندى ... أنيقا وبستانا من النور حاليا

أجد لنا طيب المكان وحسنه ... منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال الجنيد سمعت السري يقول الشوق أجل مقام العارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يشغله عمن يشتاق إليه وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال لشبان بني إسرائيل لم تشغلون نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم ما هذا الجفاء ولو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقا إلي وانقطعت أوصالهم من محبتي هذه إرادتي للمدبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين علي وسئل الجنيد من أي شيء بكاء المحب إذا لقي المحبوب فقال إنما يكون ذلك سرورا به." (٢)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٣٧

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٣٨

"ووجدا من شدة الشوق إليه قال ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما واشوقاه وقال الآخر وواجداه وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر فأظهر أهلها الفرح والسرور به فجعلت تبكي فقيل لها ما هذا البكاء فقالت ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله

وقال بعض المحبين قلوب المشتاقين منورة بنور الله فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلي أشهدكم أني إليهم أشوق

فصل قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله وأنا حاضر ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل فبكى ثم قال مثلي يسأل عن هذا أقرب ما يتقرب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو وقال يحيى بن معاذ النسك هو العناية بالسرائر وإخراج ما سوى الله من القلب وقال سهل بن عبد الله ما من ساعة إلا والله سبحانه يطلع فيها على قلوب العباد فأي قلب رأى فيه غيره سلط عليه إبليس وقال سهل بن عبد الله من نظر إلى الله عز وجل قريبا منه بعد عن قلبه كل شيء سوى الله ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى ومن أحلم قلبه إلى الله تولى الله جوارحه وقال سهل أيضا حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله وسئل بعضهم عن افضل الأعمال فقال رعاية السر عن الالتفات إلى شيء." (١)

"الباب الثامن والعشرون: فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام

...

قالت نعم فما تريد قال لو كان غير هذا لكان لنا رأي قالت على ذلك وما هو قال عرض بقلبي من أمرك عارض قالت وما يمنعك من إنقاذه قال وتتابعيني على ذلك قالت نعم فحلت به في موضع فلما رأته مجدا في الذي سأل قالت رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال لا حرمك الله ثواب فعلك ثم تنحى ناحية فقال لنفسه اختاري إما عمى العين وإما الجب وإما السياحة مع الوحوش فاختارت السياحة مع الوحوش فكان كذلك إلى أن مات

وأحب رجل جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب فما زال يحتال في أمرها حتى اجتمع معها في ليلة مظلمة شديدة السواد فحادثها ساعة ثم دعته نفسه إليها فقال يا هذه قد طال شوقي إليك قالت وأنا كذلك فقال هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب قالت هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات فقال لها لو دنوت مني فقالت هيهات أخاف البعد من الله قال فما الذي دعاك إلى الحضور معي قالت شقوتي وبلائي قال

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٣٩

لها فمتى أراك قالت ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ثم تولت قال فاستحييت مما سمعت منها وأنشد

توقت عذابا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذبا

وقالت مقالا كدت من شدة الحيا ... أهيم على وجهي حيا وتعجبا

ألا أف للحب الذي يورث العمى ... ويورد نارا لا تمل التلهبا

فأقبل عودي فوق بدئي مفكرا ... وقد زال عن قلبي العمى فتسربا

وقال ابن خلف أخبرني أبو بكر العامري قال عشقت عاتكة المرية." (١)

"مشتريها والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم وسماع كلامه منه في داره ثمنها ومن جري العقد على يد رسوله كيف يليق بالعاقل أن يضيعها ويهملها ويبيعها بثمن بخس في دار زائلة مضمحلة فانية وهل هذا إلا من أعظم الغبن وإنما يظهر له هذا الغبن الفاحش يوم التغابن إذا ثقلت موازين المتقين وخفت موازين المبطلين

فصل

إذا عرفت هذه المقدمة فاللذة التامة والفرح والسرور وطيب العيش والنعيم إنما هو في معرفة الله وتوحيده والأنس به **والشوق** إلى لقائه واجتماع القلب والهم عليه فإن أنكد العيش عيش من قلبه مشتت وهمه مفرق فليس لقلبه مستقر يستقر عنده ولا حبيب يأوي إليه ويسكن إليه كما أفصح القائل عن ذلك بقوله

(وما ذاق طعم العيش من لم يكن له ... حبيب إليه يطمئن ويسكن)." (٢)

"آخر إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا وقال آخر مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ... ما فيها قيل له وما أطيب ما فيها قال معرفة الله ومحبته والأنس بقربه **والشوق** إلى لقائه

وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا هذا ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة فأخبر أنه حبب إليه من الدنيا شيئان النساء والطيب

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ابن القيم ص/٤٥٧

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ابن القيم ص/٢٩

ثم قال وجعلت قرة عيني في الصلاة

وقرة العين فوق المحبة فإنه ليس كل محبوب تقر به العين وإنما تقر العين بأعلى المحبوبات." (١)

"ومن فوائده أنه يضيف الحمد إلى وليه ومستحقه فلا يشهد لنفسه حمدا بل يشهده كله لله كما يشهد النعمة كلها منه والفضل كله له والخير كله في يديه وهذا من تمام التوحيد فلا يستقر قدمه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدا وإذا صار لقلبه مشهدا أثمر له من المحبة والأنس بالله **والشوق** إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا ألبتة وما للمرء خير في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدودا وطريق الوصول إليه عنه مسدودا بل هو كما قال تعالى ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾

فصل

المشهد السادس مشهد التقصير وأن العبد لو اجتهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد وبذل وسعه." (٢)

"أمته ومن لا غنى به طرفة عين فضله ورحمته ولا مطمع له في الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بعفوه ومغفرته.

وأشهد أن محمد عبده ورسوله وأمينة على وحيه وخيرته من خلقه أرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين بعثه للإيمان مناديا وإلى دار السلام داعيا وللخليقة هاديا ولكتابه تاليا وفي مرضاته ساعيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيزه وتوقيره والقيام بحقوقه وسد إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتحها لأحد إلا من طريقه فلو أتوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتح لهم حتى يكونوا خلفه من الداخلين وعلى منهاجه وطريقته من السالكين.

فسبحان من شرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره فدعا إلى الله وإلى جنته سرا وجهارا وأذن بذلك بين أظهر الأمة ليلا ونهارا إلى أن طلع فجر الإسلام وأشرقت شمس الإيمان وعلت كلمة الرحمن وبطلت دعوة الشيطان وأضاءت بنور رسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت به القلوب بعد تفرقها وشتاتها فأشرق وجه الدهر حسنا وأصبح الظلام ضياء واهتدى كل حيران فلما كمل

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ابن القيم ص/٣١

(٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ابن القيم ص/٤٢

الله به دينه وأتم به نعمته ونشر به على الخلائق رحمته فبلغ رسالات ربه ونصح عباده وجاهد في الله حق جهاده خيره بين المقام في الدنيا وبين لقائه والقدوم عليه فاختار لقاء ربه محبة له **وشوقا** إليه فاستأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى والمحل الأرفع الأسنى وقد ترك أمته على الواضحة الغراء والمحجة البيضاء فسلك أصحابه وأتباعه على أثره إلى جنات النعيم وعدل الراغبون عن هديه إلى طرق الجحيم: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ .

فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون عليه كما وحد الله وعبده وعرفنا به ودعا إليه.." [١]

"وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مغرم

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم

وحي على السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السوق للقوم تعلم

فما شئت خذ منه بلا ثمن له ... فقد أسلف التجار فيه واسلموا

وحي على يوم المزيد الذي به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم

وحي على واد هنالك أفيح ... وتربته من إذفر المسك أعظم

منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص العقيان لا تتقصم

وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلم

فبينا هموا في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم ونقسم

ذاهم بنور ساطع أشرقت له ... بأقطارها الجنات لا يتوهم

تجلى لهم رب السماوات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلم

سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلم

يقول سلوني ما أشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي أنني أنا أرحم

فقالوا جميعا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تولى الجميل وترحم

فيعطيهم هذا ويشهد جميعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم

فيا بائعا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

فصل

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٤

وهذا كتاب اجتهدت في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه فهو للمحزون سلوة وللمشتاق إلى تلك العرائس جلوة محرك للقلوب إلى أجل مطلوب وحاد للنفوس إلى مجاورة الملك القدوس ممتع لقارئه **مشوق** للناظر فيه لا يسأمه الجليس ولا يمله الأنيس مشتمل من بدائع الفوائد وفرائد القلائد على ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه من الكتب مع تضمينه." (١)

"التاسع: أنه سبحانه وتعالى أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة

وقوله بايعتم به أي عاوضتم وثامنتم به

ثم ذكر سبحانه أنه هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم وهم التائبون مما يكره العابدون له بما يحب الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون السائحون وفسرت السياحة بالصيام وفسرت بالسفر في طلب العلم وفسرت بالجهاد وفسرت بدوام الطاعة والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه **والشوق** إلى لقائه ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات وليست سياحتهن جهادا ولا سفرا في طلب علم ولا إدامة صيام وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى وخشيته والإنابة إليه وذكره وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب والحمد والسياحة قرينتين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله وسياحة اللسان في أفضل ذكره وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب

وجعل الإسلام والإيمان قرينتين فهذا علانية وهذا في القلب كما في المسند عنه صلى الله عليه وسلم "الإسلام علانية والإيمان في القلب" وجعل القنوت والتوبة قرينتين هذا فعل ما يحب وهذا ترك ما يكره وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبها وهذه روضة أنف لم يرتع فيها بعد." (٢)

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/١٢

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٨٥

"الحور دليت من السماء لأضاءت لنا الأرض كما تضيء الشمس لأهل الدنيا" ثم قال: إنما قلت: يدها فكيف بالوجه وبياضه وحسنه وجماله.

وفي مسند الإمام احمد من حديث كثير بن مرة عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا" وفيه مراسيل عكرمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الحور العين لأكثر عددا منكن يدعون لأزواجهن يقلن اللهم اعنه على دينك واقبل بقلبه على طاعتك وبلغه بعزتك يا ارحم الراحمين) ذكره ابن أبي الدنيا عن حديث أسامة بن زيد عن عطاء عنه وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن ابن مسعود قال: "إن في الجنة حوراء يقال لها اللعبة كل حور الجنان يعجبن بها يضربن بأيديهن على كتفها ويقلن طوبى لك يا لعبة لو يعلم الطالبون لك لجدوا بين عينيها مكتوب من كان يبتغي أن يكون له مثلي فليعمل برضاء ربي"

وقال عطاء السلمي لمالك بن دينار يا أبا يحيى شوقنا قال عطاء: إن في الجنة حوراء يتباهى أهل الجنة بحسنها لولا أن الله تعالى كتب لها على أهل الجنة أن لا يموتوا لماتوا من حسنها فلم يزل عطاء كمدا من قول مالك"

وقال احمد بن أبي الحواري حدثني جعفر بن محمد قال لقي حكيم حكيما فقال: أتشتاق إلى الحور العين؟ فقال: لا فقال: فاشتق إليهن فإن نور وجههن من نور الله عز وجل فغشي عليه فحمل إلى منزله نعوده شهرا.

وقال ربيعة بن كلثوم: نظر إلينا الحسن ونحن حوله شباب فقال: يا معشر الشباب أما تشتاقون إلى الحور العين وقال لي ابن أبي الحوارى حدثني الحضرمي قال: نمت أنا وأبو حمزة على سطح فجعلت انظر إليه يتقلب على فرشه إلى الصباح فقلت يا أبا حمزة ما رقدت الليلة فقال: إني لما اضطجعت تمثلت لي حوراء حتى كأني." (١)

"الغرف فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب السندس والحرير حتى ينتهوا إلى ذلك الوادي فإذا اطمأنوا فيه جلوسا بعث الله عليهم ريحا يقال لها المثيرة أثارت ينابيع المسك الأبيض في وجوههم وثيابهم وهم يومئذ جرد مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة على صورة آدم يوم خلقه الله عز وجل فينادي رب العزة تبارك وتعالى رضوان وهو خازن الجنة فيقول يا رضوان ارفع

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٥٢٣

الحجب بيني وبين عبادي وزواري فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هموا له بالسجود فيناديهم تبارك وتعالى بصوته ارفعوا رؤوسكم فإنما كانت العبادة في الدنيا وأنتم اليوم في دار الجزاء سلوني ما شئتم فأنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي فهذا محل كرامتي فسلوني ما شئتم فيقولون ربنا وأي خير لم تفعله بنا الست أعنتنا على سكرات الموت وآنست منا الوحشة في ظلمات القبور وآمنت روعتنا عند النفخة في الصور ألست أقلت عثراتنا وسترت علينا القبيح من فعلنا وثبت على جسر جهنم أقدامنا لست الذي أدنيتنا من جوارك وأسمعتنا لذاذة منطقك وتجليت لنا بنورك ذي خير لم تفعله بنا فنعوذ بالله عز وجل فيناديهم بصوته فيقول أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي فسلوني فيقولون نسألك رضاك فيقول برضائي عنكم أقلتكم عثراتكم وسترت عليكم القبيح من أموركم وأدنيت مني جواركم وأسمعتكم لذاذة منطقي وتجليت لكم بنوري فهذا محل كرامتي فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ثم يقول عز وجل سلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ثم يقول عز وجل سلوني فيقولون رضينا وربنا وسلمنا فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويكون ذلك مقدار تفرقهم من الجمعة قال أنس فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما مقدار تفرقهم قال كقدر الجمعة إلى الجمعة قال ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى معهم الملائكة والنبيون ثم يؤذن لأهل الغرف فيعودون إلى غرفهم وهما غرفتان من زمردتين خضراوين وليسوا إلى شيء **أشوق** منهم إلى الجمعة لينظروا إلى ربهم عز وجل وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته قال أنس سمعته من رسول الله وليس بيني وبينه أحد." (١)

"فصل وأما حديث زيد بن ثابت فقال الإمام احمد حدثنا أبو المغيرة قال حدثني أبو بكر قال حدثني ضمرة بن حبيب عن زيد بن ثابت أن رسول الله علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال قل حين تصبح لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وإليك اللهم وما قلت من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديه ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بك انك على كل شيء قدير اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت وما لعنت من لعنة أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين أسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك من غير ضراء ومضرة ولا فتنة مضلة أعوذ بك اللهم أن اظلم أو اظلم أو اعتدي أو يعتدى علي أو اكسب خطيئة محبطة أو ذنبا لا تغفره اللهم فاطر السماوات والأرض

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٣١٥

عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فاني اعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأشهدك وكفى بك شهيدا إني اشهد أن لا اله إلا أنت وحدك لا شريك لك لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير واشهد أن محمدا عبدك ورسولك واشهد أن وعدك حق وأن لقائك حق والجنة حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور واشهد انك تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي انك أنت التواب الرحيم رواه أبو داود في صحيحه." (١)

"فصل

وأما حديث عمار بن ياسر فقال الإمام احمد حدثنا إسحاق الأزرق عن شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز قال صلى بنا عمار صلاة فاوجز فيها فأنكروا ذلك فقال ألم أتم الركوع والسجود قالوا بلى قال أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله يدعو به اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي وأسالك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى ولذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وأخرجه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما فصل وأما حديث عائشة ففي صحيح الحاكم من حديث الزهري عن عروة عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر: يا جابر إلا أبشرك قال بلى بشرك الله بخير قال شعرت أن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال تمن علي عبدي ما شئت أعطكه قال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال أنه قد سلف مني انك إليها لا ترجع وهو في المسند من حديث جابر وفي مسنده ادخله وللترمذي فيه سياق أتم من هذا عن جابر قال لما قتل عبد الله بن عمرو ابن حزام يوم أحد قال قال رسول الله يا جابر إلا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك قال بلى قال ما كلم الله عز وجل أحدا إلا من وراء حجاب." (٢)

"فصل وأما حديث فضالة بن عبيد فقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا محمد بن المهاجر عن أبي حليس عن أبي الدرداء أن فضالة يعني ابن عبيد كان يقول:" اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك **والشوق** إلى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة" فصل وأما حديث

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٣٢١

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٣٢٢

عبادة بن الصامت ففي مسند أحمد من حديث بقية حدثنا يحيى ابن سعيد عن خالد بن معدان عن عمرو بن الأسود عن جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتئة ولا جحراء فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا" وأما حديث الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال الصنعاني حدثنا روح بن عبادة حدثنا عباد بن منصور قال سمعت عدي بن أرطاة يخطب على المنبر بالمدائن فجعل يعظ حتى بكى وأبكانا ثم قال كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه يا بني أوصيك أن لا تصلي صلاة إلا ظننت أنك إلا تصلي بعدها غيرها حتى تموت وتعال يا بني نعمل عمل رجلين كأنهما قد وقفا على النار ثم سأل الكرة ولقد سمعت فلانا نسي عباد اسمه ما بيني وبين رسول الله غيره فقال أن رسول الله قال إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافتة ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكا يسبح الله تعالى قال وملائكة سجود منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة فإذا." (١)

"فصل

الموطن الخامس والعشرون من مواطن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عقب الذنب إذا أراد أن يكفر عنه

قال ابن أبي عاصم في =كتاب الصلاة على النبي = حدثنا الحسن بن البزار حدثنا شبابة حدثنا مغيرة بن مسلم عن أبي إسحاق عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا علي فإن الصلاة علي كفارة لكم فمن صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا

وقال ابن أبي عاصم في كتابه حدثنا يونس بن محمد حدثنا الفضل بن عطاء عن الفضل بن شعيب عن أبي منظور عن ابن معاذ عن أبي كاهل قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا كاهل من صلى على كل يوم ثلاث مرات وكل ليلة ثلاث مرات حبا **وشوقا** إلي كان حقا على الله أن يغفر له ذنوبه تلك

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن القيم ص/٣٢٩

الليلة وذلك اليوم

وقال أبو الشيخ في =كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم = حدثنا." (١)

"السادسة والعشرون أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله

السابعة والعشرون أنها سبب لوفور نور العبد على الصراط وفيه حديث ذكره أبو موسى وغيره

الثامنة والعشرون أنه يخرج بها العبد عن الجفاء

التاسعة والعشرون أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه والجزاء من جنس العمل فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك

الثلاثون أنها سبب البركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه لأن المصلي داع ربه يبارك عليه وعلى آله وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه

الحادية والثلاثون أنها سبب لنيل رحمة الله له لأن الرحمة إما بمعنى الصلاة كما قاله طائفة وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله

الثانية والثلاثون أنها سبب لدوام محبته للرسول صلى الله عليه وسلم وزيادتها وتضاعفها وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه وتزايد **شوقه** إليه واستولى على جميع قلبه وإذا أعرض عن ذكره وإحضار محاسنه بقلبه نقص حبه من قلبه ولا شيء أقر لعين المحب من رؤية محبوبه ولا أقر لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه فإذا قوي." (٢)

"وحذفه قليل وأما أن يحذف حذفا مطردا ولم يذكره في موضع واحد ولا في اللفظ ما يدل عليه فهذا لا يقع في القرآن

الثالث أن في قراءة ابن مسعود / (٣) / بالنصب وهذا وهذا يدل على إن المتروك هو السلام نفسه

الرابع أنه لو كان السلام منقطعا مما قبله لأخل ذلك بفصاحة الكلام وجزالته ولما حسن الوقوف على ما قبله وتأمل هذا بحال السامع إذا سمع قوله ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ كيف يجد قلبه **متشوقا** متطلعا إلى

---

(١) جلاء الأفهام ابن القيم ص/٤١٩

(٢) جلاء الأفهام ابن القيم ص/٤٤٧

(٣) وتركنا عليه في الآخرين سلاما

تمام الكلام واجتناء الفائدة منه ولا يجد فائدة الكلام انتهت وتمت ليطمئن عندها بل يبقى طالبا لتمامها وهو المتروك فالوقف على ﴿الآخرين﴾ ليس بوقف تام

فإن قيل فيجوز حذف المفعول من هذا الباب لأن ترك هنا بمعنى أعطى لأنه اعطاه ثناءا حسنا أبقاه عليه في الآخرين ويجوز في باب أعطى ذكر المفعولين وحذفهما والاقتصار على أحدهما وقد وقع ذلك في القرآن كقوله ﴿إنا أعطيناك ١لكوثر﴾ فذكرهما

وقال تعالى ﴿فأما من أعطى﴾ الليل ٥ فحذفهما

وقال تعالى ﴿ولسوف يعطيك ربك﴾ الضحى فحذف الثاني واقتصر على الأول

وقال ﴿يؤتون الزكاة﴾ فحذف الأول واقتصر على الثاني قيل فعل الإعطاء فعل مدح فلفظه دليل على أن المفعول المعطى قد ناله عطاء المعطى والإعطاء إحسان ونفع وبر فجاز ذكر المفعولين وحذفهما والاقتصار على أحدهما بحسب الغرض المطلوب من الفعل فإن كان المقصود إيجاد ماهية الإعطاء." [1]

"القيامة: "أليس عدلا منى أنى أولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى الدنيا"، فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتتساقط بهم فى النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر آلهتهم، فإذا كورت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٧] ، ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده، فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم، والموحد حوالته على المليء الكريم، فيا بعد ما بين الحوالتين.

وقوله: "البراءة من رؤية الملكة" ولم يقل من الملكة لأن الإنسان قد يكون فقيرا لا ملكة له فى الظاهر وهو عرى عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهله الذين لا يرون ملكة إلا لمالكها الحق ذى الملك والملكوت، وقد يكون العبد قد فوض إليه من ذلك شيء وجعل كالخازن فيه، كما كان سليمان بن داود أوتى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء، [عليهم الصلاة والسلام] وكذلك أغنياء الصحابة، فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة فى الظاهر وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم فلا يرون لها ملكا حقيقيا، بل يرون ما فى أيديهم لله عارية ووديعة فى أيديهم ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم، فوجود المال فى يد الفقير ليس يقدح فى فقره، إنما يقدح فى فقره رؤيته لملكته، فمن عوفى من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه

(١) جلاء الأفهام ابن القيم ص/٤٥٩

وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيده الذى ينفذ أوامره فى ماله، فهذا لو كان بيده من المال [مثال] جبال الدنيا لم يضره ومن لم يعاف من ذلك ادعت نفسه الملكة وتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب **المعشوق**، فهو أكبر همه ومبلغ علمه، إن أعطى رضى، وإن منع سخط، فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهموما ويمسى كذلك [فيبيت] مضاجعا له، تفرح نفسه إذا ازداد وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف إذا توهمت نفسه الفقر وقد يؤثر الموت على الفقر، والأول مستغن بمولاه المالك الحق الذى بيده خزائن السموات والأرض، وإذا أصاب المال الذى فى يده نائبة رأى أن المالك الحق هو الذى أصاب مال نفسه فما للعبد وما للجزع والهلع، وإنما تصرف مالك المال فى ملكه الذى هو وديعة فى يد مملوكه، فله الحكم." (١)

"الطبع، وظلمة الهوى. فلا بد من الولادة مرتين كما قال المسيح للحواريين: إنكم لن تجلوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين. ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم أبا للمؤمنين كما فى قراءة أبى: "النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم"، ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغى إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدت حقائق أخر وأمورا لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ [إبراهيم: ١] ، وقال: ﴿هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: ١٦٤] ،

والمقصود أن القلوب فى هذه الولادة ثلاثة: قلب لم يولد ولم يأن له بل هو جنين فى بطن الشهوات والغى والجهل والضلال وقلب قد ولد وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرت عينه بالله وقرت عيون به وقلوب، وأنست بقربه الأرواح، وذكرت رؤيته بالله، فاطمأن بالله، وسكن إليه، وعكف بهمته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى، لا يقر بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره، يجد من كل شيء سوى الله عوضا ومحبته وقوته، لا يجد من الله عوضا أبدا، فذكره حياة قلبه ورضاه غاية مطلبه، ومحبته قوته، ومعرفته أنيسه، عدوه من جدب قلبه

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/١٣

ورضاه غاية مطلبه، ومحبته قوته، ومعرفته أنيسه، عدوه من جذب قلبه عن الله: "وإن كان القريب المصافيا". وولیه من رده إلى الله وجمع قلبه عليه "وإن كان البعيد المناويا"، فهذان قلبان متباينان غاية التباين. وقلب ثالث فى البرزخ ينتظر الولادة صباحا ومساء، قد أصبح على فضاء التجريد، وآنس من خلال الديار أشعة التوحيد، تأبى غلبات الحب **والشوق** إلا تقربا إلى من السعادة كلها بقربه، والحظ كل الحظ فى طاعته وحبه، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه." (١)

"وكم مشتر فى الخلق قد سام قلبه ... فلم يره إلا لحبك يصلح

هوى غيركم نار تلظى ومحبس ... وحبكم الفردوس أو هو أفسح

فيا ضيم قلب قد تعلق غيركم ... ويا رحمة مما يجول ويكدح

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلىء الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليا، فأما إذا صادفه ممتلئا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه، كما قال بعضهم:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إنائه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة، لأن كل شراب فمسكر ولا بد، و"ما أسكر كثيره فقليله حرام"، وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر، وكيف يوضع شراب التسليم–الذى هو أعلى أشربة المحبين–فى إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى ولا يفيق من سكره ولا يستفيق، ولو فارق هذا السكر القلب لطار بأجنحة **الشوق** إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضى المسكين بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن صفقة خاسر مغبون، فسيعلم أى حظ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون.." (٢)

"والتحقق به نظام التوحيد، ومتى من القلب انحل نظام التوحيد، فسبحان من لا يوصل إليه إلا به. ولا يطاع إلا بمشيئته، ولا ينال ما عنده من الكرامة إلا بطاعته ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته فعاد الأمر كله إليه كما ابتدأ الأمر كله منه، فهو الأول والآخر وأن إلى ربك المنتهى.

ومن وصل إلى هذا الحال وقع فى يد التقطع والتجريد، وأشرف على مقام التوحيد الخاص، فإن التوحيد

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/١٦

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/١٨

نوعان: عام وخاص، كما أن الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القرب كذلك خاصية وعامية، فالخاصية ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامية ما لم يكن كذلك. فالمسلمون كلهم مشتركون فى إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم فى معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم باطنا وظاهرا أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل، وقد ظن كثير من الصوفية أن التوحيد الخاص أن يشهد العبد المحرك له ويغيب عن المتحرك وعن الحركة فيغيب بشهوده عن حركته، ويشهد نفسه شبحا فانيا يجرى على تصاريف المشيئة، كمن غرق فى البحر فأمواجه ترفعه طورا وتخفضه طورا، فهو غائب بها عن ملاحظة حركته فى نفسه، بل قد اندرجت حركته فى ضمن حركة الموج وكأنه لا حركة له بالحقيقة، وهذا وإن ظنه كثير من القوم غاية، وظنه بعضهم لازما من لوازم التوحيد فالصواب أن من ورائه ما هو أجل منه، وغاية هذا الفناء فى توحيد الربوبية، وهو أن لا يشهد ربا وخالقا ومدبرا إلا الله، وهذا هو الحق، ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفى فى النجاة فضلا عن أن يكون شهوده والفناء فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطلبهم، فالغاية التى لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها الفناء فى توحيد الإلهية وهو أن يفنى بمحبة ربه عن محبة كل ما سواه، وبتألهه عن تأله ما سواه، **وبالشوق** إليه وإلى لقائه عن **الشوق** إلى ما سواه، وبالذل [والفقر] له والفقر إليه من جهة كونه معبوده وإلهه ومحبوبه عن الذل إلى كل ما سواه، وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه، فيرى أنه ليس فى الوجود ما يصلح له ذلك إلا الله، ثم يتصف بذلك حاله وينصبغ به قلبه صبغة ثم يفنى بذلك عما سواه، فهذا هو التوحيد الخاص الذى شمر إليه العارفون، والورد الصافى الذى حام حوله المحبون، ومتى وصل إليه العبد." (١)

"وحى على يوم المزيد وموعد ال ... المبين، طوبى للذى هو منهم

وحى على واد بها هو أفيح ... وتربته من أذفر المسك أعظم

ومن حولها كثبان مسك مقاعد ... لمن دونهم هذا الفخار المعظم

يرون به الرحمن جل جلاله ... كرؤية بدر التم لا يتوهم

أو الشمس صحوا ليس من دون أفقها ... ضباب ولا غيم هناك يغيم

وبينا فى عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم

إذا هم بنور ساطح قد بدا لهم ... فقيل ارفعوا أبصاركم، فإذا هم

بربهم من فوقهم وهو قائل: ... سلام عليكم طبتم وسلمتم

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٠

فيا عجبا، ما عذر من هو مؤمن ... بهذا ولا يسعى له ويقدم

فبادر إذا ما دام فى العمر فسحة ... وعدلك مقبول وصرفك قيم

فما فرحت بالوصل نفس مهينة ... ولا فاز قلب بالبطالة ينعم

فجد وسارع واغتنم ساعة السري ... ففى زمن الإمكان [تسعى وتغنم]

وسر مسرعا فالسير خلفك مسرع ... وهيهات ما منه مفر ومهزم

فهن المنأيا أى واد نزلته ... عليها [قدوم] أو عليك ستقدم

وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك ال ... معنى رهين فى يديها مسلم

وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى ... لها منك [والواشى] بها يتنعم

فدعها وسل النفس عنها بجنة ... من الفقر فى روضاتها الدر [ييسم]

ومن تحتها الأنهار تخفق دائما ... وطير الأمانى فوقها يترنم

وقد ذللت منها القطوف فمن يرد ... جناها ينله كيف شاء وينعم

وقد فتحت أبوابها وتزينت ... لخطابها فالحسن فيها [مقسم]

[أقام علي] أبوابها داعى الهدي ... هلموا إلى دار السعادة تغنموا

وقد طاب منها نزلها ومقيلها ... فطوبى لمن حلوا بها وتنعموا

وقد غرس الرحمن فيها غراسه ... من الناس، والرحمن بالغرس أعلم

فمن كان من غرس الإله فإنه ... سعيد وإلا فالشقا متحتم

فيا مسرعين السير بالله ربكم ... قفوا بى على تلك الربوع وسلموا

وقولوا: محب قاده الشوق نحوكم ... قضى نحبه فيكم [تعيشوا وتسلموا]

قضى الله رب العالمين قضية ... بأن الهوى يعمى القلوب ويبكم

وحبكم أصل الهدى ومداره ... عليه وفوز للمحب ومغنم." (١)

"فلا يكفى وحده، وإن كان لا بد منه، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية.

"فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم"، وأن يكرمهم إذا قدموا عليه، وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه وبه سروره ولذته ونعيمه فهو أيضا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذى يرضى به، ويفرح بتوبة عبده إذا رجع إليه وإلى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٥٢

وجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض مهلكة بعد أن فقدها وأيس منها، وهذا أعظم فرح يكون، وكذلك العبد فلا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق إلى لقائه، فليس فى الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأحبه- وإن حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده- ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهى الذى هو عذب فى مبدئه عذاب فى نهايته كما قال القائل:

مآرب كانت فى الشباب لأهلها ... [عذابا] فصارت فى المشيب عذابا

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، فإن قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلها حقا، إذ الإله الحق لا شريك له ولا سمى له ولا مثل له، فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق كما أنها لا توجد إلا باستنادها إلى الرب الواحد القهار ويستحيل أن تستند فى وجودها إلى ربين متكافئين، فكذلك يستحيل أن تستند فى بقائها وصلاحها إلى إلهين متساويين.

إذا عرف هذا فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا فى محبته ولا فى خوفه ولا فى رجائه ولا فى التوكل عليه ولا فى العمل له ولا فى الحلف به ولا فى النذر له ولا فى الخضوع له ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذى لا إله إلا هو، فلا تطمئن فى." (١)

"المطالب سواه، فلا يبقى فى قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقريب إليه. فإذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأخذ بقلبه إليه وتولاه فى جميع أموره فى معاشه ودينه وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يربى الوالد الشفيق ولده، فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه، ورضى به من الناس حبيبا وربا، ووكيلا وناصرا ومعينا وهاديا، فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه حبا له وشوقا إليه ويقع شكرا له، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادها إلى عالم الشهوات

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٥٧

والتعلق بالأسباب، فصدت عن كمال نعيمها، وذلك تقدير العزيز العليم.
وإلا فأى قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن إلى غيره ويسكن إلى ما سواه؟ هذا ما لا يكون أبدا، ومن ذاق شيئا من ذلك وعرف طريقا موصلة إلى الله ثم تركها وأقبل على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته وقع فى آثار المعاطب وأودع قلبه سجون المضايق وعذب فى حياته عذابا لم يعذبه أحد من العالمين، فحياته عجز وغم وحزن، وموته كدر وحسرة، ومعاده أسف وندامة، قد فرط عليه أمره وشتت عليه شمله، وأحضرت نفسه الغموم والأحزان، فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين، يستغيث فلا يغاث ويشتكى فلا يشكى، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة وأقبلت آلامه، وأحزانه وحسراته مقبلة، فقد أبدل بأنسه وحشه وبعزه ذلا وبغناه فقرا وبجمعيته تشتيتا، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم، وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا، ذلك بأنه عرف طريقه إلى الله ثم تركها وناكبا عنها مكبا على وجهه، فأبصر ثم عمى وعرف ثم أنكر وأقبل ثم أدبر ودعى فما أجاب وفتح له فولى ظهره الباب، قد ترك طريق مولاه وأقبل بكليته على هواه، فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشئونه فهو مقيد القلب عن انطلاقه فى فسيح التوحيد وميادين الأنس ورياض المحبة وموائد القرب، قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق إلى أسفل السافلين، وحصل فى عداد الهالكين فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده، وإعراض الكون عنه- إذ أعرض عن ربه- حائل بينه وبين مراده، فهو قبر يمشى على وجه الأرض فروحه فى وحشة من جسمه وقلبه فى ملال من حياته، يتمنى الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه، حتى إذا جاءه الموت على." (١)

"له من جهة أخرى، وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنه وقال: إنه يحب الله ورسوله ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزيء والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الإيمان، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالما لنفسه من وجه آخر.
وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر، ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف.
فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل أشكالها بحمد الله. قالوا: وأما قولكم: إن قوله تعالى: ﴿جنات

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/١٨٠

عدن﴾ مرفوع لأنه بدل من قوله: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ [فاطر: ٣٢] [الشورى: ٢٢] وهو مختص بالسابقين، وذكر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك إلخ.

فجوابه من وجهين: أحدهما أن هذا بعينه وارد عليكم، فإن المقتصد من أهل الجنات، ومعلوم أن جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته، فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه، فإن التفاوت حاصل بين جنات الأصناف الثلاثة، ويختص كل صنف بما يليق بهم ويقتضيه مقامهم وعملهم.

الجواب الثاني: أنه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات هنا **مشوقا** لعباده إليه منبها لهم على مقداره وشرفه، وسكت عن جزاء الظالمين لأنفسهم والمقتصدين ليحذر الظالمون ويجد المقتصدون، وذكر في سورة الإنسان جزاء الأبرار منبها على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على أن هذا إذا كان جزاء الأبرار المقتصدين فما الظن بجزاء المقربين السابقين فقال تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾ إلى قوله:

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة﴾ إلى قوله: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ [الإنسان: ٥-٢١] ، فذكر." (١)

"أو مؤكد الاستحباب على القول الآخر، فإن الوضوء يخفف حدث الجنابة ويجعله طاهرا من بعض الوجوه.

ولهذا روى الإمام أحمد وسعيد بن منصور وغيرهما عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنهم إذا كان أحدهم جنبا ثم أراد أن يجلس فى المسجد توضأ ثم جلس فيه، وهذا مذهب الإمام أحمد وغيره، مع أن المساجد لا تحل لجنب، [فدل] على أن وضوءه رفع حكم الجنابة المطلقة الكاملة التى تمنع الجنب من الجلوس فى بيت الله وتمنع الروح من السجود بين يدى الله سبحانه.

فتأمل هذه المسألة وفقهها واعرف مقدار فقه الصحابة وعمق علومهم، فهل ترى أحدا من المتأخرين وصل إلى مبلغ هذا الفقه الذى خص الله به خيار عباده وهم أصحاب نبيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلى الله بهمه وحبه وأشواقه مشتاقا إليه طالبا له محتاجا [له] عاكفا عليه، فحاله كحال المحب الذى غاب عن محبوبه الذى لا غنى له عنه ولا بد له منه، وضرورته إليه أعظم

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٠٠

من ضرورته إلى النفس والطعام والشراب، فإذا نام غاب عنه فإذا استيقظ عاد إلى الحنين إليه، وإلى **الشوق** الشديد [والحب] المقلق فحبيبه آخر خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه كما قال بعض المحبين لمحبوبه:

وآخر شيء أنت فى كل هجعة ... وأول شيء أنت عند هبوبي

فقد أفصح هذا المحب عن حقيقة المحبة وشروطها، فإذا كان هذا فى محبة مخلوق لمخلوق فما الظن فى محبة المحبوب الأعلى، فأف لقلب لا يصلح لهذا ولا يصدق به، لقد صرف عنه خير الدنيا والآخرة.

فصل

فإذا استيقظ أحدهم [وقد بدر] إلى قلبه هذا الشأن فأول ما يجرى على لسانه ذكر محبوبه والتوجه إليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أن لا يخلى بينه وبين نفسه وأن لا يكله إليها فيكله إلى ضعة وعجز وذنب وخطيئة بل يكلأه كلاءة الوليد الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فأول ما يبدأ به الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، متدبرا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذى هو أخو الموت وأعاده إلى حاله سويا سليما محفوظا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات [المهلكات] والتى هو غرض وهدف لسهامها كلها." [١]

"وما أتركه لحقه [وأشده] إضاعته لحظه، ولو أحضر رشده لرأى ناصيته ونواصى الخلائق بيد الله سبحانه وتعالى يحفظها ويرفعها كيف [شاء] وقلوبهم بيده سبحانه وفى قبضته يقلبها كيف يشاء، يزيغ منها من يشاء ويقيم من يشاء، ولكان هذا غالبا على شهود قلبه فيغيب به عن مشيئاته وإرادته واختياره، ولعرف أن التدبير والركون إلى حول العبد وقوته من الجهل بنفسه وبربه، فينفى العلم بالله الجهل عن قلبه، فتمحى منه الإرادات والمشيئات والتدبيرات، ويفوضها إلى مالك القلوب والنواصى، فصير بذلك عبدا لربه تقلبه يد القدرة، ويصير ابن وقته لا ينتظر وقتا آخر يدبر [نفسه فيه] ، لأن ذلك الوقت بيد موقته، فيرى نفسه بمنزلة الميت فى قبره ينتظر ما يفعل به، مستسلم لله منقطع المشيئة والاختيار.

هذا ما يجرى على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكونى، فإذا جاء الأمر جاءت الإرادة والاختيار [السعى والجد] واستفراغ الفكر وبذل الجهد، فهو قوى حى فعال يشاهد عبودية مولاه فى أمره، فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه قد أخرج مقدوره من القوة إلى الفعل، وهو مع ذلك مستعين بربه قائم بحوله وقوته ملاحظ لضعفه وعجزه قد تحقق بمعنى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة: ٥] ، فهو ناظر بقلبه

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٠٩

إلى مولاه الذى حركه، مستعين به فى أن يوفقه لما يحبه ويرضاه، عينه فى كل لحظة شاخصة إلى حقه المتوجه عليه لربه ليؤديه فى وقته على أكمل أحواله، فإذا وردت عليهم أقداره التى تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية، وهم فيها على مراتب ثلاثة:

إحداها: الرضا عنه فيها والمزيد من حبه **والشوق** إليه، وهذا نشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبره وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سببا لمصالحهم، **وشوقهم** بها إلى حبه ورضوانه، ولهم من ذلك مشاهد أخر لا تسعها العبارة وهى فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله.

المرتبة الثانية: شكره عليها كشكره على النعم وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن.

والثالثة: للمقتصدين وهى مرتبة الصبر التى إذا نزل منها نزل إلى نقصان الإيمان وفواته من التسخط والتشكى، واستبطاء الفرج، واليأس من الروح والجزع الذى لا يفيد إلا فوات الأجر وتضاعف المصيبة.

فالصبر أول منازل الإيمان ودرجاته وأوسطها وآخرها، فإن صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر فى مرتبته، بل الصبر." (١)

"ولم يبق إلا صادق الوعد وحده ... فما لوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين

يسمى عذابا من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صائن

نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلى تباين

فهذا القائل خط على تلك النقطة التى نقطها أبو العباس ولعل الكلامين من مشكاة واحدة، وهذا مباين للمعلوم بالاضطرار من دين الرسل وما أخبرت به عن الله وأخبر به على لسان رسله.

فإن قيل: ليس مراده ما ذكرتم وفهمتم من كلامه، وإنما مراده أنه سبحانه إذا ابتلى عبده فى الدنيا فهو لكمال محبته له يتلذذ بتلك البلوى ويعدها نعمة، وليس مراده عذاب الآخرة.

قيل قوله عن الخواص: "أنهم جعلوا الوعيد منه وعدا" ينفى ما ذكرتم من التأويل، فإن ابتلاء الدنيا غير الوعيد. وأيضا فإنه فى مقام الخوف ونفيه عن الخاصة محتجا عليه بأنهم يرون العذاب عذبا والوعيد وعدا، فما لهم وللخوف؟ هذا مقصوده من سياق كلامه واحتجاجه عليه بهذا الهذيان الذى يسخر منه العقلاء.

بل نحن لا ننكر أن العبد إذا تمكن حب الله فى قلبه حتى ملك جميع أجزائه فإنه قد يتلذذ بالبلوى أحيانا،

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢١٨

وليس ذلك دائما ولا أكثريا، ولكنه يعرض عند هيجان الحب وغلبة **الشوق**، فيقهر شهود الألم، ثم يراجع طبيعته فيذوق الألم. ولكن أين هذا من جعل الوعيد وعدا، والعذاب عذبا؟ وإن أحسن الظن بصاحب هذا الكلام ظن به أنه ورد عليه وارد من الحب يخيل فى نفسه أن محبوبه إذا توعده كان ذلك منه وعدا وإن عذبه كان عذابه عنده عذبا لموافقته مراد محبوبه، وهذا خيال فاسد وتقدير فى النفس، وإلا فالحقيقة الخارجية تكذب هذا الخيال الباطل.

بل لو صب عليه أدنى شيء من عذابه لصاح واستغاث وطلب العفو والعافية. وحكمة الله تقتضى تعجيز هذه النفوس الجاهلة الرعناء الحمقاء بأدنى شيء يكون من الألم والوجع، حتى يتبين لها دعاويها الكاذبة، وشطحها الباطل.

وهذا سيد المحبين وسيد ولد آدم استعاذته بالله من عذابه وبلائه وسؤاله عافيته ومعافاته، معلومة فى أدعيته وتضرعه إلى ربه وابتهاله إليه فى ذلك، وهى أكثر وأشهر من أن تذكر ههنا، وإن ما فى سيد المحبين أسوة وقدوة، ولكن قد ابتلى كثير من أهل الإرادة بالشطح، كما ابتلى كثير من أهل الكلام." (١)

"العبد. والله أعلم، وإنشاده هذه الأبيات الثلاثة فى هذا المقام فى غاية القبح، فإن هذا المحب ينفى خوفه من محبوبه [أخر أنه يصد عن محبوتبه] ويعرض عنه إظهارا للتجلد أمام رقيبه، وذلك قبيح فى حكم المحبة، فإن التذلل للمحبوب وتملقه واستعطافه والانكسار له أولى بالمحب من تجلده وتعززه كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب فليس فى ... شرع الهوى أنف يشال ويعقد

ثم أخبر أنه يروم طيف خياله، فهو طالب لحظه من محبوبه لا لمراد محبوبه منه. فهذا محب لنفسه، وقد جعل طيف محبوبه وسيلة إلى حصول مراده فأحبه حب الوسائل، بخلاف من قد أحب محبوبه لذات المحبوب ففنى عن مراده هو منه بمراد محبوبه فصار مراده مراد محبوبه، فحصل الاتحاد فى المراد لا فى الإرادة ولا فى المريد، هذا إن كان صبده عنه تجلدا عليه، وإن كان تجلدا على الرقيب خوفا منه، فهو ضعيف المحبة، لأن فيه بقية ليست مع محبوبه بل مع رقيبه، فهلا ملأ الحب قلبه فلم يبق فيه بقية يلاحظ بها الرقيب والعاذل؟ كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية ... يجد السبيل بها إليه العذل

وبالجملة فهذه الأبيات ناقصة المعنى لا يصلح الاستشهاد بها [فى هذا المقام] والله أعلم.

فصل

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٩٠

والمقصود الكلام على علل المقامات وبيان ما فيها من خطإ وصواب؛ ولما كان أبو العباس بن العريف [رحمه الله] قد تعرض لذلك فى كتابه "محاسن المجالس" ذكرنا كلامه فيه وما له وما عليه، ثم ذكر بعد هذا فصلا فى المحبة وفصلا فى **الشوق**، فنذكر كلامه فى ذلك وما يفتح الله به تتميما للفائدة ورجاء للمنفعة، وأن يمن الله العزيز الوهاب بفضله ورحمته ويرقى عبده من العلم إلى الحال، ومن الوصف إلى الاتصاف. إنه قريب مجيب.

قال أبو العباس [رحمه الله] : "وأما المحبة فقد أشار أهل التحقيق فى العبارة عنها، وكل نطق." (١)

"بحسب ذوقه، وانفسخ بمقدار **شوقه**".

قلت: الشيء إذا كان فى الأمور الوجدانية الذوقية التى إنما تعلم بآثارها وعلاماتها، وكان مما يقع [فيه] التفاوت بالشدة والضعف، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة، اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء.

وهذا شأن المحبة، فإنها ليست- بحقيقة معانيها- ترى بالأبصار، فيشترك الواصفون لها فى الصفة. وهى فى نفسها متفاوتة أعظم تفاوت. كما بين العلاقة التى هى تعلق القلب بالمحبوب، والخلة التى هى أعلى مراتب الحب، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتا لا ينحصر.

ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها، فكل أدرك بعض [آثارها أو بعض] علاماتها فعبر بحسب ما أدركه وهى وراء ذلك كله: ليس اسمها كمسماها، ولا لفظها مبين لمعناها. وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والألم إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة لا تكشف حقيقتها، ولا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها. وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم. فالحدود والرسوم التى قيلت فى المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها بل هى إشارات وعلامات وتنبيهات.

فصل

قال: "وهى- على الإجمال قبل أن ننتهى إلى التفصيل- وجود تعظيم فى القلب يمنع الانقياد لغير [المحبوب] ". فيقال: هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها، لا أنه نفس المحبة. فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيما لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره.

وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد إلى غيره بل التعظيم المقارن للحب هو الذى يمنع من الانقياد

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٩٤

إلى غير [المحبوب فإن التعظيم إذا كان مجرد عن الحب لم يمنع انقياد القلب إلى غير] المعظم. وكذلك إذا كان الحب خاليا عن التعظيم [لم يمنع المحب أن ينقاد إلى غير محبوبه فإذا اقترن الحب بالتعظيم] وامتلأ القلب بهما امتنع انقياده إلى غير المحبوب.

والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثانى: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثالث: محبة أنس وإلف، وهى محبة المشتركين- فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر- بعضهم بعضا وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا.

فهذه الأنواع الثلاثة هى المحبة التى تصلح." (١)

"وإنما حصل له منه نظير ما يحصل له من أعدائه.

وهذه شكاية فى الحقيقة وإخبار عن [محبه معلول] بالحظ، وشكاية للحبيب بتفويته عليه [ثم إنه أخبر عن جناية أخرى وهى أنه شرك بينها وبين أعدائه] فى حبه لها، فصار حبه منقسما بعضه له وبعضه لأعدائه لشبههم إياها، ثم إن فى الشعر جناية أخرى عليها وهو أنه شبهها بمن جبلت القلوب على بغضه وهو العدو، واللائق تشبيه الحبيب بما هو أحب الأشياء إلى النفس كالسمع والبصر والحياة والروح والعافية، كما هو عادة الشعراء والناس فى نظمهم ونثرهم كما هو معروف بينهم وهو جادة كلاهم.

ثم أخبر بمحبته لأعدائه لشبههم بها، فتضمن كلامه معاداة من يحبه ومحبة من يعاديه، فإنها إذا أشبهت أعداءه لزم أن يحصل لها نصيب من معاداته وإذا أشبهها أعداؤه لزم أن يحصل لهم نصيب من محبته كما صرح به فى جانبهم وترك التصريح فى جانبها، وهو مفهوم من كلامه، ثم أخبر أنه يلتذ بملامة اللوام فى هواها لما يتضمن من ذكراها، وهذا يدل على قوة محبتها وسماع ذكرها، وهذا غرض صحيح مع أنه مدخول أيضا، فإن محبوبته قد تكره ذلك لما يتضمن من فضيحتها به وجعلها مضغة للماضغين، فيكون محبا لنفس ما تكرهه، وهذه محبة فاسدة معلولة ناقضة [لدعواه] موافقتها فى محابها.

فصل

قال: "وقيل: المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد، ومفارقة المضجع وأنت راقد، والسكوت وأنت ناطق، ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن".

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٢٩٥

فيقال: وهذا أيضا أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها وحكم من أحكامها. وهو صحيح، فإن المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما، والمحبة وطنه وتوجب مثوله وقيامه بين يدى محبوبه وهو قاعد، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد، وفراغه لمحبوبه كله وهو مشغول فى الظاهر بغيره. كما قال بعضهم:

وأديم نحو محدثى ليرى ... أن قد عقلت وعندكم عقلي

وقال بعض المريدين لشيخه: أيسجد القلب بين يدى الله؟ فقال: نعم سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة. فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه.

وكذلك يكون جسده فى مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافرا إلى حبيبه، فإذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حبه **وشوقه**، فيهزه المضجع إلى مسكنه. كما." (١)

"كان مشغولا بغيره فى حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هذا كان جديرا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقى شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

فصل

وقد قيل فى المحبة حدود كثيرة غير ما ذكره أبو العباس، فقيل: المحبة ميل القلب إلى محبوبه. وهذا الحد لا يعطى تصور حقيقة المحبة. فإن المحبة أعرف عند القلب من الميل. وأيضا فإن الميل لا يدل على حقيقة المحبة.

فإنها أخص من مجرد ميل القلب، إذ قد يميل قلب العبد إلى الشيء ولا يكون محبا له لمعرفته بمضرته له، فإن سمى هذا الميل محبة فهو اختلاف عبارة. وقيل: المحبة علم المحب بجمال المحبوب ومحاسنه. وهذا حد قاصر، فإن العلم بجماله ومحاسنه هو السبب الداعى إلى محبته، فعبر عن المحبة بسببها. وقيل: المحبة تعلق القلب بالمحبوب. وقيل: انصباب القلب إلى المحبوب. وقيل: سكون القلب إليه. وقيل: اشتغال القلب بالمحبوب، بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره. وقيل: المحبة بذل المجهود فى معرفة محبوبك، وبذل المجهود فى مرضاته. وقيل: هيجان القلب عند ذكر المحبوب، وقيل: شجرة تنبت فى القلب تسقى بماء [الموافقة] ، وإيثار رضى المحبوب. وقيل: المحبة حفظ الحدود، فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده. وقيل: المحبة إرادة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر [وقيل: فطام والجوارح عن إستعمالها

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٠٥

فى غير مرضاة المحبوب] وقيل: المحبة هى السخاء بالنفس للمحبوب وقيل: المحبة أن لا يزال عليك رقيب من المحبوب لا يمكنك من الانصراف عنه أبدا. وأنشد فى ذلك:

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ... إليك، ويأبى العذل إلا تجنبا

وما كان صدى عنك صد ملامة ... ولا ذلك الإعراض إلا تقربا

وما كان ذاك العذل إلا نصيحة ... ولا ذلك الإغضاء إلا تهيبا

على رقيب منك حل بمهجتى ... إذا رمت تسهيلا على تصعبا

وقيل: المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك، وقيل: المحبة صدق المجاهدة فى أوامر الله، وتجريد المتابعة لسنة رسول الله؟ صلى الله عليه وسلم. وقيل: المحبة أن." (١)

"تشير فأدرى ما تقول بطرفها ... وأطرق طرفى عند ذاك فتعلم

تكلم منا فى الوجوه عيوننا ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

قلت: كل معنى فله صيغة تعبر به عنه، ولا سيما إذا كانت من المعانى المعروفة للخاص والعام. ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنى مطابقة له، كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها، وهى أكبر الألفاظ.

وقد يكون المعنى فوق ما يشير إليه اللفظ ويعبر عنه، وهو أجل من أن يدل لفظه على كمال ماهيته وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه.

وكذلك اسم الحب فإنه لا يكشف اسمه مسماه، بل مسماه فوق لفظه، وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها. وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير، واللفظ أجل منه وأعظم.

وهذا كلفظ الجوهر الفرد الذى هو عبارة عن أقل شيء وأصغره وأدقه وأحقره، فليس معناه على قدر لفظه، وإذا عرف هذا فقولهم: "ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها" المراد به أن لفظها لا يفهم حقيقة معناها ومعناها فوق ما يفهم من لفظها.

وقوله: "الغيرة من أوصاف المحبة، وهى تأبى إلا التستر والاختفاء" هذا كلام فى حكم المحبة ومقتضاها، لا فى حقيقتها ومعناها، والمحبون متباينون فى هذا الحكم، فمنهم من يجعل الغيرة من لوازم المحبة وعلامة ثبوتها وتمكنها ويجعل نداء المرء عليها وبسط لسانه بالإخبار بها دليلا على أنه دعى فيها، وأن ما معه منها رائحتها لا حقيقتها، وحقيقتها تأبى إلا التستر والكتمان. وهذه طريقة الملاميين، كما قيل:

لا تنكرى جحدى هواك، فإنما ... ذاك الجحود عليه ستر مسبل

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٠٩

ولهذا قيل: المحبة كتمان الإرادة، وإظهار الموافقة. وهذه الطائفة رأت أن كمال المحبة بكتمانها لأسباب عديدة:

أحدها: أن الحب كلما كان مكتوما كان أشد وأعظم سريانا وسكونا فى أجزاء القلب كلها، كما قيل: الحب أقتله أكتمه فإذا أفشاه المحب وأظهره وباح به ونادى عليه ضعف أثره وصار عرضة للزوال.

الثانى: أن الحب كنز من الكنوز، بل هو أعظم الكنوز المودعة فى سر العبد." (١)

"الأستار، وكشف الأسرار. فهذا حال النووى وأضرابه.

وعند هؤلاء التكتم ضعف فى المحبة وجور فيها، وحقيقتها أن تخليها ومقتضاها من ظهور آثارها على الجوارح والبدن، فإن أثرت حركة لم يسكنها وإن [أثرت دمعه لم يرسلها وإن أثرت تنفسا لم يكظمه وإن] أثرت بذلا وإيثارا لم يمسكه.

وكمال المحبة عندهم أن تنادى عليه أعضاؤه وألفاظه وألحاظه وحركاته وسكناته بالحب نداء لا يملك إنكاره.

وقال على بن عبيد وكتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السموات والأرض ما روى بعد، ولسانه خارج وهو يقول هل من مزيد. فلم ير هذان العارفان التكتم بها وإخفاءها وجحدها وهما هما. وكان الأستاذ أبو على الدقاق ينشد كثيرا:

لى سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وجاء رجل إلى عبد الله بن المنازل فقال: رأيت فى المنام كأنك تموت إلى سنة، فقال عبد الله: لقد أجلتنى إلى أجل بعيد أعيش إلى سنة، لقد كان لى أنس ببيت سمعته من أبى على [الثقفى] :

يا من شكى شوقه من طول فرقته ... اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وقال الشبلى: المحب إذا سكت هلك، والعارف إن لم يسكت هلك.

والتحقيق: أن هذا هو حال المتمكن فى حبه، الذى تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لا يلوى ولا يتغير.

والأول حال المريد المبتديء الذى قد علقت نار المحبة فى قلبه، ولم يتمكن اشتعالها، فهو يخاف عليها عواصف الرياح أن تطفئها، فهو يخبئها ويكتمها ويسترها من الرياح جهده، فإذا اشتغلت وتمكن وقودها فى القلب لم تزدها كثرة الرياح إلا وقودا واشتعالا.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣١١

فهذا يختلف باختلاف الناس وتفاوتهم فى قوة المحبة وضعفها. والمقصود أن من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها وأحكامها لن يؤمن أن يكون من أهل العلم بالمحبة لا من المتصفين بها حالا، فكم بين العلم بالشيء والاتصاف به ذوقا وحالا، فعلم المحبة شيء ووجودها فى القلب شيء. وكثير من المحبين الذين." (١)

"فالعبد له والمال له والثواب منه، فهو المعطى أولا وآخرا فكيف لا يحب من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحى العبد أن يصرف شيئا من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده لا إله إلا هو العزيز الحكيم ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة، وهو الذى ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ سبحانه وتعالى سماواته من ملائكته، واستعملهم فى الاستغفار لأهل الأرض واستعمل حملة العرش منهم فى الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته.

فانظر إلى هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه وفقيرهم إلى أن يسأله غناه وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلى التوبة وقد حاربوه وعذبوا أولياءه وأحرقوهم بالنار. قال تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ [البروج: ١٠] .

وقال بعض السلف: انظروا إلى كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة. فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته سبحانه وتعالى، فإن نعمته على عباده مشهودة لهم، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات.

وقد روى فى بعض الأحاديث مرفوعا: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبونى بحب الله"، فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن [والإحسان] ورؤية النعم والآلاء، وكلما سافر القلب [بفكره] فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظرا ازداد فيها اعتبارا وعجزا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه، والله سبحانه وتعالى دعا عباده إليه من هذا الباب،

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣١٣

حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر وهو باب الأسماء والصفات الذى إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقا الذى لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقا ومحبة." (١)

"سابقون لهم، فإنهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة، فهذا كله بناء على أن الفناء هو الغاية التى لا غاية للعبد وراءها ولا كمال له يطلبه فوقها. وقد تبين ما فى ذلك، وما هو الصواب بحمد الله، فقوله [رحمه الله] : "كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته" يقال له: إذا كان إنما [منه] العبودية التى يحبها الله كسبا ومباشرة فهو قائم بها شاهد لمقيمه فيها مطالع [لمنه] ، وفضله، فأى علة هنا سوى وقوفه مع شهودها منه، وغيبته عن شهود إقامة الله وتحريكه إياه، وتوفيقه له؟ فالعلة هى بهذا الشهود وهذه الغيبة المنفاية لكمال الافتقار والفاقة إلى الله، وأما شهود فقره وفاقته ومجموع حالاته وحركاته وسكناته إلى وليه [وبارئه] مستعينا به أن يقيمه فى عبودية خالصة له، فلا علة هناك.

قوله: "وإنما عين الحقيقة أن يكون قائما بإقامته له" إلى آخر كلامه، يقال: إن أردت أنه يشهد إقامة الله له حتى قام ومحبته له حتى أحبه ونظره إلى عبده حتى أقبل عبده عليه ناظرا إليه بقلبه فهذا حق، فإن ما من الله سبق ما من العبد، فهو الذى أحب عبده أولا فأحبه العبد، وأقام العبد فى طاعته فقام بإقامته، ونظر إليه فأقبل العبد عليه، وتاب عليه أولا فتاب إليه [عبده] .

وإن أردت أنه لا يشهد فعله البتة بل يفنى عنه جملة ويشهد أن الله وحده هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما [حرما] فى شهوده، وإن لم تفن وتعدم فى الخارج- وهذا هو مراد القوم- فدعوى [أن هذا هو الكمال الذى لا كمال فوقه ولا غاية وراءه دعوى] مجردة لا يستدل عليها مدعيها بأكثر من الذوق والوجد، وقد تقدم أن هذا ليس بغاية، وإنما غايته أن يكون من عوارض الطريق، وأن شهود الأشياء فى مراتبها ومنازلها التى أنزلها سبحانه إياها أكمل وأتم.

ويكفى فى بعض هذا الاحتجاج عليه بصفات الكفار، فإن الله ذمهم بأنهم صم بكم عمى، فهذه صفات نقص وذم لا صفات كمال ومدحة، وهل الكمال إلا فى حضور السمع والبصر والعقل وكمال التمييز وتنزيل الخلق والأمر منازلهما والتفريق بين ما فرق الله بينه؟ فالأمر كله فرقان وتمييز وتبيين، فكلما كان تمييز العبد وفوقانه أتم كان حاله أكمل وسيره أصح وطريقه أقوم وأقرب. والحمد لله رب العالمين.

فصل

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣١٧

قال أبو العباس: وأما الشوق فهو هبوب القلب إلى غائب، وإعواز الصبر عن فقده، وارتياح السر إلى طلبه. وهو من مقامات العوام، وأما الخواص." (١)

"فهو عندهم مخلة عظيمة لأن الشوق إنما يكون إلى غائب. ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة والطريق عندهم أن يكون العبد غائبا والحق ظاهرا. ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولا سنة صحيحة.

[لأن] الشوق مخبر عن بعد ومشير [إلى] غائب، وهو يطلع إلى إدراك: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد: ٤] ، وقيل:

ولا معنى لشكوى الشوق يوما ... إلى من لا يزول عن العيان

اختلف الناس فى الشوق والمحبة أيهما أعلى؟ فقالت طائفة: المحبة أعلى من الشوق هذا قول ابن عطاء وغيره، واحتجوا بأن الشوق غايته أن يكون أثرا من آثار المحبة، ومتولدا عنها: فهى أصله وهو فرعها. قالوا: والمحبة توجب آثارا كثيرة فمن آثارها الشوق. وقالت طائفة منهم سرى السقطى وغيره: الشوق أعلى. قال الجنيد: سمعت السرى يقول: الشوق أجل مقامات العارف، إذا تحقق فى الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه. وإنما يظهر سر المسألة بذكر فصلين: الأول فى حقيقة الشوق، والثانى فى الفرق بينه وبين المحبة.

ويتبع ذلك خمس مسائل:

إحداها: هل يجوز إطلاقه على الله كما يطلق عليه أنه يحب عباده أم لا؟

الثانية: هل يجوز إطلاقه على العبد فيقال: يشتاق إلى الله كما يقال يحبه؟

الثالثة: أنه هل يقوى بالوصول والقرب، أم يضعف بهما؟ فأى الشوقين أعلى: شوق القريب الدانى، أم شوق البعيد الطالب؟

الرابعة: ما الفرق بينه وبين الاشتياق، فهل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟

الخامسة: فى بيان مراتبه وأقسامها ومنازل أهله فيه.

الفصل الأول – فى حقيقة الشوق:

هو سفر القلب فى طلب محبوبه، بحيث لا يقر قراره حتى يظفر به ويحصل له. وقيل: هو لهيب ينشأ بين

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٢٦

أثناء الحشا، سببه الفرقة، فإذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب. وقيل: الشوق هبوب القلب إلى محبوب غائب.

وقال ابن خفيف [الشوق] ارتياح القلوب ومحبه اللقاء بالقرب: وقيل] الشوق [تروح] القلوب نحو المحبوب من ءير منازع. ويقال: الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد. فهذه الحدود ونحوها مشتركة فى أن الشوق إنما يكون مع الغيبة من المحبوب وأما مع حضوره ولقائه فلا شوق.

وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه، فإن المحبة لا تزول باللقاء، وبهذا يتبين الكلام فى الفصل الثانى وهو الفرق بينه وبين المحبة.." (١)

"الفصل الثانى – الفرق بينهما:

فرق ما بين الشيء وأثره. فإن الحامل على الشوق هو المحبة، ولهذا يقال: لمحبتى له اشتقت إليه وأحببته فاشتقت إلى لقائه، ولا يقال: لشوقى إليه أحببته، ولا اشتقت إلى لقائه فأحببته.

فالمحبة بذر فى القلب، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر، وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب والرضى عنه وشكره وخوفه ورجاؤه والتنعيم بذكره والسكون إليه والأنس به والوحشية بغيره، وكل هذه من أحكام المحبة ... وثمراتها، وهو حياتها، فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة: فإن القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد فى الهرب منه، وإذا أحبه جد فى الهرب إليه وطلبه، فهو حركة القلب فى الظفر بمحبوبه ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر عنه.

فصل

وأما المسائل [الخمس] فإحداها: هل يجوز إطلاقه على الله؟ فهذا مما لم يرد به القرآن ولا السنة بصريح لفظه. قال صاحب "منازل السائرين" وغيره: وسبب ذلك أن الشوق إنما يكون لغائب.

ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة، ولهذا السبب عندهم لم يجيء فى حق الله ولا فى حق العبد.. وجوزت طائفة إطلاقه كما يطلق عليه سبحانه، ورووا فى أثر أنه يقول: "طال شوق الأبرار إلى لقائى، وأنا إلى لقائهم أشوق". قالوا: وهذا الذى تقتضيه الحقيقة، وإن لم يرد به لفظ صريح، فالمعنى حق، فإن كل محب فهو مشتاق إلى لقاء محبوبه.

قالوا: وأما قولكم إن الشوق إنما يكون إلى الغائب وهو سبحانه لا يغيب عن عبده ولا يغيب العبد عنه،

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٢٧

فهذا حضور العلم، وأما اللقاء والقرب فأمر آخر، **فالشوق** يقع بالاعتبار الثانى وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنو منه، وهذا له أجل مضروب لا ينال قبله.

قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ [العنكبوت: ٥] ، قال أبو عثمان الحيرى: هذا تعزية للمشتاقين، معناه: إنى أعلم أن اشتياقكم إلى غالب، وأنا أجلت للقائكم أجلا، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه. والصواب أن يقال: إطلاقه [اللفظ] متوقف على السمع، ولم يرد به، فلا ينبغى إطلاقه. وهذا كلفظ العشق أيضا، فإنه لما لم يرد به سمع فإنه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه.

واللفظ الذى أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأجل شأنا هو لفظ المحبة، فإنه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها." (١)

"حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه قال: صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها، فقلت: خففت يا أبا اليقظان، فقال: وما على من ذلك ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات فقال: "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا علمت الوفاة خيرا لى، اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر فى وجهك **والشوق** إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين".

فهذا فيه إثبات لذة النظر إلى وجهه الكريم، **وشوق** أحبابه إلى لقائه، فإن حقيقة **الشوق** إليه هو **الشوق** إلى لقائه، قال أبو القاسم القشيرى: سمعت الأستاذ أبا على يقول فى [قوله] ، صلى الله عليه وسلم: " أسألك **الشوق** إلى لقائك" قال: كان **الشوق** مائة جزء فتسعة وتسعون له، وجزء متفرق فى الناس فأراد أن يكون ذلك الجزء له أيضا، فغار أن تكون شظية من **الشوق** فى لغيره. قال: وسمعته يقول فى قول موسى: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤] ، قال: معناه **شوقا** إليك، فستره بلفظ [الرضا] ، وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه.

وقيل: إن شعيبا بكى حتى عمى بصره، فأوحى الله إليه: إن كان هذا لأجل الجنة فقد أبحتها لك، وإن كان لأجل النار فقد أجرتك منها. فقال: لا بل **شوقا** إليك، وقال بعض العارفين: من اشتاق إلى الله اشتاق

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٢٨

إليه كل شيء.

وقال بعضهم: قلوب [المشتاقين] منورة بنور الله [عز وجل] فإذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إلى، أشهدكم أنى إليهم أشوق، وإذا كان الشوق هو سفر القلب فى طلب محبوبه ونزوعه إليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها، ومن أنكر شوق العبد إلى ربه فقد أنكر محبته له، لأن المحبة [تستلزم] الشوق [فالمحب] دائما مشتاق إلى لقاء [حبيبه] : لا يهدأ قلبه ولا يقر قراره إلا بالوصول إليه.

[وأما] قوله:"إن الشوق عند الخواص علة عظيمة، لأن الشوق إنما يكون إلى غائب، ومذهب [هذه] الطائفة إنما قام على المشاهدة" فيقال: المشاهدة نوعان: مشاهدة عرفان،." (١)

"ومشاهدة عيان، وبينهما من التفاوت ما بين اليقين والعيان، ولا ريب أن مشاهدة العرفان متفاوتة بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها، وليس للمعرفة نهاية تنتهى إليها بحيث إذا وصل إليها العارف سكن قلبه عن الطلب، بل كلما وصل منها إلى معلم ومنزلة اشتد شوقه إلى ما وراءه، وكلما ازداد معرفة ازداد شوقا، فشوق العارف أعظم الشوق فلا يزال فى مزيد من الشوق ما دام فى مزيد من المعرفة، فكيف يكون الشوق عنده علة عظيمة؟ هذا من المحال البين.

بل من عرف الله اشتاق إليه، وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له. هذا مع الشوق الناشيء عن طلب اللقاء والرؤية والمعرفة العيانية، فإذا كان القلب حاضرا عند ربه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا أن لا يكون مشتاقا إلى لقائه ورؤيته، بل هذا يكون أتم لشوقه وأعظم.

فظهر أن قوله: "وإن الشوق علة عظيمة فى طريق الخواص" كلام باطل على كل تقدير. وإن الشوق بالحقيقة إنما هو شوق الخواص العارفين بالله، والعبد إذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجل اشتاق إليه بالضرورة، ولم يكن شوقه علة له ونقصا فى حاله بل زيادة وكمالا، ويكون ترك الشوق هو العلة.

وقد تقدم أن لا غاية للمعرفة تنتهى إليها فيبطل الشوق بنهايتها، بل لا يزال العارف فى مزيد من معرفته وشوقه والله المستعان.

فصل

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣١

وأما المسألة [الثالثة] وهي: هل يزول **الشوق** باللقاء أم يقوى؟ فقالت طائفة: **الشوق** يزول باللقاء، لأنه طلب، فإذا حصل المطلوب زال الطلب، لأن تحصيل الحاصل محال، ولا معنى **للشوق** إلى شيء حاصل، وإنما يكون **الشوق** إلى شيء مراد الحصول محبوب الإدراك، وقالت طائفة أخرى: ليس كذلك بل **الشوق** يزيد بالوصول واللقاء ويتضاعف بالدنو، ولهذا قال القائل:

وأعظم ما يكون **الشوق** يوما ... إذ دنت الديار من الديار

ولهذا قال بعضهم: **شوق** أهل القرب أتم من **شوق** المحبوبين واحتجت هذه الطائفة بأن **الشوق** من آثار الحب ولوازمه، [وكما] أن الحب لا يزول باللقاء فهكذا **الشوق** الذى لا يفارقه.

قالوا: ولهذا لا يزول الرضى والحمد والإجلال والمهابة التى هى من آثار المحبة باللقاء، فهكذا **الشوق** يتضاعف ولا يزوال، والقولان حق.

وفصل." (١)

"الخطاب فى المسألة أن المحب إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه فإذا حصل له اللقاء زال ذلك **الشوق** الذى كان متعلقا بلقائه وخلفه **شوق** آخر أعظم منه وأبلغ إلى ما [مزيد] قربه والخظوة عنده، وأما إذا قدر أنه لقيه ثم احتجب عنه ازداد **شوقه** إلى لقاء آخر ولا يزال يحصل له **الشوق** كلما احتجب عنه، فهذا لا ينقطع **شوقه** أبدا، فهو إذا رآه بل **شوقه** برؤيته. وإذا زال عنه الطرف عاوده **الشوق** كما قيل:

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته ... حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

وإنما الشأن فى دوام **الشوق** حال الوصول واللقاء، فاعلم أن **الشوق** نوعان:

شوق إلى اللقاء، فهذا يزول باللقاء. **وشوق** فى حال اللقاء، وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقا لا ينقطع [أبدلا] ، فلا تزال الروح مشتاقة إلى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقا لا يهدأ. وقد أفصح بعد المحبين للمخلوق عن هذا المعنى بقوله:

أعانقها والنفس بعد **مشوقة** ... إليها وهل بعد العناق [تدانى]

وألثم فاها كى تزول صبابتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان

فالشوق فى حال الوصل والقرب إلى مزيد النعيم واللذة لا ينقطع **والشوق** فى حال السير إلى اللقاء ينقطع.

ونستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له:

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣٢

فالخوف أولى بالمسي ... إذا تألّه والحزن

والحب يحمل بالتقي ... و [ب] النقاء من الدرن

لكن إذا ما لم يحب ... كم المسيء إذن فمن

وإذا تخون فعلنا ... فعل المحبة مؤتمن

أيحب شيء غيركم ... وحياتكم كلا ولن

أيحب من تأتى محب ... ته بأنواع المحن

والسعد فيها ذابح ... والقلب فيها ممتحن

دون الذى فى حبه ... نيل السعادة والمنن

ومحل بدر كمالها ... سعد السعود هو الوطن

والقلب حين يحل فى ... تلك المنازل والدمن

يمسى ويصبح من رضا ... ه ومن مناه فى وطن

أيحبهم قلب ويخ ... شى أن يضام؟ فلا إذن." (١)

"فصل

وأما المسألة الرابعة وهى: الفرق بين الشوق والاشتياق، فقال أبو عبد الرحمن السلمى: سمعت النصر أباذى يقول: للخلق كلهم مقام الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق. ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار. وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق.

ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقا، والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا إذا دعاه إلى الاشتياق، فالاشتياق مطاوع شاقة يقال شاقنى فاشتقت إليه، ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم [منه] عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق والمشوق هو الصب المشتاق، والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق.

[فهاهنا] ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق والمشوق والشيق. فهذه ستة ألفاظ: أحدها: الشوق، وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه، ثم صار اسم مصدر الاشتياق. اللفظ الثانى: الاشتياق، وهو مصدر اشتاق اشتياقا، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر. اللفظ الثالث: التشوق وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال: تجرع وتعلم وتفهم. وهذا البناء مشعر بالتكلف

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣٣

وتناول الشيء على مهلة. اللفظ الرابع: الشائق، وهو الداعى **للمشوق** إلى الاشتياق. واللفظ الخامس: **المشوق**، وهو المشتاق الذى قد حصل له **الشوق**. اللفظ السادس: الشيق، وهو فعل بمنزلة هين ولين، وهو المشتاق.

فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ، وأما كون الاشتياق أبلغ من **الشوق** فهذا قد يقال فيه: إنه الأصل وهو أكثر حروفا من **الشوق**، وهو يدل على المصدر الفاعل. وأما **المشوق** ففرع عليه لأنه اسم مصدر وأقل حروفا وهو إنما يدل على المصدر المجرد، فهذه ثلاثة فروق [بينهما] . والله أعلم.

فصل

وأما المسألة الخامسة وهى فى مراتب **الشوق** ومنازله، فقال صاحب "منازل السائرين": "هو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: **شوق** العابد إلى." (١)

"الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل.

والدرجة الثانية: **شوق** إلى الله [عز وجل] زرعه الحب الذى ينبت على حافات المنن تعلق قلبه بصفاته المقدسة واشتاق إلى معانيه لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله. وهذا **شوق** تغشاه المبار، وتخالجه المسار ويقارنه الاصطبار. والدرجة الثالثة: نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبت السلو، ولم ينهنهها مقر دون اللقاء".

قلت: الدرجة الأولى هى **شوق** إلى فضل الله وثوابه. والثانية: **شوق** إلى لقائه ورؤيته. والثالثة: **شوق** إليه لا لعلة ولا لسبب ولا ملاحظة فيه غير ذاته.

فالأول: حظ المشتاق من إفضاله وإنعامه، والثانى: حظه من لقائه ورؤيته، والثالث: قد فنيت فيه الحظوظ واضمحلت فيه الأقسام.

وقوله فى الدرجة الأولى: "ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل" هذه ثلاث فوائد ذكرها فى هذا **الشوق**:

أمن الخائف، وفرح الحزين، والظفر [بالأمل] . فهذه المقاصد لما كانت حاصلة بدخول الجنة كانت مصورة للنفس أشد **الشوق** لها حصول هذه المطالب وهى الفوز والفرح.

وجماع ذلك أمران: أحدهما: النجاة من كل مكروه، والثانى: الظفر بكل محبوب. فهذان هما **المشوقان**

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣٤

إلى الجنة.

وقوله فى الثانية: "شوق إلى الله سبحانه وتعالى زرعه الحب" قد تقدم أن الشوق ثمرة الحب.

وقوله: "الذى ينبت على حافات المنن" أى أنشأه الفكر فى منن الله [تعالي] وأياديه وأنعامه المتواترة، وفيه إشارة إلى أن هذا الحب الذى هو نابت على الحافات والجوانب بعده حب أكمل منه وهو الحب الناشيء من شهود كمال الأسماء والصفات، وذلك ليس من نبات الحافات، ولكن من الحب الأول يدخل فى هذا كما تقدم، ولهذا قال: "تعلق قلبه بصفاته المقدسة".

وقوله: "اشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله" يشير به إلى ما يكرم الله به عبده من أنواع كراماته التى يستدل بها على أنه مقبول عند ربه ملاحظ بعنايته، وأنه قد ا ستخدمه وكتبه فى ديوان أوليائه وخواصه.

ولا ريب أن العبد متى شاهد تلك العلامات والآيات قوى قلبه وفرح بفضل ربه وعلم [أنه] أهل فطاب له السير ودام اشتياقه وزالت عنه العلل، وما لم ينعم عليه بشيء من ذلك لم يزل كئيبا حزينا خائفا أن يكون ممن لا يصلح لذلك الجناب ولم يصل لتلك المنزلة.

وقوله: "وهذا شوق تغشاه المبار" هى جمع مبرة وهى البر، أى أن هذا الشوق." (١)

"مشحون بالبر مغشى به، وهو إما بر القلب وهو كثرة خيره، فهذا القلب أكثر القلوب خيرا، فيفعل البر [تقربا] إلى من هو مشتاق إليه، فهو يجيش بأنواع البر، وهذه من فوائد المحبة أن قلب صاحبها ينبع منه عيون الخير وتتفجر منه ينابيع البر، يريد به بأن مبار الله ونعمه تغشاه على الدوام.

وقوله: "وتخالجه المسار" [أى مخالطة] السرور فى غضو أشواقه، فإنها أشواق لا وحشة معها ولا ألم، بل هى محشوة بالمسرات.

وقوله: "ويقارنه الاصطبار" أى صاحبه له قوة على اصطباره على مرضاة حبيبه شوقه إليه، وإنما يضعف الصبر لضعف المحبة والمحب من أصبر الخلق كما قيل:

نفس المحب على الآلام صابرة ... لعل مسقمها يوما يداويها

وقوله فى الدرجة الثالثة: "إنها نار أضرمها صفو المحبة" يعنى أن هذا الشوق يتوقد من خالص المحبة التى لا تشوبها علة، فهو أشد أنواع الشوق، ولهذا " [نغصت] العيش" أى كدرته ونغصت المشتاق فيه لأنه لا يصل إلى محبوبه ما دام فيه، فهو يترقب مفارقته.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣٥

وقوله: "وسلبت السلو" يعنى أن صاحبه لم يبق له مطمع فى سلوه أبدا، وهذا أعظم ما يكون من الحب والشوق، أن المحب أيس من السلو [وينقطع] طمعه منه كما [ييأس] من الأمور الممتنعة كرجوع أيام الشباب عليه وعوده طفلا ونحو ذلك.

وقوله: "ولم ينهنهها مقر دون اللقاء" أى أن هذه النار لا يبردها ولا يفتر حرها مقصود ولا مطلب ولا مراد دون لقاء محبوبه، فليس لا سبيل إلى تبريدها وتسكينها إلا بلقاء محبوبه.

فصل

قال أبو العباس: "فهذه كلها علل أنف الخواص منها وأسباب انفطموا عنها، فلم يبق لهم مع الحق إرادة، ولا فى عطائه تشوق إلى استزادة.

فهو منتهى زادهم وغاية رغبتهم فيعتقدون أن ما دونه قاطع عنه: ﴿قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد﴾ [الأنعام: ١٩] ، وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون لأن الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلق بالأحوال: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ [سورة ص: ٤٦-٤٧] .

قلت: يشير بذلك إلى المحو ومقام الفناء الذى هو غاية الغايات عنده، وقد تقدم الكلام عليه وأن مقام الصحو والبقاء أفضل منه وأتم عبودية. وينبغي أن يعرف أن مراعاة مقام الفناء الذى جعلوه غاية آل." (١)

"بيبعكم الذى بايعتم به﴾ [التوبة: ١١١] وهذا أيضا من النمط المتقدم وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله واستعانتهم بنعمه على محابه، قال تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكرا﴾ [سبأ: ١٣] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: " أفلا أكون عبدا شكورا". فسمى الأعمال شكرا وأخبر أن شكره قيامه بها ومحافظته عليها، فحقيقة الشكر هو الثناء على النعم ومحبته والعمل بطاعته، كما قال:

أفادتكم النعماء عندى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

فاليد للطاعة، واللسان للثناء، والضمير للحب والتعظيم، وأما السرور به وإن كان من أجل المقامات فإن العبد إنما يسر بمن هو أحب الأشياء إليه، وعلى قدر حبه له يكون سروره، وهذا السرور ثمرة الشكر لا أنه نفس الشكر، فكذلك الاستبشار والفرح بلقائه إنما هو ثمرة الشكر وموجبه، وهو كالرضا من التوكل وكالشوق من المحبة، وكالأنس من الذكر، وكالخشية من العلم وكالطمأننة من اليقين، فإنها ثمرات لها وآثار

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٣٦

وموجبات، فعلى قدر شكره بالأعمال الظاهرة والباطنة وتصحيح العبودية يكون سروره واستبشاره بلقائه، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به﴾ [التوبة: ١١١] فهذا إنما قاله للشاكرين الذين يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون، ثم وصفهم بعد ذلك بقيامهم بأعمال الشكر فقال: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾ [التوبة: ١١٢] ، فهؤلاء المستبشرون ببيعهم جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

فصل

قال: "ومحبتهم فناؤهم فى محبة الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال"؟ وقد تقدم الكلام على هذا بما فيه كفاية، وبينا أن البقاء فى المحبة أفضل وأكمل من الفناء فيها من وجوه متعددة، وأن الفناء إنما هو لضعف المحب عما حمل، وأما الأقوياء فهم- مع شدة محبتهم- فى مقام البقاء والتمييز.

وأما استدلاله بقوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ [يونس: ٣٢] فالآية إنما سبقت فى الكلام على من يعبد غير الله ويشرك به، قال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من." [(١)]

"يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ [يونس: ٣١- ٣٢] ، [فمن] عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره وكان فى مقام التمييز بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا ويبغض هذا ناظرا بقلبه إلى ربه عاكفا بهمته عليه منفذا لأوامره فهو مع الحق المحض. والله أعلم.

فصل

قال: **وشوقهم** هزمهم من رسمهم وسماتهم استعجالا للوصول إلى غاية المنى: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ [طه: ٨٤] ، قد تقدم الكلام فى **الشوق** مستوفى وليس الهرب من الغير والضد هو **الشوق**، بل هنا مهروب منه ومهروب إليه، **فالشوق** هو سفر القلب نحو المحبوب، وهذا لا يتم إلا بالهرب من ضده، فليس **الشوق** هو نفس الهرب من الرسوم والسمات.

فصل

قال: "والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء، والشكر والمحبة **والشوق** من منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى ما

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٤٦

لم يكن، ويبقى ما لم يزل".

قلت: الحقائق التى أشار إليها على لسان أهل السلوك ثلاث: "حقيقة إيمانية نبوية"، وهى حقيقة العبودية التى هى كمال الحب وكمال الذل، وسير أهل الاستقامة إنما هو إلى هذه الحقيقة ومنازل السير التى ينزلون فيها هى منازل الإيمان الموصلة إليها والمنحرفون لا يرضون بهذه الحقيقة ولا يقفون معها ويرونها منزلة من منازل العامة،

الحقيقة الثانية: "حقيقة كونية قدرية" يشاهدون فيها انفراد الرب [تعالى] بالتكوين والإيجاد وحده، وأن العالم كالميت يقلبه ويصرفه كيف يشاء، وهم يعظمون هذا المشهد ويروون الفناء فيه غاية ما بعدها شيء. وهذا من أغلاطهم فى المعرفة والسلوك، فإن هذا المشهد لا يدخل صاحبه فى الإيمان فضلا ءن أن يكون أفضل مشاهد أولياء الله المقربين، فإن عباد الأصنام شهدوا هذا المشهد ولم ينفعهم وحده، قال تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله، قل أفلا تذكرون." (١)

"وشرفهم إلا أن أهل السموات والأرض والطير فى الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم، وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والأرض حتى الدواب والطير، كما أن معلم الناس الخير يصلى عليه الله وملائكته، وكاتم العلم والهدى الذى أنزله الله وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون، فيا لها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالى والإمام على فراشه و [غيره] يعمل بالخير وتكتب الحسنات فى صحائفه فهى متزايدة ما دام يعمل بعدله، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره، فأين هذا من [صفه] الغاش لرعيته الظالم لهم [الذى] حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار. ويكفى فى فضله وشرفه أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما فى الآثار: أيها الملك المسلط المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتكف عنى دعوة المظلوم، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، فإنى لا أحجبها ولو كانت من كافر. فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه؟

الطبقة السادسة: المجاهدون فى سبيل الله، وهم جند الله، الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمى لهم حوزة الدين، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا، قد بذلوا أنفسهم فى محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم فى أعمالهم التى يعملونها وإن [باتوا] فى ديارهم، ولهم مثل أجور من عبد

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٤٧

الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه.

والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام فى الأجر والوزر، ولهذا كان الداعى إلى الهدى والداعى إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه.

وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى الجهاد والحض عليه ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات، ويكفى فى ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ [الصف: ١٠] ، **فتشوقت** النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التى الدال عليها رب [العالمين العليم] الحكيم فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ [الصف: ١١] ، فكأن." (١)

"شدة الجوع والظمأ أضعاف اللذة الحاصلة بدون ذلك، وكذلك لذة الوصل بعد الهجران والبعاد المؤلم **والشوق** الشديد أعظم من اللذة الحاصلة بدونه، ووجود الملزوم بدون لازمه محال، ولا ريب أن لذة آدم بعده إلى الجنة بعد أن خرج منها إلى دار التعب أعظم من اللذة التي كانت حاصلة له أولا.

وأما غير المكلفين من الحيوانات فقد يقال: إنه ما من حيوان إلا ويحصل له من اللذة والخير والنعيم ما هو أعظم مما يحصل له من الألم بأضعاف مضاعفة فإنه يلتذ بأكله وشربه ونومه وحركته وراحته وجماعه الأنثى، وغير ذلك، فنعيمه ولذته أضعاف ألمه، وحينئذ فالأقسام الأربعة: إما أن يعطل الجميع بترك خلق الحيوان لئلا يحصل له الألم، أو يخلق على نشأة لا يلحقه بها ألم، أو على صفة لا ينال بها لذة، أو على هذه الصفة والنشأة التي هو عليها.

فالقسم الأول ممتنع لمنافاته للحكمة، فإنه يستلزم تعطيل الكثير والنفع العظيم لما يستلزمه من مفسدة قليلة كتعطيل الأمطار والثلوج والرياح والحر والبرد لما يتضمنه من الآلام، ولا ريب أن الحكمة والرحمة والمصلحة تأبى ذلك فترك الخير الكثير لأجل ما فيه من الشر القليل شر كثير.

وأما القسم الثاني فكما أنه ممتنع في نفسه إذ من لوازم إنشائه في هذا العالم أن يكون عرضة للحر والبرد والجوع والعطش والكلال والتعب وغيرها، فإنه منشأ من هذا العالم الذي مزج خيره بشره، والمنشأ خير منه كذلك، فالحكمة تأبى إنشاءه لذلك في هذا العالم الذي مزج رخاؤه بشدته، وبلاؤه بعافيته، وألمه بلذته، وسروره بغمه وهمه، فلو اقتضت الحكمة تخليص نوع الحيوان من ألمه لكان الإنسان الذي هو خلاصته وأفضله أولى بذلك، ولو فعل ذلك سبحانه لفاته مصلحة العبرة والدلالة على الآلام العظيمة الدائمة في الدار

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ابن القيم ص/٣٥٥

الآخرة، فإن الله تعالى أشهد عباده بما أعد لهم من أنواع اللذات والآلام في الدار الآخرة بما أذاقهم إياه في هذه الدار، فاستدلوا بالشاهد على الغائب واشتاقوا بما باشروه من اللذات إلى ما وصف لهم هناك منها واحتموا بما ذاقوا من الآلام هاهنا عما وصف لهم منها هناك، ولا ريب أن هذه المصلحة العظيمة أرجح من تفويتها بما فيها من المفسدة اليسيرة.

وأما القسم الثالث فلا ريب أنه مفسدة خالصة أو راجحة فلا تقتضيه حكمة الرب سبحانه، ولا يكون إيجاده مصلحة، فلم يبق إلا القسم الرابع وهو خلقه على هذه النشأة.." [1]

"**والشوق** إلى لقائك» " ولم يكن ليسأل لذة النظر إلى الثواب ولا يعرف تسمية ذلك وجها لغة ولا شرعا ولا عرفا.

الثاني عشر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه» " وفي السنن من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " «لا ينبغي لأحد أن يسأل بوجه الله إلا الجنة» "، فكان طاوس يكره أن يسأل الإنسان بوجه الله، وجاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فرفع إليه حاجته ثم قال: أسألك بوجه الله، فقال عمر: لقد سألت بوجه الله، فلم يسأل شيئا إلا أعطاه إياه، ثم قال عمر: ويحك ألا سألت بوجه الله الجنة، ولو كان المراد بوجهه مخلوقا من مخلوقاته لما جاز أن يقسم عليه ويسأل به ولا كان ذلك أعظم من السؤال به سبحانه.

وهذه الآثار صريحة في أن السؤال بوجهه أبلغ وأعظم من السؤال به، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» " فدل على بطلان قول من قال هو ذاته.

الثالث عشر: ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» " فإضافة السبحات التي هي الجلال والنور إلى الوجه وإضافة البصر إليه تبطل كل مجاز وتبين أن المراد وجهه.

الرابع عشر: ما قاله عبد الله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه، فهل يصح أن يحمل الوجه في هذا على." [2]

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ابن الموصلي ص/٢٤٠

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ابن الموصلي ص/٤١١

